[redacted]

رواية

مصطفى عبيد

نيتروجلسرين

أن تعيش لتقتل

كيان
KAYAN PUBLISHING

ليلنروجلسرين

رواية

تأليف

مصطفى عبيد

تصميم الغلاف:

أحمد مراد

مراجعة لغوية:

أحمد سعيد

رقم الإيداع: 2018/10019
الترقيم الدولي: 978-977-820-050-8

إشراف عام:

محمد جميل صبري

ليفين التهامي

كيان للنشر والتوزيع

٢٢ ش الشهيد الحي بجوار مترو ضواحي الجيزة - الهرم

هاتف أرضي: 0235688678 - 0235611772

هاتف محمول: 01005248794-01000405450-01001872290

بريد إلكتروني: info@kayanpublishing.com - kayanpub@gmail.com

الموقع الرسمي: www.kayanpublishing.com

نيتروجلسرين

أن تقتل لتقتل

مصطفي عبيد

رواية

«لا أحلم بأن يشرب الذئب مع الخروف من وعاء واحد. هذا حلم كبير. لا أحلم بأن يتوقف الناس عن متعة القتل. إن هذا مستحيل. كُل حلمي أن يظل القاتل قاتلًا والقتيل قتيلًا، دون أن تختلط علىّ اليد التي غرست السكين والقلب الذي تلقى الطعنات.

هابيل حبيبي، أفرح به حين يرفض مد يده ليبادل ابن أمه طعنة بطعنة. قابيل حبيبي، أفرح به وهو يبكي من الألم حين رأى جثة أخيه عارية، محرومة الروح في العراء.

أحلم بالحياة، حلبة مصارعة، بالعدل، بين الخطأ والندم، لا منتصر فيها ولا مهزوم».

الشاعر عماد أبو صالح

خطاب من قارئ

عزيزي الأستاذ......

تحية عطرة وسلامًا ومحبة.

أما بعد.

أتابع باهتمام ما تنشره من حكايات غريبة عن القتلة السريين في تاريخنا الحديث، وأتعجب مثلما تعجبت أنت كيف أخرجت هذه الأرض تلك النماذج، وكيف خطا على ترابها هؤلاء البشر! إنك بما كتبت تضبط جينات التطرف والإرهاب المتوارثة عبر أجيال من المصريين جيلًا بعد آخر. وأتصور أنك مُحق في تصديرك المقالات التي نشرتها بُحكم ثابت يؤكد أننا شعب يُخلّد المُجرمين ويُقدّس القتلة، وربما كان ذلك سببًا في اتساع دوائر العُنف في السنوات الأخيرة.

لن أطيل عليك سيدي، فالحكاية أنني وجدت كنزًا وثائقيًا أعتقد أنه يهمك ويهم الناس عندما اشتريتُ شقة قديمة في شارع الإسكندر الأكبر بمصر الجديدة لأخصصها عيادة لي. في إحدى الغُرف ترك المالك أجولة مملوءة بالكُتب والمجلات والأوراق القديمة، وبينها هالني أن أجد دفترًا مُجلدًا ومُعنونًا بكلمة «حياتي»، وهو ما جذب انتباهي لكونها مذكرات لشخصية قد تكون مُهمة. قلبت وريقات المُجلد لأجد حكايات عن عمليات اغتيال وقتل ومُتفجرات ومُحاكمات فلسفية لبعض المشاهير وتوصيف لكُل مُستهدف بكلمة «خائن»، وهو ما جعلني على يقين أنَّها تخُص قاتلًا سريًا مُحترفًا. ويبدو أنَّ هذا الرجل هو الذي أوحى للكاتب الراحل إحسان عبدالقدوس بكتابة روايته الشهيرة «في بيتنا رجل»، خاصة أنني وجدت طبعات مُتعددة من الرواية وصورًا مقصوصة من مجلات لعُمر الشريف، وهو يؤدي دور بطل الفيلم الذي حمل نفس اسم الرواية.

وبعـد... فـإنّ ضيـق وقـتي وضعـف معرفـتي بالتاريـخ دفعـاني أن أبعـث لـك بحزمـة الأوراق كاملـة، لعلـك تُحصّـل منهـا معلومـة غائبـة أو تُحقـق حكايـة غامضـة تُسـاهم بهـا في تنويـر النـاس.

ولك مني خالص الود وعظيم التقدير..

الدكتور حاتم مُصطفى الطوخي

استشاري العظام بمستشفى عين شمس التخصصي

كلمة إلى الكاتب

تمـوت في هـدوء، تُغـادر في صمـت، تخفُـت رويـدًا بعـد أن فتلـوا لـك المشـانق. تنسـحب بعيـدًا لترفـرف في اتجـاه آخـر. تكشـف حيلهـم، وتنجـو مـن فخاخهـم وتؤثـر لـك الحيـاة بقـدر حرصـك عـلى المـوت. سـنوات وراء سـنوات، وأنـت تطـير كفراشـة حـول نيرانهـم، تقفـز كأرنـب بـري فـوق حواجزهـم، وتفلـت كثعبـان مـن ضربـات بطشـهم. تُقـاوم كرصـاص وتصـبر كصحـراء وتُخطـط كثعلـب مُغامـر.

كُنـت دائمًـا تعلوهـم بوطنيتـك وتسـبقهم بولـه الشـباب وتتفـوق عليهـم بإعجـاب الرائـين والسـامعين، لكنـك الآن تمـضي وحيـدًا مُنعـزلًا، لا يعرفـك النـاس، ولا يسـتوقفك المـارة ليسـألوك إن كُنـت فلانًـا. انقلـب الزمـن وتبدلـت الأقنعـة وارتـدى الخونـة أرديـة البطولـة وربـح الانتهازيون والجُبنـاء، فـصرت نسـيًا منسـيًا. لا أهـل ولا تلاميـذ ولا أنصـار ولا حبيبـات تنفطـر قلوبهـن خوفًـا عليـك.

حـلَّ زمـن الخيانـات. الأبطـال صـاروا إرهابيـين، والمُحرضـون عـلى العُنـف أصبحـوا أنبيـاء رحمـة، وزعيـم القتلـة سـموه رئيسًـا مؤمنًـا. أمـا الفدائيـون، والمُضحـون، والعائشـون مـع الأخطـار فطاردتهـم أوصـاف دنيئـة مـن عينـة «مُتطـرف»، «إرهـابي»، «مهـووس بالـدم».

هكـذا المـوت أولى، وأفضـل، وأشرف، فأقفـز إلى الضفـة الأخـرى. يكفيك أنـك لـن تمـوت تحـت أقدامهـم، ولـن يفترسـوا جُثتـك. يُرضيـك أنـك لـن تمنحهـم نظـرات الشـماتة، ولـن تهدِهـم طمأنينـة التشـفي وأنـت تبـدأ رحلتـك الأبديـة نحـو المجهـول.

أيهـا السـاكن بـلا حـراك، مُنتظـرًا موعـدًا ضربـه لـك مـلاك الهيبـة الـذي زارك قبـل أيـام: يهـم فـؤادك أو تريـث، لا يهـم، فالموعـد لا يقبـل التأجيـل، وقُـل مـا تريـد واكتـب مـا تشـاء وأوصى بمـا تتمـنى فليـس

هُنـاك ماكينـة لإعـادة الزمـن وإيقـاف الفعـل.

الـكلام لا يُغـير أمـرًا والكتابـة لا تُصحـح مـا كان، والدمـوع لا تُعيـد مـا فـات، ومـا جـرى جـرى وأنـت راضٍ وحُـر، فاستسـلم للحظتـك الأبديـة واتـرك شـهادتك لعلَّهـا تكـون أجمـل مـا فعلـت في عُمـر تقبحـت فيـه أفعـال وتجملـت أفعـال واختلـط الحـق بالباطـل، وصرت نفسـك لا تـدري أأحسـنت أم أسـأت.

المـوتُ نهايـة البـشر، يولـدون صاخبـين وبكاؤهـم يبعـث الفرحـة في الآذان، ويعيشـون مُذبذبـين بـين الرضـا والسـخط، ويرحلـون مُتذكريـن مـا تركـوا مـن خـير، نادمـين عـلى أفعـال شر، ويخلفهـم غيرهـم ليكـرروا ذكرياتهـم الحسـنة وندمهـم المُتأخـر، لا شيء تغـير مُـذ خطـا آدم أولى خطواتـه عـلى الأرض.

تذكـر أنَّ بينـك وبـين الغيـاب سـاعات قـد تطـول وقـد تقـصر، وأنَّ عليـك أن تُصفّـي ذهنـك وتُنقـي بالـك لتسـتنطق لحظاتـك لحظـة لحظة، تكُـر فيهـا مـا كان دون دفـاع أو تبريـر، وتسـتعرض خلالهـا مـا فعلـت دون حجـب أو توريـة. لا تنتظـر إنصافًـا ولا تُقـدم ندمًـا وإنمـا تـترك مـا تعرفـه لكاتـب الصُدفـة ليصيـغ مـا يـراه جديـرًا بالحـكي لأجيـال قادمـة تتخبـط وتتشـابك أمامهـا الـرؤى والـدروب. سـتترك حكايتـك أمانـة لكاتـب لا يحبـك ولا يكرهـك، يدونهـا كعظـات لتائهـين يؤمنـون أنَّ الخـلاص في القتـل، أو دروس لشـباب عُميـت أبصارهـم وانخدعـوا بأقـوال كاذبـة وصدقـوا شـعارات رنانـة. رُبمـا صاغهـا أديـب بشـكل قصـصي جـذّاب ليؤثـر في نفـوس نقيـة تُجرجـر رويـدًا نحـو فخـاخ إبليـس فتكـون لهـم دليـل نجـاة.

سـتترك أوراقـك لمَـن؟ لا تعـرف. سـتتركها نابضـة صاحيـة ناقلـة لحيـوات تابعتهـا، ورجـال عايشـتهم، وكلمـات آمنـت بهـا، وأيـام عصيبـة تغـذت عـلى روحـك، دمـك، وذرات الإنسـانية داخلـك. هـذه الحقيقـة الـتي عشـت سـاترًا لهـا، وتلـك النهايـة الـتي لـم تتوقعهـا. مـا أبشـعها مـن

نهايـة: أن ترحـل في صمـت، في وحـدة، وبـدون مراسـم احتفـال، كمـشردي الشـوارع، وسـكان الرصيـف، والعائشـين عـلى الهامـش. لـولا بطاقتـك مـا عرفـوا مَـن أنـت وأيـن تُدفـن. لـولا مـرآة بسـيطة مازلـت قـادرًا عـلى قـراءة ملامحـك فيهـا لتصـورت أنـك لسـت أنـت. غابـت عينـاك في ظـلام الأسى وحفـر الزمـن أخاديـد عجـز وفشـل في وجهـك. زنـت كلاب الشـوارع وسـفلة النـاس بصورتـك فـصرت بقايـا مسـخ يحتقـره البـشر. لـم يعـد أمامـك سـوى المـوت حـلا، القفـز إلى هُنـاك اضطـرارا، الدخـول إلى كهـف النسـيان، والتـواري عـن الجميـع، واعـتزال الحيـاة، شـطب النفـس مـن الوجـود، محوهـا محـوًا، ووأد الأنفـاس المتبقيـة الـتي لا تمـر دون أوجـاع في الرئتـين والبنكريـاس والضلـوع، وخلـع جلبـاب الدنيـا تمامـا.

ينتظـرك المـوت كصديـق قديـم يتبعـك مُنـذ مولـدك، يُتابعـك أينمـا ذهبـت. فيمـا مـضى كان يجـري خلفـك فتُـسرع الخُطـى وتبتسـم كُلمـا ابتعـدت لكنـه لا يكـف عـن المطـاردة. يـرد الابتسـامة لـك في ثقـة، وكأنَّـه عـلى يقـين بأنـه سـيلحقك يومًـا مـا. الآن لا سـبيل للفـرار، سـتقف مُستسـلمًا وسـتصافحه كمـا يليـق بمبعـوث الـرب، ثُـم ستسـير إلى جـواره في طاعـة نحـو عالـم آخـر وأنـاس آخريـن.

الـدار الآخـرة هـي الحيـوان، موضـع الخلـود والديمومـة، عالـم اللانهايـة، لا شرور ولا آثـام، لا مظالـم ولا اعتـداءات، لا اسـتغلال ولا توحـش ولا جنـون، لا حـروب ولا غـارات ولا اغتيـالات، لا زعامـة ولا استبداد، لا نفـاق ولا مواءمـات، لا رؤسـاء دول ولا جيـوش ولا برلمانـات، لا أحـزاب ولا ساسـة، لا مؤامـرات ولا دسـائس، لا صحافـة ولا إعـلام، ولا شيء البتـة. هُنـاك حاكـم واحـد وحَكـم أحـد وملـك وحيـد ومتـصرف مُنفـرد. الـكُل خاضـع وصامـت لا يمتلـك النُطـق أمـام رب الأكـوان.

مـا كان رؤى يتحـول إلى حقيقـة، ومـا كان ظنًـا ينقلـب يقينًـا. في دار البقـاء لا احتمـالات ولا خيـالات، لا أمـور نسـبية، ولا افتراضـات. النظـام صـارم، والعدالـة سـائدة، والـكل يمـضي نحـو عملـه دون مُناقشـة. لـذا

فاصـدق بشـدة وبحـرص كمحتـضر باحـث عـن فعـل خـير وحيـد في عمـر مـن الشـك والقسـوة والغـدر. واكتـب كشـاهد وبُـح كمعـترف وقُـل مـا يجـب قولـه.

حسين توفيق

نوفمبر 1978

الفصل الأول
القاهرة

لـم يشـهد مـا جـرى لكنـه وعـاه وعاشـه تخيـلًا كأنّـه يجـري أمامـه. حكايـات والـده، ومحـاورات الكبـار وقصاصـات الصُحـف تركـت في دمـاغ الطفـل الـبريء ذي العينـين الزائغتـين والسـمت الانطـوائي شـعورًا عجيبًـا اختلـط فيـه الإعجـاب بالغـيرة. زعيـق يـتردد صـداه في أذنيـه لشـخص يـصرخ «أمسـكوا المجـرم. أمسـكوا القاتـل» بعـد دويّ سـت رصاصـات شـقت طريقهـا نحـو لحـم مسـئول كبـير خـرج للتـو مـن مبـنى نظـارة الحقانيـة. الخائـن نـال مـا يسـتحق بعـد أن تـرأس محكمة ظالمـة اقتطفت أرواح بـني وطنـه لإرضـاء جيـش الاحتـلال البريطـاني. كان الطفـل الصغـير يتخيـل مشـهد ذلـك الشـاب النحيـل إبراهيـم الـورداني، وهـو يقـترب مـن بطـرس باشـا ليُنفّـذ فيـه حُكـم الشـعب بالإعـدام نظـير سلسـلة مـن الخيانـات غـير عـابئ بضيـاع مُسـتقبل أو بطـش سُـلطة. سـقط الرجـل وسـط حُراسـه ومسـاعديه مُضرجًـا في دمائـه، وهـو لا يـكاد يُصـدق أن تثقُـب صـدره وأمعـاءه رصاصـات الثـأر بتلـك الطريقـة السـهلة. نُقلـت الضحيـة إلى مُستشـفى ملتـون بيـاب اللـوق وزاره الجنـاب العـالي، وبـذل الأطبـاء الأجانـب جهـودًا مُضنيـة لاسـتخراج الرصـاص، لكـن قـدر اللـه غلبهـم، وانفلتـت الـروح إلى بارئهـا لتقـف أمـام محكمـة أبديـة مُطلقـة العـدل. فـرح النـاس كمـا لـم يفرحـوا مُنـذ سـنوات وهنـأوا القاتـل عـلى صنيعـه، وتبـادل كثـير مـن الشـباب صـورة الصيـدلاني المقبـوض عليـه فيمـا بينهـم حـتى أن السُـلطات أصـدرت قـرارًا بالقبـض عـلى كُل حائـز لصـور الجـاني. ورغـم مُعاقبـة الشـاب ذي الأربعـة وعشريـن عامًـا بالمـوت، فإنّـه كتـب شـهادة خلـوده حـتى بعـد تنفيـذ الحُكـم الـذي تـم لأول مـرة ضـد إرادة مُفـتي الديـار المصريـة الشـيخ بكـري الصـدفي، الـذي أبـدى تشـككه في قـوى القاتـل العقليـة.

فيمـا بعـد عـرف الطفـل الصغـير قبـل أن يخطـو نحـو عامـه السـابع أنّ والـده توفيـق بـك أحمـد كان مـن بـين أصدقـاء الـورداني المقربـين،

وأنّه شاركه أفكاره وخططه من خلال خلية وطنية باسم «التضامن الأخوي» لكنّه حصل على البراءة، لتجرفه الحياة بعد ذلك بعيدًا عن السياسة والعمل الفدائي وانخرط في السلك الوظيفي صاعدًا نحو حياة هانئة رغدة لا يُعكرها خطر، ولا يُربكها قلق.

في بيت يليق بأسرة ثرية أبصر «حسين» حوله وجوهًا باردة انفصلت رويدًا عن وجع الناس بتحكُّم الأعداء والخونة في مصائر العباد، وتأقلمهم مع الاحتلال البريطاني وتسليمهم للغرباء في قيادتهم واستعبادهم. كان يشعر أن أباه، ذلك الرجل القوى المُهيب ذا الشارب المفتول والنظرات القاسية، صار متورطًا في الطاعة بعد أن نسى صديقه «الورداني» حتى أنّه كوّن رأيًا رافضًا لعمليات الفداء التي جرت في أعقاب ثورة المصريين سنة 1919، ووصم بعض أبطالها مثل المحامي شفيق منصور بالهوس والتطرف. لم يعُد حسين خائفًا من نظرات والده التي كانت تُخيفه في الماضي، نظرًا لمعاملته الصارمة مع الخدم والمستخدمين، واقتنع أنّه في الحقيقة شخص مسالم وخاضع يحسب ألف حساب لأي موظف أجنبي يعمل إلى جواره في وزارة المواصلات. ورويدًا تبدلت صورته في عقله الباطن من فدائي جريء تدفعه الوطنية إلى أن يُخطط ويقتل الخونة في العقد الأول من القرن العشرين إلى موظف مُنتفع يجلس على مقعد وكيل الوزارة في العقد الرابع من نفس القرن.

وحتى أُمه الحنون، صاحبة الوجه الحليبي المُستدير، والشعر المُظلم الساحر صدته عنها بنظراتها المتعالية للخدم والناس من حولها نظرًا لانحدارها من أسرة تُركية كانت مُقربة يومًا من الباب العالي. ورغم إغداقها عليه بالشيكولاته والملبس، ورغم اهتمامها الجمّ بتعليمه الحرص على ارتداء الملابس النظيفة، والظهور بمظهر جميل فإنّه كان يشعر دائمًا أنها من طين آخر غير ذلك الذي أنبت الوجوه الكالحة الموجوعة بالفقر والاستعباد حوله. لقد تألم كثيرًا

عندما عرف أنَّها أسمته «حُسين» تيمُنا بأسماء باشاوات وبكوات من أصول تُركية حملوا الاسم وحازوا مناصب رفيعة ونجاحات عظيمة، وهو ما دفعه بعد ذلك إلى ابتكار قصة مُلفقة مفادها تسميته باسم الثائر العظيم الحُسين صاحب المقام المشهور بوسط القاهرة، الذي يلتف حوله أصحاب الحاجات كل يوم.

في المعادي، ذلك الحي الجديد المُحتشد بفيلات وقصور الأثرياء والباشاوات كان يوقن أن هناك خارج حدود الرؤية المعتادة عوالم أخرى وأناسًا مُختلفين وأوجاعًا متنوعة، وكانت أذناه تلتقط بين الحين والحين فواصل من أحاديث أم علي الخادمة مع عم صالح السُفرجي أو عُثمان الجنايني عن أحياء تغوص في الفقر وشوارع تفيض بالحُزن وقُرى يسكنها فلاحون حفاة لا يجدون طعام يوم. وحول بيته كان يسير عساكر إنجليز بسيقان عارية ووجوه حمراء، يضعون مسدساتهم في أحزمة تلتف حول خصورهم، ويمشون في خيلاء كأنَّهم ملكوا الكون وما حوله.

في المدرسة، تضاعف شعوره بالغُربة بدءًا من اسم المدرسة وألسنة مُدرسيه وزملائه، وحتى أفكارهم وتوجهاتهم وأحاديثهم الخاصة. كانت المدرسة تحمل اسم «الفرير» بمعنى الإخوة، وقد أسسها شقيقان فرنسيان قدما إلى مصر منتصف القرن السابق لتعليم الطبقة المُترفة وأبناء الحاشية. كان مُعظم التلاميذ من أبناء الجاليات اليونانية والإيطالية والفرنسية والأرمينية، فضلا عن أثرياء اليهود من المصريين يبدون مُنفصلين عن قضايا البلد، ولا يهمهم كثيرًا جلاء الإنجليز عن مصر أو بقاؤهم، وتتركز اهتماماتهم في التعرّف على العلوم الحديثة، وتعلم اللغات والموسيقى، بينما يتفقون جميعًا حول حلم واحد هو العيش في أوروبا، حيث المدنية والرُقي والتقدم.

في كل صباح، كان عم عُثمان الجنايني يصطحب الطفل الصغير حتى

محطة القطار ليركب من المعادي حتى الظاهر حيث تقع مدرسته العتيقة، وكان الولد ضعيف الجسم يشعر أنَّ عالمًا غريبًا مفروضًا عليه، وهو ما دفعه للانطواء وتجنب مُصادقة أولاد الأجانب، وكان يستمع في القطار لذلك الصخب الدائر بين الأفندية والموظفين حول توقيع اتفاق الصداقة المصرية البريطانية الذي كان يراه البعض بداية طريق الاستقلال، بينما اعتبره آخرون تمييعًا للقضية الوطنية.

في تلك السنوات كان كثير من المصريين الثائرين قد خفتت عزائمهم ووهنت قواهم، وأيقنوا أنَّه لا بديل عن الحوار والتفاوض مع المُحتل مُقدمين مبدأ الاستقلال المُتدرج بديلًا للكفاح المُسلح، خاصة بعد أن أدان حزب الأغلبية فكرة الاغتيالات عقب مقتل السردار البريطاني السير لي ستاك واعتبرها أعمالًا صبيانية، بل إنَّه قبل المشاركة في حكومات ائتلافية تحكم فيها القصر وانتهت إلى لا شيء.

لم يكُن «حسين» مُختلطًا بأحد سوى الطفل نجيب، ابن خالته ذي العينين الزرقاوين والشعر الأشقر الذي كان يبدو حزينًا أغلب الوقت نتيجة انفصال والديه. وكانا يُمثلان معًا مشهدًا خياليًا لصراع الثري التركي المُتجبر والفلاح المصري ابن البلد، وكان «حسين» يُصر كل مرة على القيام بدور الفلاح، وكانت شرايين ذراعيه تتصلب وعضلاته تتمدد وهو يضغط على رقبة خصمه وابن خالته الذي يلعب دور التركي المُتجبر. في تلك الأثناء أحس حُسين ببوادر شعبيته عندما كان سعيد شقيقه الذي يصغره بخمس سنوات يُشجعه بحرارة، في الوقت الذي كان فيه «مدحت» شقيق «نجيب» يشجعه أيضا. وقتها انتابه الشعور بأنَّه المُقاتل المحبوب الذي يُمكن أن يُعبّر عن مصر وقضايا المُضطهدين فيها.

***

في النـادي مثـل المدرسـة لا أصدقـاء أو أحبـاء. عـبر الصـبي «حسـين» عامـه الثـاني عـشر لينمـو جسـده فجـأة وينقلـب انطـواؤه إلى شـعور بالتفـرُّد والقـدرة. انتفخـت عضـلات سـاعديه واشـتدت صلابتـه بفضـل الركـض كُل يـوم دون توقـف مُراقبًـا وقـت الغـروب. في نـادي المعـادي الـذي فاجأهـم رب الأسرة بالاشـتراك فيـه كان يجـري دون هـدف رافعًـا شـعار «لا ألـم. لا كلـل» مُطلقًـا طاقـات كُبتـت سـنوات عـدة مُـذ عـرف حكايـة إبراهيـم الـورداني وبطـرس باشـا. كان «حسـين» كلمـا دخـل النـادي مـع والديـه وشـقيقه الأصغـر رأى أناسًـا مُختلفـين عـن سـواهم مـن البـشر. نـاس غـير السـائرين في الشـوارع المؤديـة إلى مدرسـة الفريـر بالظاهـر، أو الجالسـين في القطـار الـذي يسـتقله كل يـوم إليهـا. نـاس بوجـوه بـاردة، هادئـة، ترنـو عيونهـم دائمًـا لأعـلى ويتحدثـون بصلـف وغـرور أحاديـث سـطحية غالبًـا مـا تكـون باللغـة الفرنسـية أو الإنجليزيـة. سـترات فاخـرة، وفسـاتين ضيّقـة وفاتنـة، وعالـم مُبهـر يمـوج بالضجيـج وحكايـات المُترفـين. الـكلام عـن مولانـا الشـاب المتديـن وانتظـاره وليًـا للعهـد يـدور بـين المُجتمعـين كمسـألة مصيريـة للبـلاد. والـكلام عـن التوتـر المُخيـم عـلى أوروبـا بسـبب الخطـر المُتزايـد مـن توحـش الألمـان وخرقهـم لمُعاهـدة فرسـاي وتوسـيع الجيـش قبـل التحالـف مـع بينيتـو موسـوليني للتوحـد تحـت اسـم دول المحـور يـدور دون فهـم لطبيعـة الأمـور وخصائـص الأمـم. والـكلام عـن القُطـن المـصري وهبوط أسـعاره يتكـرر، وكأنَّ جميـع سـكان مـصر يُتاجـرون فيـه. وبعـض الأحاديـث تعـرّج عـلى الوضـع السـياسي المُتيبـس بعـد إقالـة الملـك للنحـاس باشـا، تلـك الإقالـة الـتي بـدا فيهـا الملـك الشـاب فـاروق مُتعجرفًـا، وهـو يثـأر مـن محـاولات الباشـا السـيطرة عليـه بعـد تتويجـه ملـكًا عـلى مصر والسـودان.

سـار «حسـين» وحيـدًا بـين أشـجار السـرو المغروسـة عـلى الجانبـين غـير مُلتفـتٍ لضحـكات فتيـات هُنـا وهُنـاك حـول أمـور ظـنَّ دائمًـا أنَّهـا لا تعنيـه. كان يُفكـر صامتًـا كيـف فـرَّ والـده مـن مُجتمعـه المـصري وأصولـه المتوسـطة لينخـرط وسـط هـؤلاء الكُـبراء المُتحذلقـين، الذيـن يعيشـون

كسادة وكل مَن سواهم عبيدًا كيف طاوعه قلبه أن يهجُر العمل السياسي ويخلد للدِعة ويُسلِم تسليمًا؟

لاحظ «حسين» أنَّ «سعيد» شقيقه الأصغر يسير خلفه ببطء، فالتفت إليه ليجده مادًا يمناه الرقيقة ليمسك يده. سأله في جفاء عما يُريد، فأخبره أنّه لا يجد أحدًا يلعب معه. ابتسم الصبي الأكبر وقال له:

ـ لا تغضب. لا تلعب مع هؤلاء. ليسوا منا.

هزَّ شقيقه رأسه مُجيبًا، ومُسلمًا كفه لتحتضن الكف الكبرى في محبة، وقال كمن يشكو:

ـ لا أجد مَن يلعب معي، حتى في البيت.

انزلقت فتاة عابرة كانت تركض وراء أختها فندت من «حسين» التفاتة سريعة نحو ركبتيها العاريتين اللتين أطلتا من جونلة قصيرة، لكنّه واصل السير مُطمئنًا شقيقه بأنّه سيلعب معه. شعر بنشوة الرضا، وهو ينظر إلى شقيقه كتلميذ صغير يخضع لما تنبس به شفتاه بيسر. عبرا إلى جوار حمام السباحة المُكتظ بفتيات وشباب صاخبين يلهون في مرح، ورماهم «حسين» بنظرات سخط قبل أن يقول لشقيقه:

ـ هؤلاء ليسوا مصريين. ليسوا منا ولسنا منهم. نصفهم خواجات ويهود وخونة، والنصف الآخر أبناء كُبراء ينتفعون بالاحتلال. هؤلاء يأكلون من خير مصر دون حق وينهبونها كُل يوم. أما أولاد البلد فمطحونون وراء ما يُلقيه إليهم هؤلاء.

مصمص الصغير شفتيه مُبديًا عدم الفهم، لكن «حسين» واصل تمثيل دور الأستاذ قائلًا:

ـ هُم أشرار يا «سعيد».

ثُم أضاف:

ـ وخونة.

بـدا الخـوف عـلى وجـه الصغـير كلافتـات المظاهـرات، فاسـتطرد «حسـين» قائـلًا:

ـ لا تخف يا «سعيد». أنا معك.

رمـت عينـا الصغـير نظـرات حُـب وافتتـان نحـو شـقيقه الكبـير، ثُـم همـس:

ـ أخاف عليك يا «حسين ». هُم كبار.

جاءه الرد ممتزجًا بنبرة ثقة:

ــ قُلـت لـك. لا تخـف. سـنكون أقـوى وأكـبر. أهـم شيء هـو الإخـلاص، وألا تُخـبر أحـدًا.

هـزَّ الصغـير رأسـه، وسـار مـسرورًا راضيًـا إلى جـوار شـقيقه، كان يشـعر أن شـقيقه الأكـبر هـو راعيـه الأول، وقائـده نحـو مـا لا يعلـم. كان يظُـنّ أنَّـه ليـس مُجـرد أخ، وإنمـا هـو والـد جديـد، وقـدوة ومُعلـم ، وفـوق كُل ذلـك صاحـب وأنيـس. صـار مُغتبطًـا أن وجـد أخـيرًا صديقًـا بعـد أن يئس مـن دفـع «مدحـت» ابـن خالتـه للعـب معـه. كانـت عينـاه تبثـان طاعـة وخضوعًـا، وكان وجهـه ينضـح بالرغبـة في التعلـم والاسـتعداد التـام لتلقـي أي شيء مـن «حسـين»، لـذا فقـد تلقـى «سـعيد» الـدرس الأول فـور عودتهمـا إلى البيـت. وكان ذلـك الـدرس هـو: كيـف تقتـل الخـوف داخلـك؟

كان لـدى «سـعيد» قطـة صغـيرة ثلجيـة اللـون، كثيفـة الفـرو، زرقـاء العينـين، أحضرتهـا والدتـه لـه في عيـد ميـلاده السـابع. جثـا «حسـين» على ركبتيـه وأخرجهـا مـن عُلبـة خشـبية كانـت تنـام فيهـا، ومسـح بأناملـه الرقيقـة عـلى رأسـها مانحًـا إياهـا طمأنينـة السـلام، ثُـم قـام وهـو يحتضنهـا بيـسراه، وفتـح بـاب الشُرفـة في هـدوء قارنًـا في وجـه شـقيقه نظرة اندهـاش وخـوف. ابتسـم في بـرود وصـاح في «سـعيد»: ألقهـا مـن

هُنا. ألقها يا «سعيد». هيا لا تخف.

تجمّد «سعيد «مصدومًا ليُكرر شقيقه:

ـ هيا يا «سعيد». اقذف بها إلى هذا السور.

هزّ «سعيد» رأسه رافضًا، وقال مُستجديًا:

ـ حرام.

برقت عينا «حسين»، وانتفخ وجهه بُحمرة الغضب وهو يُكرر:

ـ ليس حرامًا. اقتل خوفك.

ـ ستموت.

ـ لا يهم. ليس لها فائدة. لو قتلتها سيكون لها فائدة لأنها ستُعلمك ألا تخاف.

ـ لكن أنا خائف.

ـ أول مرة ستكون خائفًا، في الثانية ستخاف أقل، وبعد ذلك لن تخاف أبدا، صدقني ستُصبح الأمور عادية.

فهم الطفل الصغير أنّ شقيقه هو مَن قتل عصفور أُمه الملون الذي وجدته قبل أيام مكومًا داخل القفص الكبير. لقد استغربت أُمه أن وجدت رأس العصفور يميل إلى الزرقة، لكنّ أحدًا لم يلتفت لاحتمال أن تكون هُناك يدٌ امتدت إلى عُنق العصفور لتعتصره في هدوء وجرأة، جرأة تليق بقاتلٍ عظيمٍ ينتظره مُستقبل دموي.

تدحرجت دمعة ساخنة من عيني الصغير، وقال لشقيقه إنّه لا يستطيع. القطة بريئة، طيبة، رقيقة، توقظه كل يوم، وتلعب معه، ويُطعمها بيديه. قطب «حسين» حاجبيه، وأطلق تنهيدة ملل، ثُم عاد إلى داخل الغرفة ووضع القطة مرة أخرى في صندوقها، وأخبر شقيقه ألا يطلب منه أن يلعب معه بعد ذلك لأنّه لا يلعب مع الجبناء، ولم تكد قدمه اليمنى تخطو خارج الغرفة حتى ناداه «سعيد» باكيًا وقال له:

ـ حسين. حسين. تعال. ارمها أنت.

ابتسم «حسين» ابتسامة المنتصر، وعاد سريعًا ليُخرج القطة من صندوقها ثُم رجع إلى الخلف، وبكل ما أوتي من قوة قذف بها لتسقط فوق سور الحديقة مُصدرة صوت مواء مكتوم، قبل أن يتمدد جسمها فوق السور مُتلويًا يمينًا ويسارًا، وبدا واضحًا أنَّها تتألم بشدة جعلت «سعيد» يُغمض عينيه، لكن «حسين» نظر إليها مُستمتعًا وهو يقول:

ـ هكذا تخرُج الروح.

وشعر بنشوةٍ غريبةٍ وفخرٍ شديدٍ لأنَّه نجح في قتل الخوف والرحمة في فؤاد أخيه مثلما قتلهما في فؤاده من قبل. وقال في حنو مُصطنع:

ـ لا تُخبر أحدًا يا سعيد.

وأخرج من جيبه شيكولاتة كادبوري من تلك التي يعشقها «سعيد»، وقال فرحًا:

ـ ستكون معي دائمًا.

***

برقت العيون، وساد الصمت، وخربشت فئران الإثارة بأدمغة الصبية عندما قال لهم «نجيب»:

ـ «لاشين» أسطورة. مُتعة جميلة. حدوتة البطولة. قصة الموسم.

كان «نجيب» مُنتفخًا وهو يحكي عن ذلك الفيلم الذي شاهده للتو بالسينما. سرد «نجيب» أمام «حسين» و«سعيد» و«مدحت» وهُم سائرون أمام نادي المعادي أحداث الفيلم الذي سمحت له أمه بدخوله مع زملاء مدرسته. واستطرد وقد لاحظ اهتمام المُستمعين:

ـ لاشين قائد شُجاع، طويل، وممشوق القوام، عيناه تشعَّان ذكاءً ودهاءً، ويتمتع بُحب الناس لشهامته ونُبله، يكتشف أنَّ الوزير

فاسد ويُتاجر بأقوات الناس وينهب خيرات البلاد، ويحاول أن يشكي للسلطان لكنَّه يجده واثقًا في وزيره، وغير مُهتم بالشعب، بل إنَّ النساء هُنَّ شُغله الشاغل. يمل من واحدة فيهجرها إلى أخرى. ويحارب «لاشين» الأعداء وينتصر عليهم ويحضر للسلطان جارية اسمها كليمة لتدخل ضمن حريمه، لكنها تنفر منه فيقوم بسجنها، ويطلب البعض من السلطان معاقبتها بإهدائها إلى «لاشين» ولا تلبث أن تحبه بشدة، ويحبها هو الآخر، وتشتعل ثورة الجوعى في البلاد، ويأمر السلطان بتوزيع الطعام على الناس لكنَّ الوزير الفاسد يسرق الطعام هو ورجاله.

وتوقف «نجيب» هُنيهة مُستطلعًا قدرته على التشويق، فلكزه «حسين» طالبًا منه أن يُكمل، فواصل قائلًا:

ـ يُلاحظ الوزير ورجاله مقاومة «لاشين» لأفعالهم فيقررون التخلص منه، ويخبرون السلطان بحب كليمة له، ويسعى السلطان إلى اختباره فيلعب معه الشطرنج على أن يحصل الفائز على كليمة، ويفوز «لاشين»، فيغضب السلطان ويعتبر قائده خائنًا لأنَّه فاز لحبه للجارية ويأمر بحبسه، ثُم يأمر بإعدامه إلا أن الناس تضج بالفساد والفقر، وتقرر الثورة وتقتحم السجن وتنقذ «لاشين». ثُم يقوم الثوار بعد ذلك بقتل الوزير الفاسد وسجن رجاله، وتعيين «لاشين» مكانه ليحقق العدل بين الناس.

ـ والسُلطان؟

سأل «حسين» في حدة ظاهرة، فأجابه نجيب:

ـ ينصلح حاله ويحكم بعد ذلك بالعدل.

ضحك «حسين» قبل أن يقول ساخرًا:

ـ عدل؟ كيف يكون ذلك؟ هل ينقلب فرعون إلى موسى؟ هذا ضحك على الذقون.

ثم سأل مُجددًا:

ــ مَن هو مُخرج هذا الفيلم الأسطورة؟

ــ توجو مزراحي.

هـز «حسـين» رأسـه باسـمًا بطريقـة لا تُناسـب صبيًا في الرابعـة عـشرة مـن عُمـره وقـال بحكمـة شـيخ:

ــ أكيـد. توقعـت ذلـك. توجـو مزراحـي. المُخـرج اليهـودي. لابـد أنَّـه يقصـد ذلـك ليقـول لنـا إنَّ المشـكلة ليسـت في الملـك وإنمـا في رئيـس الـوزراء، وإننـا لـو اكتفينـا بتغيـيره سـتنصلح الأحـوال.

بـدا «سـعيد» و«مدحـت» لا يعيـان كثـيرا ممـا يقـال، لكنهمـا كان يشـعران أنَّ «حسـين» يفهـم أكـثر رغـم أنَّـه لا يقـرأ الصحـف ولا يشـاهد الأفـلام مثـل «نجيـب».

رد «نجيب» قائلًا:

ــ انتظـر. نسـيت أن أخـبرك أنـني قـرأت في الجورنـال أنَّ نهايـة الفيلـم كانـت مُختلفـة وأنَّ الرقابـة اعترضـت عليهـا فتـم تغييرهـا. ذكـر البعض أنَّ النهايـة في القصـة الأولى تضمنـت قتـل الملـك وتـولي «لاشـين» الحكـم.

ــ لا تنبهر بقصة خيالية صنعها يهودي.

وضـع «نجيـب» كفيـه بجيـبي بنطالـه وهُـم سـائرون، وبـدا غـير مقتنـع بكلام «حسـين»، وقـال بعـد فـترة صمـت طويلـة:

ــ اسـمع يـا حسـين. أنـت مُتعصـب ضـد الفيلـم لأنَّ مخرجـه مزراحـي اليهـودي، بينمـا نسـيت أنَّ كاتبـه هـو أحمـد رامـي وبطلـه حسـن عـزت، وبطلتـه ناديـة ناجـي، ومنتجـه هـو أحمـد سـالم.

لـم يُجبـه حسـين وإنمـا أخـذ يُصفـر هـازًا رأسـه يمينًـا ويسـارًا كأنَّـه عازف كمـان، مبْديًـا عـدم إعجابـه بـرأي ابـن خالتـه، وفي المقابـل رأوا جمعًـا مـن الفتيـات يسـير نحـو بوابـة النـادي، كانـت تتوسـطهم فتـاة جميلـة ترتـدي تنـورة زرقـاء فـوق قميـص فاتـح، وتحمـل فـوق شـفتيها

ضحكة مُثيرة وحولها صديقاتها يتحدثن ويضحكن ضحكات مكتومة. رمقهن «نجيب» مُبتسمًا، وقال لابن خالته:

ـ إحسان هلّت.

ثُم نظر إلى شقيقه مدحت وقال له:

ـ تعال معي.

لكن «مدحت» أبى وقال بعصبية:

ـ لا. سأبقى مع حسين وسعيد.

فأشاح برأسه، وتركهم واقترب من الفتاة ذات الضفيرتين وقال بفرنسية:

ـ «بون سوار».

ابتسمت ومدّت يدها الرقيقة البيضاء مُصافحة وقالت له:

ـ «بون سوار».. أهلًا يا نجيب.

اهتزت أرنبة أنفها ليرقص قلب «نجيب» فخرًا أنها اشتمت رائحة كولونيا «اتكنسن»، التي يحرص على رشها كل صباح. عرفته بصديقاتها الثلاث سريعًا قبل أن تسأله عن أخبار المدرسة والنادي والقراءة والسينما ودروس الموسيقى، ورنت بعينين ماكرتين إلى صحبته، ثُم سألت بصوت أقرب للهمس:

ـ أما زال ابن خالتك لا يكلم البنات.

هز نجيب رأسه آسفًا وقال:

ـ لا عليكِ. دعكِ منه.

يُعجبها طوله، ونظرات عينيه المُقتحمتين، ويثيرها تعاليه. قربت وجهها من أذن نجيب، وهمست:

ـ قُل له إنّ صديقتي ميمي مُعجبة به. ستحضر معي حفل النادي يوم الخميس. أحضره لأعرفه عليها.

مصمص شفتيه في تعجب وقال:

ـ سأفعل.

ثُم اقترب منها أكثر، وهمس في أذنها كلامًا، توردت له وجنتاها، واتسعت ابتسامتها، وردت:

ـ بعد الحفل. يوم الخميس.

راقب «حسين» المشهد بعينين نهمتين، ورأى نفسه واقفًا فوق خشبة مسرح كبير وأمامه هؤلاء الفتيات وغيرهُن كثيرات يُصفقن له في إعجاب شديد ويهتفن باسمه. كانت هامته مرفوعة نحو السماء رانيًا إلى النجوم كبطل من أبطال الرومان.

لحظات لم تطل كثيرًا، واستأذن نجيب عائدًا لرفقته. كان الصبية الثلاثة يمشون في سكون مُتأملين الأشجار الباسقة، مُستنشقين الهواء النقي قبل أن يعود إليهم سائرًا وعلى شفتيه الصغيرتين ابتسامة ماكرة. في طريقهم، دنا «نجيب» من «حسين» مُقاربًا له طولا، ومتفوقًا عليه عرضًا، وهمس في أُذنه بكلام لم يسمعه «سعيد» و«مدحت»، اللذان كانا دائمًا يشعران بقربهما أكثر من «حسين». كرر «نجيب» صب كلامه في أُذن «حسين»، الذي لمعت عيناه اهتمامًا، لكنهما لم تلبثا أن انطفأتا بعد قليل. كان همس «نجيب» يقول:

ـ واضح أنَّ خالتي كثيرة الدعاء لك. أنت محظوظ جدًا. «ميمي» جارتك. أجمل شفتين في النادي. حديث الشباب كُله. تُريد التعرف إليك يوم الخميس. سأقول لك شيئا جرَّبته وعرفته. قُبلة الشفتين الحب مُمتع. سحر لذيذ يا حسين، تطير فيه روحك، وتُحلِّق في سماء لا حدود لها، تمتص عسلًا جميلًا وتغيب عن الكون رغم أمامك، و...

لم يكمل «نجيب» حديثه حيث استوقفته كف حسين المُمتدة أمام وجهه، ورماه بكلمتين فقط. علا بهما صوته ليسمعه «سعيد» و«مدحت»:

ـ أنتم تافهون.

***

بـدا القلـق عـلى وجــه «توفيـق بـك» عندمـا أخـبره الطبيـب أن ابنـه الأكـبر يُعـاني مـن انفصـال في الشـبكية. كان المُهنـدس الكُفء ذو الوجـه الصـارم يُلاحـظ كثـيرًا شرود ابنـه وانطـواءه وتعاملـه مـع مَـن حولـه بمزيج مـن العصبيـة والـبرود، وكان يشـعر باختـلاف الولـد عـن أبنـاء أصدقائـه المقاربـين لسـنه في تجاهلـه الاهتمـام بالفتيـات، وعـدم التشبـث بارتـداء الملابـس الفاخـرة، وقلـة الاختـلاط بالنـاس، وآلمـه كثـيرًا أنَّ الولـد يمنحـه نظَـرات اتهـام دائمـة لا يعـرف مكنونهـا. ظَـنَّ الموظَـف الكبـير بـوزارة المواصـلات أنَّ فـترة المُراهقـة تفـرض عـلى ابنـه بعـض خصائصهـا، لكنـه لاحـظ عليـه بعـض التصرفـات الغريبـة كان مـن بينهـا نزولـه إلى حديقـة المـنزل في بعـض الليـالي للنـوم تحـت أشـجارها، وضبطـه أكـثر مـن مـرة يتنصـت عـلى جلسـاته مـع أمـه بغرفـة نومهمـا، وإمسـاكه صـواني الطعـام الخارجـة مـن الفـرن سـاخنة دون منشـفة. فضـلًا عـن ذلـك، فقـد لاحـظ الرجـل أنَّ ابنـه لا يخـاف مُطلقًـا، ولا يبـكي أبـدًا، حـتى عندمـا رسـب في مـادة الرياضيـات بالمدرسـة وتـم حرمانـه مـن المـصروف لأسـبوع كامـل فإنَّـه لـم يبـك أو يتأثـر.

ويومًـا سـأل الأب زوجتـه إن كانـت تُلاحـظ عـلى ابنهـا سـمات الحـدة أو العنـف، فقالـت إنَّ ابنهـا أكـثر وداعـة مـن ابـنيْ شـقيقتها لكنهـا رأت أنَّ مشـكلته الوحيـدة هـي كونـه خجـولًا جـدا. وحكـت الأمر لزوجهـا أنَّ إحـدى صديقاتهـا كانـت تزورهـا قبـل أيـام، ورأت «حسـين» فاحتضنتـه وقبّلتـه، لكنـه غضـب بشـدة وجـرى مُسرعًـا وهـو يمسـح خديـه أمـام السـيدة وكأنَّهـا تحرّشـت بـه.

بعـد احمـرار دائـم لاحظتـه الأسرة في عيـني «حسـين» كان لابـد مـن

عرضـه عـلى طبيـب مُتخصـص، لـذا فقـد رافقـه أبـوه إلى مُستشـفى العيـون، حيـث تـم فحـص عينيـه فحصًـا دقيقًـا انتهـى إلى ضرورة إجـراء عمليـة جراحيـة لـه مـع توقعـات بتأثيرهـا عـلى نظـره فيمـا بعـد، وهـو مـا ساهم في اتسـاع انطوائـه، وسـأل الوالـد إن كان يُمكـن تأجيـل العمليـة إلى فصـل الشـتاء فوافـق الطبيـب مُقـدرًا أنَّ ذلـك أفضـل.

كان شـعور طـاغ بالتقصـير ينتـاب الأب تجـاه ابنـه وهـو مـا دفعـه يومًـا لدعوتـه والحديـث معـه بصراحـة، طالبًـا منـه أن يفتـح لـه قلبـه ويُخـبره بـأي شيء يُضايقـه، لكنّـه كالعـادة لـم يتلـق سـوى نفـس النظـرات المُريبـة الحـادة، وعـاد إلى أمـه مُبديًـا قلقـه وطلـب منهـا ضرورة توسـيع مُحيـط الولـد الاجتماعـي خاصـة ممـن هُـم في سـنه، وهـو مـا جعلهـا تستضيف مـع بـدء الإجـازة الصيفيـة بعـض الأولاد مـن العائلـة ليلعبـوا مـع «حسـين» و«سـعيد»، فضـلًا عـن ابـنيْ شـقيقتها نجيـب ومدحـت.

في ذلـك الوقـت وجـد «حسـين» في ابـن خالتـه الآخـر «محمـد إبراهيـم» ولـدًا ذكيًـا طموحًـا، يحمـل ذات الكراهيـة والنفـور مـن لهـو الصبيـة وسطحيتهم، ورغـم أنَّ والـده «أحمـد بـك كامـل» كان قاضيًـا بمحكمـة الاسـتئناف، فإنَّـه كان يـرى أنَّ العـدل لا يُمكـن أن يتحقـق بـدون دمـاء، وأنَّ الحـق لا يسـود إلا بقـوة دافعـة. انبهـر «حسـين» بابـن خالتـه وهـو يسخر مـن «نجيـب» الـذي يقـرأ القصـص ويشـاهد الأفـلام ويشـغل وقت فراغـه بمُصاحبـة الفتيـات والعبـث بأجسـادهن مُعتـبرًا ذلـك مـن دلائل الرجولـة. حدثـه «محمـد» كيـف دفـع حمـاس الشـباب ألمانيـا إلى أن تُعيـد إنشـاء جيشـها بعـد أن كانـت ممنوعـة مـن ذلـك عقـب الحـرب العالميـة الأولى، ووصلـت الإرادة بالألمـان أنهـم اجتاحـوا بجيوشـهم أراضي النمسـا ثـم التشـيك ليعلنـوا التحـدي المبـاشر مـع الدولـة التي تتجـبر عـلى المصريـين وتسـتغلهم وتسـتنزف خيراتهـم. وقـال لـه «محمد» يومًـا إنَّـه قـرأ كتابًـا عـن الزعيـم أدولـف هتلـر الـذي أعـاد مجـد الألمان وأثـار حماسـهم لتكويـن امبراطوريـة عُظمـى.

شعر الفتى الحزين بوجود غايات لحياته، وآمن أنّه يُمكنه أن يلعب دورًا حيويًا في طرد الاحتلال من مصر. تذكر الولد مُظاهرات رآها وتابعها هُنا وهُناك تؤيد هتلر والمحور وتمنى الموت للإنجليز بعد أن أصبح الصراع بين القوتين مُعلنًا، ودار في رأسه هُتاف أطفال المدرسة وبعض المدارس المجاورة «يا عزيز يا عزيز، كُبة تاخد الإنجليز»، وعرف أنّ «عزيز» هذا ضابط مصري يتعاون مع الألمان ويدعوهم لغزو مصر. وقرر «حسين» إغاظة العساكر ذوي السيقان العارية الذين يتجولون كُل يوم في شوارع المعادي كأنّهم آلهة إغريقية، وقال لصحبته يومًا:

ـ سأبدأ المعركة ضد الإنجليز.

كان مع أبناء خالته يتحدث بنبرة رجولية تمكنت من صوته وتزامنت مع نبت صغير لشنب أخضر رسم حدوده فوق شفتيه، لكنّه تلقى ردًا ساخرًا من «نجيب» وهو يقول له:

ـ هل ستحارب الإنجليز بدبابتك المُخبأة بحجرة عم عُثمان الجنايني؟

وجاء رد «حسين»:

ـ لا يا نجيب. بعم عُثمان نفسه.

وخرج ووراءه «نجيب» و«سعيد» و«مدحت» و«محمد» ليروه يأمر عم عثمان بإحضار دلو القار الذي كان يدهن به سور الحديقة، ثُم مشى ووراءه الرجل الخمسيني الذي شعر بالسرور لإرضاء الصبي دائم العُزلة وكثير الحُزن، ومضيا في الشارع حتى وصلا أمام بيت مهجور، ووقف «حسين» يغمس الفرشاة في القار ليرسم بها على الرصيف صلبانًا معقوفة. ومن شارع لآخر تحركا ليُكرر الولد رسمه في نشوة، بينما كانت عيون رفاقه تُلاحقه بانبهار. مشى بفخر عائدًا إلى البيت بعد فراغ دلو «عم عثمان» والتف حوله أقرانه، وهنأه «محمد»، بينما سأله «سعيد» عن معنى رسمه فأخبره بأنّ الصلبان المعقوفة

هي شعار الحزب النازي، وهو ما يغيظ الإنجليز ويفزعهم، لكن «نجيب» الذي احتفظ بابتسامة باهتة مصمص شفتيه، وقال له:

ـ وماذا يعني ذلك؟ هل سيخرج الإنجليز من مصر لأنَّك رسمت لهم شعار النازي؟

وقبل أن يرُد تلقى «نجيب» لكمة قاسية من «محمد» الذي صرخ فيه:

ـ لا تكُن مُثبطًا.

وأمسك «نجيب» برقبة ضاربه الذي بدا ضئيلًا إلى جواره، لكنَّه تراجع فجأة عندما وجد عم «عثمان الجنايني» يهرع إلى «حسين» ليخبره أن هُناك عسكريًا بالباب يُريده. ران الصمت على الجميع، وتسرب الخوف إلى قلوبهم عدا واحد فقط هو حسين نفسه الذي ذهب في هدوء وبرود، وسأل العسكري عما يريد، فأخبره أنَّ مفتش الأمن بالمنطقة يطلبه. ابتلع «حسين» ريقه وخرج من باب المنزل لأحد سيارة جيب بدون سقف يجلس فيها ضابط وعسكري مصريان، وما إن اقترب منهما حتى صاح به الضابط:

ـ يا ولد. أين دلو القار؟ أحضره، ستمسح ما رسمته بيديك.

ـ انتظر والدي.

قال «حسين»، لكن الضابط كان صارمًا:

ـ لن أفعل. ستأتي معي وستمسح ما رسمته. ليس لي علاقة بوالدك ولا يهمني مَن يكون. ولو تكررت فعلتك سأقبض عليك.

كانت تلك الواقعة قاسية للولد الذي عرف أنَّ لكل فعل رد فعل، وأنَّ طريق التمرُّد مفروش بالأخطار، وأنَّ هُناك دائمًا عقابًا. وساءه أن تضاعف العقاب بعد علم والده، حيث تم إرساله بالقطار إلى عمته بالإسكندرية ليقضي الإجازة في عزبتها ويُحرم قليلًا من أبناء عمه وشقيقه، لكن ذلك كان فرصة له للتفكير والتأمل وترتيب

الذهـن، ورسـم الطريـق لعمـل أكـبر وأكـثر خطـورة.

بينـه وبـين نفسـه كـرر «حسـين» سـؤال ابـن خالتـه «نجيب»عـن فائـدة رسـم الصليـب المعقـوف عـلى الأرصفـة، وأجـاب: لا شيء. وقـرر بحسـم أن يتحـول للعمـل الواقعـي، وأعلـن لنفسـه أنّ الضربـات القادمـة يجـب أن تكـون موجعـة، ومؤثـرة.

***

نظـر إلى صدرهـا غـير مُصـدِّق، كيـف تحـررّ مـن كُل مـا عليـه بتلـك البسـاطة والسرعـة وبـدا فاتنـا مُبهجًـا ككـرتي مُشـمش! لاحظـت عينـاه انتصـاب جيدهـا الرُّخامي الناعـم، وذلـك الوجـه المرسـوم بعنايـة فنـان مـن عـصر النهضـة، دقيـق الأنـف، صغـير الفـم، مُبهـر القسـمات. دقـق النظـر مُسـتمتعًا بضفيرتـين رفيعتـين اعتـادت أن تُدليهمـا عـلى الجانبـين لتبـدو كفتـاة بريئـة مازالـت تخطـر في سـنوات الطفولـة. اقـترب مـن جسـدها اللامـع متصـورًا أنّـه كُتلـة مـن اللهيـب قبـل أن تُمسـك أصابعهـا الرقيقـة يـده اليُمـنى في دلالٍ وتضعهـا بـين نهديهـا. شـعر «حسـين» بخـدر غريـب يـسري في شرايينـه عندمـا لامسـت بشـفتين رقيقتـين خـدّه الأيمـن، ثُـم زحفـت رويـدًا نحـو شـفتيه لتمتصهمـا في جنـون. تراجـع قليـلًا للخلـف، وأفلـت شـفتيه مـن قُبلتهـا المحمومـة وقـال لهـا مُتهتهًـا:

ـ إحسان. حسبت أنك تحبين نجيـ..

ولـم يُكمـل حديثـه حيـث أطبقـت شـفتاها مـرة أخـرى فـوق شـفتيه وهـي تتـأوه بشـبقٍ وتـرُد:

ـ لم أحب غيرك. حسين.

والتفـت يداهـا حـول رقبتـه في اللحظـة ذاتهـا الـتي احتـك فيهـا لحـم صدرهـا الطـري بجسـده العـاري، مُكتشـفًا لأول وهلـة أنّـه مـنزوع

الملابس تمامًا. قشعريرة ساحرة تسرَّبت عبر شرايينه ونار لاهبة أمسكت بخلاياه النشطة. عار؟ سأل نفسه كيف؟ ومتى؟ حاول «حسين» أن يتذكر، لكنه لم يتمكن، أما أنثاه فقد امتدت يداها مُتحسسة ظهره الناعم، وجذبته بُعنف نحوها، وهي تفح كثُعبان غاضب. شعر «حسين» بالعرق يتصبب فوق جبينه، وأحسَّ لسانها يلعق عرقه بتلذذ فاضح. تسارعت دقات قلبه على وقع خُطوات تعلو رويدًا، ثُم انفتح باب الحُجرة فجأة ليطل أبوه بوجهٍ غاضبٍ وعينين حمراوين. لم ينطق الأب بكلمة، وإنما سدَّد نظرة احتقار نحو ابنه، وهزَّ رأسه أسفًا، ثُم قال كلمة واحدة:

ـ اخص.

وكررها بصوتٍ أعلى:

ـ اخص. اخص. اخص.

رصاصة قاسية ثقبت قلبه وامتدت. مثلك مثلهم أيها المُراهق. بِع نفسك إلى الشيطان، ولا تُفكر في البطولة. أنت تابع. خاضع. مُقلد. سيشترونك بالقليل، وسيُخضعونك لإرادتهم. لو طلبوا منك الخيانة ستفعل طلبًا لشهوة تستعر دون مُطفئ.

سمع صوتًا مكتومًا يُناديه:

ـ اقتل جوعك إن كُنت تريد مجدًا.

امتدت يد إليه هزَّته يمينًا ويسارًا، يد رقيقة، يعرف ملمسها. فتح عينيه ليُبصر شقيقه الأصغر جاثمًا فوق سريره ومناديًا:

ـ حسين. قُم.

رمق ضوء الشمس ناثرًا نهارًا جديدًا في فضاء الغرفة، وفاجأه شقيقه قائلًا:

ـ ولدان غريبان بالباب يسألان عنك. يقولان إنَّهما زميلاك بالمدرسة، ويريدان أن تشارك معهما في سباق الدراجات.

ـ دراجات؟

قام نافضًا كسله، وشعر ببلل خفيف، وتذكر أنَّ الولدين سبق أن أخبراه في المدرسة أنَّهما يقطنان إلى جواره في المعادي، لكنَّه ابتعد عنهما لأنَّ أصولهما أجنبية. غسل وجهه، وسرّح شعره كما علمته أمه أن يفعل كل يوم فور استيقاظه، وخرج إليهما.

«جول أسود» شاب غريب الأطوار، حاد الطباع مولود من أم ألمانية وأب سوداني، يمتاز بضخامة الجسم وقوة العضلات، ورغم ذلك فهو أقرب للسذاجة والسطحية. أما «أنور فائق جرجس» فكان ولدًا نحيلًا مُنفلتًا إلى أبعد مدى، وله عينان زرقاوان، أحاطتهما ظلال سوداء نتيجة التدخين بشراهة لا تتناسب مع خمس عشرة سنة قضاها في الكون. دارت برأس «حسين» فكرة استغلالهما، خاصة أنهما مفتونان بالخروج عن المألوف وإتيان الغرائب والمغامرة. تناقش معهما، وأفهمها أنَّ سباق الدراجات لعبة جيدة لكنها لا تُناسبهما، وأنَّ عليهما استغلال قدراتهما وطاقاتهما في أعمال مفيدة مثل إرهاب الإنجليز وإلحاق الأذى بهم. فوجئ «حسين» بجيشان الحماس في وجهيهما وحتى بعد انضمام «سعيد» إليهم زاد حماسهما، وهو ما دفعه للحديث عن خططه لإحراق السيارات العسكرية التابعة للإنجليز. لقد أعجبه فيلم سينمائي شاهده ابن خالته «نجيب» وحكاه له لأنَّه عرض فكرة إحراق السيارات باستخدام الكيروسين.

في صباح تالٍ انطلق الصبية المغامرون «حسين» و«جول» و«أنور» ومعهم «سعيد» بدراجاتهم يطوفون شوارع الحي الهادئ باحثين عن صيد ثمين، مُعلنين بداية تجربة جديدة لإحراق سيارات الإنجليز العسكرية. ساروا مُتحمسين يُصفرون في تبادل كفريق مُتجانس مُنذ سنوات. في بداية المغامرة قابلوا سيارات مُسكونة بعساكر وسائقين استبعدوها تجنبًا للصدام، ورأوا بعد ذلك سيارات أخرى في شوارع صاخبة بالحركة، فتركوها خوفًا من القبض عليهم، حتى وصلوا بعد

طـواف ثـلاث سـاعات إلى شـارع مسـدود، لا يسـكنه إنسـان وشـاهدوا سـيارة كبـيرة بثمـاني عجـلات تقـف دون بـشر، فاقـترب «حسـين» مـن بابهـا الأيـسر فاحصًـا، ثُـم صعـد إليـه، وكـسر زجـاج النافـذة بضربـة عصـا سريعـة، وتنـاول مـن «جـول» زجاجـة الكيروسـين ليصبهـا فـوق مقعـد السـائق، ورمـى إليـه «أنـور» علبـة الثقـاب ليُشـعل واحـدًا ويلقيـه داخـل السـيارة، لكنّـه انطفـأ سريعًـا، ليصـاب حسـين بخيبـة الأمـل. لحظـات وقـرر مواصلـة تحديـه فأشـعل عـود الثقـاب الثـاني، ومُـني بـذات الخيبـة عندمـا خبـت نـاره فـور إلقائـه داخـل السـيارة ثُـم أشـعل الثالـث، والرابـع دون جـدوى. وأخـبره أنـور أنَّ عليـه إشـعال شـعلة كبـيرة وإلقاءهـا بـدلًا مـن أعـواد الثقـاب، وعـلى الفـور مـزق فانلتـه الداخليـة ليحصـل عـلى خِرقـة طويلـة مـا لبـث أن أشـعل فيهـا النـار وألقاهـا داخـل السـيارة لتـأكل نيرانهـا مقعـد القيـادة بنجـاح. امتقـع وجـه «حسـين» بلون السـعادة ثُـم قفـز فـوق دراجتـه وانطلـق وإلى جـواره زُمـلاؤه مُغتبطًـا بانتصـاره وعائـدًا إلى أبنـاء خالتـه بجبهـة مرفوعـة وشـعور طـاغٍ بالبطولـة.

بعـد يومـين كـرر الصبـي الخجـول فعلتـه مـرة ومـرات في شـوارع عِـدة، ثُـم غـيّر توقيتـات عملياتـه بفطنـة عاليـة، كمـا غـيّر مُسـاعديه مـن عمليـة لأخـرى مُسـتعينًا بابـنيْ خالتيـه «محمـد» و«مدحـت»، وبقـي «نجيـب» رافضًـا المُشـاركة، مُعلنًـا التضامـن السـلبي وحفـظ الـسر لهـم.

اتسـعت حالـة الفـزع بـين عسـاكر الإنجليـز في ثكنـات المعـادي، وحقـق البوليـس في حـوادث إحـراق السـيارات والـتي بلغـت خـلال أقـل مـن شـهر ثمانيـة عـشر حادثًـا، واسـتدعى مُفتـش الأمـن توفيـق بـك وأكـد لـه أنَّ هنـاك شـكوكًا عديـدة تحـوم حـول تـورط ابنـه في الحـوادث، لكـنَّ الرجـل ذا المكانـة المرموقـة رفـض أي اتهـام، مؤكـدا أنَّ ابنـه لديـه مشـكلة في شـبكية العـين ويعـاني مـن ضعـف شـديد في بـصره، وهـو مـا يسـتحيل معـه قيامـه بـأي فعـل يحمـل سـمة عُنـف. ووصـل الغضـب بالرجـل أن هـدد بتصعيـد الأمـر إلى رئيـس الحكومـة باعتبـار أنَّ التحقيـق مـع ابنـه

يستهدف النيل من أحد رجال الحكومة، فضلا عن تأثيره شديد السلبية على حالته النفسية.

وعلى مدى شهرين تاليين تابع الصبية المُغامرون الصُحف الصادرة باحثين عن أي إشارة لعملياتهم الفدائية دون أن يجدوا سطرًا واحدًا. كان لديهم شعور طاغٍ بضرورة أن يعرف الناس ما يفعلون، ووَدَّ «حسين» لو يجلس إلى والده يُحدثه بجرأة وشجاعة عن نضاله وحروبه السرية ضد المُحتلين.

لست ولدا تافهًا يا حضرة الفدائي القديم. لا سينما ولا فتيات. لا لهو ولا سهر. لا رقص ولا حفلات. لا ترف ولا استعلاء. كُلنا مصريون. أعرف أصولنا جيدًا وأعلم أننا لسنا أتراكًا ولسنا أعيانًا ولن يُشرفنا أن نكون كذلك. أسير على خُطاك أيها الوالد الصامت مُتتبعًا أقدام الخونة لأرسم لهم دروبًا إلى الجحيم. هكذا قال «حسين» لنفسه عندما تأمل صورته في المرآة يومًا بعد أن قفز طوله فجأة بأكثر من عشرة سنتيمترات ليبدو كنخلة باسقة ترُش ظلالها يمينًا ويسارًا. فكَّر وقتها أن عليه تحويل نشاطه وصحبه من مغامرات صبيانية إلى عمليات فدائية مُنظمة، وبدأ ذهنه موجهًا نحو ضم عناصر جديدة وتوسيع نطاق أهدافه ووضع أفكار وحيل جديدة وتعريف الجماهير بنضالهم حتى يتحول إلى موجة عارمة لا تُبقي ولا تذر.

كانت حكومة علي ماهر باشا قد أعلنت فور قيام الحرب العالمية الأحكام العرفية ووضعت الرقابة على الصحف والمكاتبات والرسائل ودور السينما وما تعرضه من أفلام، كما شملت الرقابة ما تبثه الإذاعة من أخبار وبرامج، ولكنَّ «حسين» ورفاقه كان لهم رأيٌ آخر، إذ اعتبروا الفرصة سانحة لبدء الحرب السرية ضد الإنجليز والخونة.

***

كان السيجار الغليظ الذي لفته أيادٍ ناعمة في الضفة الأخرى من العالم مُختنقًا بين أصابع «توفيق بك» وهو يجلس أمام مكتبه الخشبي الضخم مُتحدثًا بصوت خافت إلى «سميرة» زوجته وأم ابنيه «حسين» و«سعيد»، بينما كانت السيدة البيضاء ذات النظرات اللامعة تُدخن سجائر رقيقة في عصبية ظاهرة. لم يكُن الزوجان الصارمان يعرفان أنَّ ابنهما الأكبر والذي كان محور كثير من أحاديثهما الهامسة يتنصت عليهما في هدوء اعتاده.

كان الأب ذو الوجه المُستدير والصلعة الواضحة يحاول كتمان ملامح حُزن زارت روحه وانعكست على وجهه. قال توفيق بك لزوجته إن «حسين» دائم النظر إليه بعتاب، وأنَّه يلمح في وجهه زيغ دائم، ويخشى أن تكون للولد رغبات شاذة خاصة أنَّه لا يشعر باهتمامه بتاتًا بالتعرف على فتيات أو التحدث مع بنات أصدقائه في حفلاتهم ولقاءاتهم في النادي.

وقالت السيدة «سميرة» لزوجها إنَّها لا تشعر بصحة هواجسه تجاه «حسين» فيما يخص عدم سلامة سلوكه أو وجود توجهات شاذة له. إنَّها لا تأبه كثيرًا بعدم اهتمامه بمُصاحبة الفتيات مثل ابن خالته «نجيب»، لأنَّها تتصور أنَّه خجول بعض الشيء، لكنها لا تتصور أبدًا أن يكون بلا رغبات تجاه الفتيات، ودللت على ذلك بأنه يضع في حُجرته كثيرًا من التصاوير الخاصة بفنانات شهيرات مثل «جريتا جاربو»، و«كاثرين هيبورن»، و«بيتي ديفيز». وكان من رأيها أنَّ المرض الذي يُهدد عين «حسين» هو السبب في عصبيته البادية وعدم اختلاطه بالأسرة وجنوحه إلى قضاء ساعات طويلة في حديقة المنزل مع شقيقه وأبناء خالته. وقالت إنَّ أكثر ما يضايقها في سلوكه هو اختلاطه ببعض المستويات الدُنيا من الناس مثل «عثمان الجنايني» وأبنائه وقريبه الولد الشقي «سيد». وشكا رب الأسرة من امتعاضه من ضعف مستوى ابنه الدراسي واضطراره لنقله من

مدرسة إلى أخرى، مُعترفًا أنَّه يشعر بغربة شديدة كلما نظر في عينيه، وشاركها تخوفه من تقليد شقيقه الأصغر له.

نجحت خططك يا ثعلب المدينة. قالها «حسين» لنفسه وهو يُتابع حديث والديه من خلف خزانة الكُتب الكبيرة التي تستند إلى الجدار بجوار المكتب. لقد سمع حديثًا مُشابهًا قبل أيام وهو ما دفعه أن يضع صور الفنانات الشقراوات بين دفاتر كُتبه ليمحو القلق من نفس أمه، مؤكدًا لها أنَّه مثل مَن هُم في عمره يُحب النساء ويعشق أجسادهن. فكر أنَّ أمامه رحلة كفاح طويل تحتاج رضا الأهل وسكوتهم وهو ما يستلزم إقناعهم بأنه شخص طبيعي، بل وطبيعي جدًّا. وتذكر اتفاقه مع ابنيْ خالتيه «محمد إبراهيم» و«مدحت»، وقريب الجنايني المُسمى «سيد» على بدء خطة تسليح عن طريق شقيق عم «عثمان الجنايني» الذي يسرق الأسلحة من معسكرات الإنجليز ويبيعها، وخطرت في رأسه فكرة استغلال مخاوف والديه من تجنبه للفتيات في الحصول على أموال كافية لشراء السلاح من السارق.

في الصباح اتصل بـ«نجيب» سائلًا إن كان سيخرج في المساء، فأجابه بأنَّه سيذهب إلى نادي الطيران الملكي لمشاهدة فيلم فرنسي عن الطيران، ثُم سيلتقي فتاة يونانية تعرف عليها قبل أيام في آلامريكين بوسط المدينة. سأله إن كان يُمكن أن تُعرفه صديقته على إحدى صديقاتها فقال إنَّه سيحاول، مُستغربًا سلوك ابن خالته غير المعتاد. دعاه أن يمُر عليه لاصطحابه معه، ثُم ارتدى بذلته الأنيقة وذهب إلى أُمه سائلًا إياها إن كان مظهره مُناسبًا، فهزت رأسها ثُم سألته إلى أين يذهب، ففاجأها معترفًا ببعض الخجل بأنَّه سيلتقي فتاة يونانية تعرف عليها مؤخرا مع «نجيب»، وأنَّه مُتردد في الذهاب لأنَّه يعلم أنَّ اللياقة تُحتم عليه دعوتها للعشاء، وأن مصروفه انتهى ولا يستطيع أن يفاتح والده في ذلك. بدت «سميرة» سعيدة باعتراف

ابنهـا، وقامـت مُسرعـة لتـدُس في يـده بضعـة جنيهـات ناصحـة إيـاه أن يـدو كريمًـا ولطيفًـا مـع صديقتـه. وتأكـد فرحهـا ورقـص قلبهـا مـن السـعادة وهـي تسـتقبل ابـن شـقيقتها «نجيـب» مُتأنقًـا ومُتعطـرًا بعطـر جـذاب يخلُـب الألبـاب. قبلتـه عـلى خـده في حنـو خالـة كبـيرة، وسـألته عـن وجهتيهمـا، فقـال:

ـ سنُشاهد فيلمًا في نادي الطيران.

ابتسمت، وهزَّت رأسها المُستدير وواصلت مُبدية تفهمًا:

ـ ثُم إلى أين يا نجيب؟

ـ سنلتقي أصدقاء آخرين لنا.

اتسـعت شـفتاها مُعلنـة أنَّ هواجـس زوجهـا بشـأن شـذوذ ابنـه في غـير محلهـا، ثُـم سـألت:

ـ أي أصدقاء بهذه الأناقة؟

ثُم هزَّت أرنبة أنفها مُتشممة وأضافت:

ـ وهذا العطر الجميل؟

ـ تنسكين.

ـ مَن ستقابلان؟

سـألت السـيدة النابهـة. فابتسـم «نجيـب» بمكـر دون أن ينطـق، فكـررت:

ـ فتيات؟ أليس كذلك؟!

هـزَّ رأسـه موافقًـا، بينمـا كانـت عينـا حسـين تتابعـان المشـهد برضـا وسرور ليسـمع أمـه تقـول بابتسـامة واسـعة:

ـ عظيم. لا تخجلا. لقد كبرتما وأصبحتما رجلين. كونا لطيفين.

ثُم غمزت بنصف عين لابنها قائلة:

ــ حبيـبي لا تخـش شـيئًا. لـن أخـبر والـدك. لكـن عـدني أن تُذاكـر وتجتهد

وتُحقق أمل والدك في أن تُكمل تعليمك بأوروبا.

هزَّ «حسين» رأسه دون أن ينبس، وشعر أنه قادر على وضع خطط خِداع وتضليل، وأنَّه شخص ذكي على خلاف ما يعتقد والده، ورمى ابن خالته بنظرة ريبة لكنَّه عاد مؤكدًا أنَّه لا يُمكنه إفشاء سر رغم خلافاته المتكررة معه وباقي أفراد العائلة.

خرجا معًا سعيدين والشغف ثالثهما، بحثا عن سعادة مُرتقبة. كان «حسين» قد قرر جمع المال بأي طريق وأي أسلوب لشراء مُسدس من حنفي شقيق «عثمان الجنايني»، بينما كان «نجيب» يشتاق للمسة يد ناعمة لفتاة أوروبية. في الطريق سأل «نجيب» ابن خالته: كم معه، فأجابه: ثلاثة جنيهات، فابتسم وقال:

ـ عظيم.

وأضاف:

ـ وأنا معي جنيه وسيكون بإمكاننا العشاء وشراء سجائر اكسترافين والسهر في أي كازينو صاخب ومعنا اليونانيات الجميلات. ستُسر جدا يا «حسين». قالت لي «كاليوبي» أنَّها ستُحضر صديقتها «تينا» وهي فتاة ساحرة، ستعرف معها كم كُنت مُخطئًا برفضك مُصاحبة البنات. سحر جميل يا «حسين».

تحسست أصابع «حسين» شعره المُسترسل المُلمّع بفازلين مُتميز، ثُم أخرج من جيبه المال الذي منحته له أمه، ثُم سأل رفيقه أن يُعطيه ما لديه، استجاب له «نجيب» فرحًا، فتناولها «حسين» جميعًا ودسَّها في جيبه، ثُم سحب نفسًا عميقًا، وقال:

ـ اسمع يا نجيب. سنشتري بما معنا مُسدسًا لنبدأ الحرب الحقيقية.

امتعض نجيب وضاقت عيناه قبل أن يقول:

ـ مُسدس؟

ـ نعم.

ـ كيف؟ والفتيات؟ وأمك؟ وجنيهي؟

ربت «حسين «على كتفه وقال:

ــ سنأكل آيس كريم وسنجلس مع فتياتك لكننا لن ندعوهما للعشاء ولن نسهر. الوطن أولى يا صاحبي.

ـ لكن...

ـ انتهت المناقشة يا نجيب. هيا بنا.

وسارا معًا طويلين كمئذنتين، وشعر «نجيب» أنَّه خُدع، لكنه تحلَّى بالصمت، وخيبة الأمل، وتوقع أن يكون القادم مُخيفا، لذا لم يشعر في ذلك اليوم بلمسات حانية منحتها إياه فتاته «كاليوبي» ولم تُثره رُكبتاها الخارجتان من تنورة قصيرة، وبدا مُستغربًا بشدة ضحك «حسين» وانخراطه في محاورات مثيرة مع الفتاتين وكأنَّه خبير نساء ممن يُشاهدهنَّ في أفلام السينما.

***

تحلقوا حوله ينظرون بولهٍ وامتنان. ماسورة من الصُلب الأسود الثقيل، متعامدة على مقبض خشبي بُني اللون تُميزه مسامير كبيرة بارزة.

ـ سميث آند ويسون.

نطق «حسين» الجالس واضعًا ساقًا فوق أخرى في صباح خريفي رائق، وإلى جواره جلسوا جميعًا، ابنا خالتيه محمد ومدحت، وشقيقه سعيد، وصديقه الجديد سيد. كان «نجيب» سادسهم الذي غادرهم مُعتزلًا بعد أن أخبرهم أنَّ الشركة التي صنعت المسدس هي شركة أمريكية أسسها شخصان هما «هوراس سميث» و«دانيال ويسون» قبل نحو مائة عام وأنَّها أكبر منتج للأسلحة في العالم.

بـدا «سـيد» ذو الملابـس الرثـة والوجـه الأسـمر الشـاحب والعينـين الزائغتـين سـعيدًا بصداقـة أبنـاء الـذوات الذيـن يرطنـون بالإنجليزيـة والفرنسـية، ولا يحملـون هـم طعـام أو ثيـاب، وينفجـرون غِـلًا وحقـدا لا حـدود لهمـا تجـاه المسـتعمر الإنجلـيزي وكُل مَـن يتعـاون معـه. كان «سـيد» الـذي تكلـم التحـق بالمدرسـة بالـكاد، قبـل أن يأمـره والـده أن يلـزم «عثمـان الجنايـني» نهـارًا لعلـه يُصيـب خـيرًا أو عمـلًا قـد وجـد في «حسـين أفنـدي» سـيدًا ودودًا وصديقًـا وفيًـا، خاصـة عندمـا منحـه حـذاءً مـن الجلـد الأسـود بـدون أي ثقـوب، ثُـم ضمـه بعـد ذلـك إلى شـلة الأصدقـاء المؤتمنـين وكأنَّـه قريـب لـه. وجـد «سـيد» في شـلة الأولاد وفـاء، ودعمًـا لمُجتمـع مريـض لـم يكـن يمنـح أبنـاء الفقـراء أي نظـرة احـترام. لـذا، فقـد كان مُسـتعدًا دائمًـا أن يتلقـى دروس «حسـين» والاسـتماع لأفـكاره وخططـه بمحبـة طاغيـة وقناعـة تامـة بصـدق وطنيتـه ووطنيـة صُحبتـه.

ابتسـم «حسـين» وهـو يتأمـل جسـد الـ«سـميث آنـد ويسـون» بإعجـاب مَـن يشـاهد فاتنـة عاريـة. كـم أنـت مُبهـر ورائـع! كـم أنـت صديـق للأبطـال والشـجعان؟ حدَّثـه «حسـين» كصاحـب، كفـرد مـن أفـراد شـلته، كمـصري غيـور يغـلي الـدم في عروقـه كُلمـا شـاهد صلـف الإنجلـيز أو تابع خنـوع المصريـين وسـكونهم. كان يتخيـل نفسـه مُمتشـقًا حزامًـا جلديًـا حـول خـصره ومُعلقًـا ذلـك المسـدس فيـه، ليُخرجـه بـين الحـين والحـين ويطلـق النـار عـلى عسـاكر الإنجلـيز السـائرين بغـرور عـلى كورنيـش النيـل، فيسـقطهم واحـدًا تلـو الآخـر.

كان «محمـد إبراهيـم كامـل» عـلى قناعـة تامـة أنَّ أي مقاومة أو مُشـاغبة للإنجلـيز دون وجـود سـلاح هـي ضرب مـن السـذاجة، وأنَّ أي عمليـة بـلا آلـة قتـل مُجـرد لعـب أطفـال. إنَّـه يكـره لعـب الأطفـال ويعتـبر أنَّ المـوت في نظـره ضرورة لازمـة لاسـتمرار الحيـاة، ولا يُمكـن تحقيـق أي نـصر بـدون دمـاء.

قال «محمد» وقد أبصر ذلك المُسدس ينتقل من كف لأخرى:

ـ يجب أن نتدرب جميعًا على إطلاق النار.

ـ طبعًا وبسرعة.

صاح به «حسين».

أما «سعيد» و«مدحت» فكانا خائفين، لكنهما كتما رائحة الخوف في قلبيهما مثلما اعتادا قبل أن يستمعا لـ«حسين» مُعلنا ميلاد الجمعية الوطنية لطرد الاحتلال.

بحسم وصرامة قال لهم «حسين»:

ـ إننا سنتعاهد على الكتمان والتضحية من أجل الوطن وسنبدأ خلال أيام بقتل الإنجليز. سنُقسم جميعًا على الإخلاص والتفاني وتسخير كُل جُهد ومال وقدرات ومعارف لتحقيق هدف الجمعية الأسمى وهو طرد الإنجليز بالقوة.

ـ ونجيب؟

سأل «مدحت »، فأجابه «حسين»:

ـ لن يقبل بالانضمام إلينا. لكنَّه سيساعدنا رغمًا عنه.

في صحراء المُقطم وقفوا يضعون زجاجات النبيذ الفارغة التي جمعوها ليصوبوا المسدس تجاهها، بعد أن انضم لهم جول أسود. في البدء كان الرصاص يصفّر مُدويًا دون أن ينجح أحدهم في إصابة زجاجته لعدة مرات، وساعة بعد أخرى بدأت الأصابع اعتياد ملمس المُسدس. كان «حُسين» هو الأكثر تماسكًا، غير أنَّ ضعف بصره أشعره بالحُزن لعدم إتقانه إصابة أهدافه. قال لنفسه إنَّه سيئ الحظ لأنَّه صاحب فكرة الجمعية والعقل المدبر لها، لكن مرض الشبكية لديه يجعله أقل حظًا في الرماية. فكر وقرر سريعًا أنَّ عليه أن يُخاطر ويخوض تجربة إجراء الجراحة بشكل عاجل غير عابئ باحتمال فقدانه للبصر حال الفشل.

في اليـوم ذاتـه أسرَّ إلى والدتـه بضيقـه الشـديد لاسـتمرار آلام عينيـه راجيًـا إيَّاهـا ضرورة الإسراع بإجـراء الجراحـة مُسـتعينًا ـــ كعادتـه ـــ بحكايـات مُلفقـة حـول اشـمئزاز إحـدى الفتيـات مـن مشـهد عينيـه واعتقادهـا أنَّـه مُصـاب بالحـول. وكمـا توقـع فقـد تنصـت عليهـا بعـد ساعات قليلـة تُناشـد والـده سرعـة إجـراء الجراحـة لـه، وهـو مـا أسـعده، عـلى الرغـم مـن معرفتـه بالاضطـرار للخضـوع لطبيـب إنجليـزي كان يكـن لـه كُل الكراهيـة وعظيـم الاحتقـار.

في اليـوم المُحـدد وبمستشـفى بـاب اللـوق تمـدد عـلى الفـراش وحولـه وقـف أفـراد الجمعيـة يمنحونـه الثقـة والتشـجيع اللازمـين، بينمـا كان والـداه يدعـوان اللـه أن يمنحـه شـفاءً، وسـلامة، إذ كانـا مُقتنعـين أنَّ عصبيتـه ومشـاغباته الجمـة نتـاج طبيعـي لمـرض بـصره.

بـدا «حسـين» باسـمًا بثقـة وهـو يـودع وجـوه مُحبيـه قبـل أن يـسرح الخـدر بأوصالـه كجيـوش مـن النمـل النشـط الـذي انتـشر سريعًـا وبـلا مقاومـة في شرايينـه وعروقـه. أبـصر وجـه الطبيـب الإنجليـزي مذعـورًا وهـو يركُـض بينمـا كان يسـير هـو بثبـات وثقـة وفي يمينـه السـميث آنـد ويسـون، وأمامـه عسـكري نحيـل تـنزف سـاقاه دمًـا أسـود. وعـلى جانبـي الطريـق رأى حشـدًا مـن الوجـوه، أفنديـة، فلاحـين، طلبـة، سـيدات بمـلاءات سـوداء، وفتيـات بريئـات يُشـجعونه بحمـاس ليُكمـل تصفيـة دمـاء فريسـته، بينمـا كان «سـعيد» و«مدحـت» عـلى يمينـه و«محمـد» و«سـيد» عـلى يسـاره يتابعـون بشـغف. كان «نجيـب» يُتابـع مـن بعيـد في انبهـار. سرح ببـصره إلى بعيـد فشـاهد طرابيـش وطنيـة تعتـلي رؤوسًـا عديـدة متباينـة الطـول والقـصر تركـض أمـام العسـكري الإنجليـزي في فـزع مماثـل، بينمـا كانـت الشـمس تتوهـج نـاشرة نهارهـا ودفئهـا عـلى الجمـوع الحـاضرة. في طريقـه أبـصر صورتـه عـلى صفحـات الصحـف المرصوصـة عـلى الأرصفـة وتحتهـا بالبنـط الأحمـر كلمـة «بطـل مـصر». ومـن إحـدى الشُرفـات أطلـت «إحسـان» ـــ فاتنـة المعـادي ـــ بوجههـا

الجميل وجيدها الرخامي لتُبصر مروره، بينما كانت أصابعها تتماوج يمينًا ويسارًا تحية له، لكنه لم يلتفت وواصل إطلاق رصاصه ليتدفق خيط الدماء سريعا على الطريق ممتدًا من ساقِ طريده. سمع صوت والدته تهتف به «حبيبي»، بينما كان كف والده الغليظة الدافئة تحتضن رأسه في حُنوٍ بالغ. كان يشتم رائحة تبغ والده عندما سمع صوتًا باردًا يكرر:

ــ مبروك يا بك. العملية نجحت. النتائج أفضل مما توقعنا كثيرًا.

وغاب مرة أخرى عن الوعي لعلَّه يُدرك فريسته.

***

أبريل شهر التقلبات.عواصف تُرابية تصفع أوراق الشجر الخضراء فتُحيلها صفراء، سماء مُلبدة بغيوم صامتة دون مطر، وحرارة الطقس تزحف ببطء نحو سكان القاهرة، تلك الحرارة التي يكرهها «آدمز» منذ أهلَّ على مصر مُجندًا لتأدية واجبه الوطني نحو بلاده. في معسكر بعيد عن زحام الأفندية وأصحاب الطرابيش وضجيجهم يقضي نهاره مُلتزمًا بنوبة حراسة لمساكن إيواء حامية إنجليزية جديدة عسكرت في حي المعادي بعد اشتعال الحرب العالمية، بينما ينتظر بشوق وتعجل حلول المساء، ليُسلم مُهمته لزميل آخر ويزور عوامة «كاليوبي» الشهيرة على النيل راشفًا النبيذ الفرنسي المُعتق، ومُستمتعًا بوصلات رقص شرقي لمصريات وشاميات ملفوفات الأجساد. كان «آدمز» ذو الثلاثة والعشرين عامًا يسير كعادته وحيدًا غير مُلتفتٍ لتعليمات وتوجيهات مُتكررة للجنود الجدد بعدم زيارة البارات البعيدة فُرادى مُشعلًا سيجارة ماركة كريازي، ومُرددًا في شجن أغنية I,ll never smile again لـفرانك سيناترا،عندما لاح أمامه مجموعة صبية قادمين بُخطى مُنتظمة، ووجوه عابسة يبدوعليها الاضطراب.

كانوا خمسة مصريين يتوسطهم جسد فارع ذو شعر داكن وتلتمع عيناه بشرر غاضب، بينما بدا زُملاؤه كُحراس تابعين. تحسس بكفه مُسدسًا ماركة «كولت» يرقد في جراب جلدي مُعلّق بحزام حول خصره، وشعر باطمئنان مُستبعدًا نزوع الصبية السائرين لأي شر. قال لنفسه لو كانت لديه الشيكولاتة باللبن التي توزع عليهم لتقديمها للأطفال في شوارع الأحياء الفقيرة لمنحهم بعضها، مُتمتما بأنّ هؤلاء المصريين طيبون رغم كُل شيء ويُقدّرون مَن يمنحهم السكر والحلوى.

ليسوا شرًا يا «آدمز». قالها لنفسه وهو يقترب من عصابة الصبية ذوي النظرات المُريبة. توقّع أن يُحيوه كغيرهم بالعبارة الشهيرة «هاى جوني» لكنهم واصلوا رميه بنظرات لاهبة. لاحظ أنّ كبيرهم يُدقق النظر إليه مُتفرسًا وشعر لأول وهلة بقسوة مُرعبة تطُل من عينيه. تذكر أن موعد الوصلة الأولى لراقصات كاليوبي اقترب وأنّ عليه مد الخطى ليلحق الحفل الليلي من بداياته، خاصة في ظل تلك الأجواء المُزعجة بعد احتلال ألمانيا للدنمارك ثُم هولندا والنرويج في الشهر ذاته. استعرت أنفاس الكراهية واشتم رائحة الغدر قبل خطوات قليلة من محازاة الصبية الخمسة له، وشعر أنّ عليه اتخاذ إجراءات الحذر المفترضة، فأبطأ الخطو قليلًا قبل أن يقبض بيمينه على مُسدسه ليُخرجه من جرابه، ووقف مُتجمدًا في مكانه عندما شاهد هراوة غليظة تطيش برأسه في حركة مفاجئة أعقبها صوت صفير مُتكرر. آه. زفرة ألم فرّت مقهورة من بين ضلوعه. سارع الصبية الخمسة بالركض نحوه مُمطرينه بضربات غاضبة من أحزمة وهراوات وقبضات على رقبته ورأسه وظهره، وفقد اتزانه، وسقط على الأرض طلبًا للراحة، علّ هؤلاء المجانين يتوقفون عن ضربه ويجرون بعيدًا، لكنهم واصلوا ركلاتهم في بطنه وصدره بقسوة وغلّ. سمع صوت أطولهم يقول «لم يمُت بعده» ثُم لاحظ سائلًا ساخنًا يتدفق من بطنه قبل أن يستيقن أن رصاصة قاتلة عرفت طريقها إلى أحشائه.

ما تفعلون؟ سأل «آدمز» دون أن يسمع ردًا، لكنَّه شاهد ابتسامة نصر تتراقص فوق وجه الشاب الطويل ذي النظرات اللاهبة، وشعر بيدين غليظتين تعبثان في ملابسه، ورأى مُسدسه يتقلّب بين أكف المهاجمين، ثُم صفارته، وحقيبته الصغيرة، وزجاجة نبيذه، ومحفظته، وقبعته، وحزامه، ثُم صورة فتاته في لندن والتي ودعته قبل تسعة أشهر مُسافرًا لأداء الخدمة الوطنية في إحدى مستعمرات بلاده. ابتسم مُتألمًا ليشهد نظرة الثأر تطلُّ من عيني سالبه. ما اسمك أيها الفتى الجريء؟ سأله دون صوت، فسمع الكلمات باردة، تتمايل كأغنيته التي كان يشدو بها.

ــ حسين.

ثُم اقتربت أنفاس لاهبة من وجهه لتضيف:

ــ وهؤلاء أصدقائي محمد، وسيد، وجول، ومدحت. وداعًا جوني.

لست «جوني». أنا «آدمز». ودّ الجندي المحتضر أن يقولها لكن صوته لم يُغادر شفتيه، وغاب دون أن يُبصر الفتية يغادرون في خفة، مُحتفلين بنصر شعب مُضطهد، ومُحتل على أكبر قوة عسكرية في أوروبا، تلك التي زعموا أنَّ الشمس لا تغرب عنها أبدًا.

ساروا معًا فرحين بالمسدس، والمحفظة بما فيها من نقود، وبنجاح أول عملية قتل لمحتل كريه. في وكرهم بحديقة المنزل اجتمعوا فخورين بما أنجزوا، قبل أن يقصوا على «نجيب» و«سعيد» ما فعلوه. وزَّع محمد سجائر جاناكليس عليهم احتفالًا بنجاح المُهمة، بينما أقسم «سعيد» على شقيقه أن يصحبه في العملية القادمة ليتعلم أصول العمل الفدائي.

رشف «حسين» لأول مرة رشفة من زجاجة نبيذ القتيل مُستغربًا لسعة المشروب في الفم قبل أن يقول لصحبته:

ــ أرأيتم وجه الخنزير وهو يترجرج بالخوف راجيًا الرحمة؟ أرأيتم فزعه؟ ليسوا أشداء كما يظن الناس، هُم أجبن وأضعف مما حسبت.

ـ من قتله؟

سأل «نجيب» فابتسم «حسين» مُشيرًا بأصابعه نحو «سيد» قائلًا:

ـ البطل. البطل هو مَن أطلق الرصاص.

زارت الغبطة وجه «سيد» الذي تمتم:

ـ لولا ضرباتك ما سقط. رصاصة واحدة أصابته ورصاصتان طاشتا.

رفع «محمد» رأسه مُفتخرًا وردد في رضا:

ـ الاتحاد قوة. كُلنا أبلينا حسنًا في العملية. وهانحن ربحنا مسدسًا ثانيًا.

ـ سنحتفل.

قالها «جول»، وكرر الجميع خلفه:

ـ نعم سنحتفل.

وقف «حسين» وهزَّ رأسه طربًا وهو يقول:

ـ كم هو مُمتع مشهد خروج الروح قهرًا من أناس ظنوا أنَّهم سادة وغيرهم عبيد!

ونظر إلى «نجيب» وقال:

ـ قُلت لي مرارًا أنَّ طعم القُبلات ألذ ما في الدنيا. كذبت. لقد ذقتها من قبل، وما جرى اليوم أعذب وأجمل من قبلات من شفتي كاثرين هيبورن أو حتى ليلى فوزي التي تقول إنَّها أجمل امرأة في مصر.

سكت «نجيب» عندما شاهد تأمينًا واستعذابًا من الحضور الذين بدوا كأنَّهم في جلسة ذكر صوفي، ومدّ يده إلى زجاجة النبيذ ليرشف منها طعمًا لم يعرفه من قبل.

***

شعر بالثقة البالغة وهي تلتقط أصابعه بين أصابعها الرقيقة، وهُما يسيران إلى جوار النهر الخالد. قرون من الزمان مرَّت على الماء المتدفق من الجنوب الإفريقي دون توقف، صاحيًا ومتمردًا وعابرًا لإحباطات الخوف والسلبية والسكون. قال لنفسه إنَّ هؤلاء الناس ليسوا خاضعين خانعين كما يحلو لكتبة السُلطة أن يصوروهم، فكم ينتفضون ويرفضون الواقع كُلما سنحت لهم الفرصة. كانت كفه لا تشعر بدفء اليد الناعمة البيضاء الملتصقة به لأنَّ عقله مُنشغل بتصورات واستعدادات للعمل الفدائي المُقبل الذي صار يحلُم به كل ليلة.

وافق «حسين» على إلحاح ابن خالته «نجيب» للاستجابة لدعوات «إحسان» بلقاء صديقتها «ميمي» التي طالما أبدت إعجابًا بحسين ذي الطول الفارع والعينين الحادتين. قالت «إحسان» لـ«نجيب» إنها تستغرب كيف تُقبل «ميمي» مُدللة المعادي على مُصاحبة هذا الشاب الخشن ذي النظرات المُريبة. لو كان عليها ما منحته نظرة رضا واحدة، لكن تبدو أذواق النساء متباينة حتى في فرسان أحلامهن.

اقتربت بجسدها النحيل من «حسين» المُرتبك قليلًا وهي تخطو ببطء وصعوبة خوفًا من التعثر بسبب طول كعب حذائها. كانت ترتدي جونلة خضراء ومعطفًا بنفس اللون له أربعة جيوب مستطيلة، وعلى ظهرها انساب شعر بُني طويل، بينما كان «حسين» يرتدي بذلته الكُحلية الناعمة بعد أن خلع عن رأسه ملل الطربوش مُفضلًا تلميع شعره الناعم بالفازلين. سألته في تدلل عما يشغل باله، فقال بهدوء كهل في الأربعين:

ـ حال البلد.

ـ أوه. لا يعجبك؟

أجاب سائلًا:

ـ هل تعرفين أنَّ خيرات مصر تُنهب كل يوم من قبل هؤلاء

الخنازيــر؟

وأشــار بإصبعــه ناحيــة ثلاثــة عســاكر أجانــب يســيرون عــلى الرصيــف المقابــل.

قالت «ميمي»:

ــ ومــا هــو الجديــد؟ لقــد ولدنــا ووجدنــا هــؤلاء العســاكر يســيرون في شــوارعنا ويعملــون إلى جــوار آبائنــا، ويقدّمــون لنــا الشــيكولاتة. ألا تذكــر؟

غلى الدم في وجه حسين وانتفخت عروقه وقال غاضبًا:

ــ شــيكولاتة. لا. أتذكــر مَــن قتلــوا ومَــن جلــدوا. أعــرف أنّهــم ينهبونتــا ويحتلــون بلادنــا ويســتغلوننا عقــودًا بفضــل الخونــة والــكلاب.

ـ حبيبي.

نطقت «ميمي» مُهوّنة، فهدأ قليلًا وقال لها:

ــ هــل تتصوريــن أنّــه مــن الكرامــة والرجولــة أن نــترك هــؤلاء يســتكملون مــا فعلــوه بأجدادنــا وآبائنــا؟

نظرت إليه بعينين فاض منهما التيه وقالت:

ـ بالطبع لا. لكن ماذا نفعل؟

بــرق الســؤال في دماغــه وشــعر بثقــة المُخلّــص وهــي تلتصــق أكــثر بجســده، وقــال لهــا:

ـ نُقاتلهم.

ـ قتل؟

نطقت الحروف في خوف، فواصل في برود:

ــ نعــم.. قتــل. لقــد فعلتهــا يــا ميمــي. وســأقاتلهم حــتى يتمنــوا الهــرب مــن بلادنــا.

حــكى لهــا في عُجالــة مــا فعلــه وأصحابــه بســيارات المعســكر الإنجليــزي، ثُــم كيــف قادهــم لقتــل العســكري الإنجليــزي قبــل أيــام. شــعرت أنّهــا

أمـام فـتى مختلـف، وقفـت قلقـة، وحدقـت فيـه مُنبهـرة ورمـت بعينيهـا لفتـة خاطفـة نحـو الطريـق الخـالي مـن المـارة، ثُـم اقتربـت بشـفتيها الدافئـة منـه لتطبـع قبلـة سـاخنة عـلى شـفتيه. ارتعـدت فرائصـه وشـعر بتدفـق الـدم في عروقـه ورقـص قلبـه فرحًـا عندمـا قالـت في حنـو:

ــ أنا معك. اقبلني خادمة للوطن.

سـارا معًـا، مُحتفلـين بانضمـام عضـو جديـد لجماعـة المقاومـة الوطنيـة، قبـل أن تقـوده في شبق ظاهـر نحـو بيـت جدتهـا الخـالي مـن السُـكان في حـي المنيـل لينهـل للمـرة الأولى مـن خمـر الأنوثـة. عناقهـا دليـل عـلى خـبرة فتـاة مُجرّبـة وعابثـة وقـادرة رغـم ذلـك عـلى الحفـاظ عـلى بكارتهـا. أذابتـه في خلاياهـا، وعلّمتـه قضـم التفاحـة، ونـسي زمـلاءً ينتظرونـه فنـام حـتى العشـاء.

عندمـا عـاد قـرأ الضجـر عـلى أفـراد الشـلّة المجتمعـين بغرفـة عـم «عثمـان الجنايـتي»، والذيـن تلقـوا نبـأ خـروج «حسـين» و«ميمـي» معًـا مـن «نجيـب» بتشـكك ودهشـة. وجـد أفـراد المجموعـة يتحلقـون حـول «محمـد إبراهيـم كامـل» الـذي أحـضر خريطـة لحـي المعـادي ليـشرح عليهـا خطـة العمليـة القادمـة.

كيف تخطاني؟ سأل نفسه، قبل أن يجيبه «محمد» بنبرة لوم:

ــ لـن أعيـد الخطـة مـن البدايـة. مَـن لا يلـتزم بالمواعيـد الـتي نتفـق عليهـا لا يسـتحق نيـل شرف العمـل الفـدائي. اسـمع يـا حسـين سـتكون خـارج العمليـة.

انتفض وغضب وزعق:

ــ أنا. كيف تجرؤ؟ ماذا جرى؟ هل تنقلب عليَّ؟

ثُم نظر إلى باقي الحضور وكرر:

ــ هـل تقبلـون ذلـك؟ لقـد كنـت في مهمـة مـن أجـل التنظيـم، ونجحـت في ضـم عنـصر جديـد لجماعتنـا.

استغربوا، فواصل:

ـ لأول مرة سيكون معنا عنصر نسائي. ميمي انضمت إلينا. فاتنة المعادي يا شباب ستعمل معنا في الخفاء. سنستغلها في خطط الخداع، لن تشارك في مناقشاتنا، لكنها ستلتزم بما يُعهد إليها من مهام.

بُهت الحاضرون، بينما رسمت الدهشة تعرجاتها على وجه «نجيب» الذي بدا غير مُصدق.

سأل «نجيب»:

ـ هل وافقت على المر...؟

ولم يُكمل فقد أجاب «حسين» بصرامة:

ـ نعم.

وتذكر ثديين رائعين تقلبت شفتاه بينهما، ودار بخلده ذلك الشعور الطاغي بالانتصار وهو يقتحمها اقتحامًا، وأخرج عُلبة سجائره ليناول «محمد» واحدة قائلا:

ـ أكمل خطتك.

تردد «محمد» قبل أن يقول:

ـ آسف يا «حسين» ظننت أنَّك نسيتنا فكان لابد أن أذكرك.

ثم بنبرة حماسية:

ـ نحن في مهمة وطنية، والأمور لا تقبل العبث، وعندما رأيناك شابكًا ذراعك بذراع «ميمي» غضبنا، خاصة أن «نجيب» كان يُراهن أنَّك لن تأتي موعد لقائنا.

ـ لا عليك. لكن لابد أن تثقوا في.

قالها «حسين» بنبرة المنتصر المسيطر قبل أن يقود الجمع لخطة إحراق المعسكر الإنجليزي راسمًا تحركات أفراد المجموعة على

الخريطة الممدودة أمامهم. واصل تحديد أدوار كل فرد: «محمد»، «جول»، «سيد»، «مدحت»، و«سعيد»، قبل أن يطرق «عم عثمان» الباب، ليفتحه قليلًا مُبصرًا الكهل الأسمر مُضطربًا وهو يقول له:

ـ يا حسين بك. البك الكبير يريدك. أعتقد أنَّ أحدًا وشى بكم. لقد زاره قبل قليل ضابط بملابس رسمية.

ـ سأحضر.

ببرود أغلق الباب وواصل شرح خطته مُقررًا أنَّ موعد تنفيذ العملية سيكون في الثالثة صباحًا. نظر لـ«سيد» وقال:

ـ بحيرة من البنزين ستصبها حول سيارات النقل الموجودة خارج المعسكر، وسيمد «محمد» ثلاثة حبال مشبعة بالكيروسين من الشارع المجاور، وسيشعل «جول» النار عند الساعة صفر، بينما سأطلق أنا النار على الجنود الفارين من النار وسيقود بنا «مدحت» سيارتنا ومعه «سعيد».

وافقوا في اعتزاز وكأنَّ مناورة «محمد» لم تُغيّر ثقة أحدهم في قيادة وزعامة «حسين» لهم، وربما فإنَّ «محمد» نفسه لم يُبد أي تشكك في تلك القيادة.

غادرهم «حسين» سريعًا ليمتص غضب والده الذي اعتاد على ضغوطه ووصفه الدائم له بالفشل. رمقه بنظرة مُجابهة شاعرًا بأنَّ ذلك الرجل المُهاب ذا الملامح القاسية يشعر بالضعف تجاهه. وقف أمام مكتبه دون أن ينبس حتى لاحظ والده وجوده فأشار له ليجلس. سأله «توفيق بك» عن أحواله، فأجاب ببروده المعتاد، ثُم سأله عن دراسته، فردّ بأنَّه بدأ استيعاب كثير من الدروس التي كان يستصعب استيعابها، وسأله عن أصدقائه وحالهم فأجاب إجابات هادئة قبل أن يُفاجئه والده سائلًا:

ـ وكيف قتلتم العسكري آدمز ميكنزي؟

صعقتـه الكلمـات. لقـد عرفـوا، وحـددوا اسـم القتيـل، وتشـككوا، وبعثـوا بأحـد رجالهـم لجس نبـض البـك الكبـير. لـو كان لديهـم دليـل لمـا انتظـروا عليـه. نظـر إلى دخـان سـيجار والـده المُتصاعـد في خـط مُستقيم نحـو سـقف غرفـة المكتـب، وسرحـت عينـاه بصفـوف الكُتـب الناعسـة فـوق رفـوف مكتبـة كبـيرة عـلى يمـين المكتـب، وتذكـر وجـه العسكري الإنجليزي وهـو ينتفـض هلعًـا وهُـم يُرسـلون بـه إلى الجحيم، ثُـم لاحـت في عينيـه ذكـرى شـفتي «ميمـي» وهـي تـئن تحتـه قبل سـاعات. رسـم «حسـين» ابتسـامة باهتـة عـلى وجهـه قبـل أن يقـول لوالـده في بـرود:

ــ لـم يسـتغرق الأمـر سـوى دقيقتـين، ضربتـه بعصـا الحديقـة فـوق رأسـه بينمـا صفعـه أصحـابي عـلى قفـاه وركلـوه في بطنـه، ولكمـوه في وجهـه، وخنقـوه انتقامًـا للشـهيد عبدالحكـم الجراحـي.

ــ مَن؟ عبدالحكم الجراحي. لقد مات منذ سنوات.

علَّـق «توفيـق بـك» وعينـاه تسـتعران غضبًـا وغيظًـا مـن بـرود ابنـه. تذكَّـر شـيئًا مـا ثُـم قـال لـه«حسـين»:

ــ لقد قتلتموه بالرصاص. أين المُسدس؟

ابتسم صامتا للحظات قبل أن يُجيب:

ــ في أعمـاق النيـل. أعـرف أنهـم بعثـوا لـك مُحققًـا ليسـتدرجك. لكـن لا تقلـق. لا يوجـد دليـل واحـد.

وقـام مسـتئذنًا بينمـا كان قلـب والـده يغـلي مـن القلـق. لا عليـه، لكـن منـه.

***

«محمـود يحـيى مـراد». عضـو جديـد، ضمـه «حسـين» إلى الجماعـة بعـد أن قـرأ في عينيـه حزنًـا طاغيًـا.

الحيـاة مملـة وسـخيفة ولا فائـدة لهـا لأننـا نمـوت في النهايـة. هكـذا قـال «محمـود» لـ«حسـين» ابـن خالـه عندمـا ذهـب الأخـير يُعزيـه في وفـاة والـده.

ـــ نحـنُ لا شيء. لا شيء يـا أخـي، مُجـرد لحـم يتدحـرج فـوق الأرض، رُبمـا يكـبر أو يصغـر، لكنَّـه يـزول، يفـنى. يتـلاشى.

كان «محمـود» يتذكـر مأسـاة والـده الـذي شـارك قبـل ثلاثـة عقـود في القصـاص مـن «بطـرس باشـا غـالي» وقُبـض عليـه فيمـن قبـض عليهـم، وحوكـم لكنَّـه حصـل عـلى الـبراءة لعـدم كفايـة الأدلـة مثلمـا جـرى مـع «توفيـق بـك». فيمـا بعـد لـم يتمكـن مـن الحصـول عـلى وظيفـة مناسـبة وتشـعبت بـه الحيـاة ليعمـل مُثمنًـا للتحـف والأثـاث، وهـي مهنـة كان يعيبهـا تذبـذب الدخـل، وعـدم الاسـتقرار.

كان «محمـود» يتخيـل أنَّ رجـال القلـم السـياسي سـيطرقون بابهـم في إحـدى الليـالي ليأخـذوا معهـم والـده الصامـت كثـيرًا، والخائـف دومًـا، ليمنعوهـم مـن قليـل العيـش الـذي يوفـره لهـم. لا معـاش لـه ولا عـلاج ولا حقـوق لأبنائـه مـن بعـده، هـذا مـا عرفـه «محمـود» بعـد وفـاة والـده المفاجئـة في شـتاء العـام الثـاني مـن العقـد الخامـس بالقـرن العشريـن.

عـلى الفيلسـوف «نيتشـة» شـبّ الفـتى الهـادئ ذو الملامـح الخشـنة والشـارب الكـث ليتعلـق بأفـكار التمـرد ومخالفـة الواقـع وكـسر المعقـول. آمـن معـه بـأنَّ الفنـون والآداب اخترعهـا الإنسـان للهـروب مـن الحقيقـة. وصـار يـردد كثـيرا مقولتـه «العـار العـار العـار، ذلك هـو تاريخ الإنسـان». كان يـرى أنَّ التاريـخ المـصري سلسـلة مـن الأكاذيـب الـتي لفقهـا مؤرخـو العـرش ليصمـوا تافهـين وخونـة بصفـات العـزة والكبريـاء. وعـلى مسـامع «حسـين» وصحبتـه ردد «محمـود» عبـارة «نيتشـة» الموجعـة «يبيعنـا بعـض المؤرخـين وكاتـبي السـير الذاتيـة أكاذيـب مشروعـة وقصصـا

ملفقـة، ويحلـو لنـا أن نصدقهـا». وأمامهـم هتـف للمـرة الأولى لاعنًـا حـزب الأغلبيـة وزعيمـه الرجـل المُبتسـم زائـغ النظـرات الـذي يعتبرونـه وليًا مـن الأوليـاء.

في جلسـةٍ خاصـةٍ في حديقـة مـنزل توفيـق بـك قـال لأفـراد الشـلّة الـتي انضـم إليها حديثًـا:

ــ إنَّ أخطـر مـا يجابـه مـصر الآن هـو ذلـك الاعتقـاد بـأنَّ هنـاك وطنيين مـن الباشـاوات والزعمـاء. إنَّ هـؤلاء الذيـن وضعـوا أكفهـم في كف السـفير «مايلـز لامبسـون» جلبـوا لنـا العـار إلى الأبـد، ولا حـق لهـم في قيـادة الأمة.

ــ مَن تقصد؟

سأله «محمد إبراهيم» فأجاب:

ــ «النحـاس باشـا». هـذا المُهـرج الـذي يسـحر النـاس ويخدرهـم فيصدقونـه ويقدسـون كل قـول وفعـل لـه.

لمعت عينا «حسين» ونطق:

ــ معـك حـق. النحـاس نبيهـم. قديسـهم المزعـوم. إنَّـه يقودنـا كنعـاج نحـو التسـليم. لقـد سـمعت والـدي يحـكي عنـه عندمـا كان رئيسـا كيـف وضـع جميـع أمـوال مـصر وإمكاناتهـا وقدراتهـا تحـت تـصرف الإنجلـيز فـور توقيعـه اتفاقيـة الصداقـة.

ــ لكـنَّ النـاس تريـده وتـرى فيـه خـلاص مـصر مـن اسـتبداد القـصر ومراوغـة الإنجلـيز.

قالها «نجيب»، لكن نظرات استنكار وأدتها مبكرًا فلزم الصمت.

أشـعل «محمـد» سـيجارة جاناكليـس وفوجـئ بـ«حسـين» يختطفهـا منـه ليُدخنها فقـال لـه:

ــ خُذ واحدة ولا تختطف سيجارتي.

ابتسم «حسين» وهو يقول:

ـ لقد صارت نادرة في زمن الحرب. أبحث عنها فلا أجدها.

دخل «جول» وفي يده لفّة سرعان ما فتحها لتبدو زجاجة ويسكي متوسطة، ثُم أخرج علبة سجاير ماركة ماسبيرو رويال وقال لهم:

ـ معي مزاج الليلة. سنشرب نخب انتصارات الألمان.

لاحت مظاهر الدهشة على وجوه المجتمعين السبعة ثُم سأل «حسين»:

ـ هل هناك أخبار؟

ابتسم «جول» وقال:

ـ نعم. الجيش البريطاني تقهقر في الصحراء الغربية بعد هزائم متلاحقة، وطلبة الجامعة يهتفون ضد بريطانيا والأحوال معقدة جدًا.

ـ كيف عرفت؟ إنَّ الرقابة تمنع نشر أخبار الحرب في الصحف.

سأل «حسين» وهو يفتح الزجاجة، فقال «جول»:

ـ خالي قال لي إنَّ الأوضاع ستنقلب قريبًا. أنتم تعرفون أنَّه كان يعمل في السفارة الألمانية. إنَّه يقول إنَّ هناك تعاونا بين فدائيين مصريين وضباط ألمان وطليان، والملك نفسه يحاول الاتصال بهم. وهناك أنباء حول قيام «حسين باشا رشدي» رئيس الوزراء بتقديم استقالته.

ـ هاا. الخوف أن يأتوا بالنحاس باشا.

قالها «محمود مراد»، فشاركه «محمد» قائلًا:

ـ سيفعلونها. لو توافق الملك والوفد فستخسر مصر فرصة حقيقية للتحرر من ديكتاتورية الزعامة وعبودية الاستعمار.

ـ ومن قال لكم إنَّ الألمان أو الطليان سيمنحوننا الحرية؟

فاجأهم «نجيب» ساخرًا.

برقت عينا «حسين» وهو يقول:

ـ لم تحتلنا ألمانيا الآن لنفكر في التحرر منها أو محاربتها. نحن نواجه الإنجليز، وعلينا أن نتوحد مع كل أعدائهم. والألمان عدو لهم، لذا يجب أن نساندهم، لكن كل الخوف من الخونة. الوفد والنحاس أخطر على الأمة من كلاب القصر وخدم الملك.

نفث «محمد» دخان سيجارته باحثا عن بعض الدفء في الشتاء القارس قبل أن يقول:

ـ في يوم ما سيكون علينا التخلص من كُل هذه الوجوه المتحفية المسترخية. الذين يؤمنون بالدستور والقانون ويتخيلون أنّ الاستقلال سيتحقق بالكلام والتفاوض. سيكون من المهم محو هؤلاء وإزاحتهم تماما من الوجود حتى لو كان الناس يُحبونهم ويقدّرونهم.

علّق «محمود» مُستشهدا بإحدى عبارات نيتشة:

ـ من بين كُل ما كُتب، لا أحب سوى ما كتبه الإنسان بدمه.

صبّ «حسين» زجاجة الويسكي ليملأ كئوسًا صغيرة أخرجها من دولاب الغرفة، ثم وضع كأسًا أمام كل فرد من الأفراد الستة ثُم قال ضاحكا:

ـ عاش نيتشة.

ردّد الجميع وهم يرفعون كئوسهم إلى السماء:

ـ عاش نيتشة. عاش. عاش.

***

رسم القلق أخاديده في الوجه الشاب ذي القسمات الملكية، وبدا مُضطربًا وهو يُمسك بالورقة الممدودة من كف مُحدثه مُغمضًا عينًا وفاتحًا أخرى مخافة أن يقرأ ما يصدمه. كان الفتى الذي لم يمر على

تسلمه حُكم أرض النيل خمس سنوات مسكونًا بهواجس إقصاء ابن عمه «عباس حلمي» من سُدة الحُكم سنة 1914 ليتيه في بلاد الله ممنوعًا من دخول البلاد، ومُنكرا هُنا وهُناك. اعتبر المليك أنَّ ملامح السير «مايلز لامبسون» الصارمة ونظراته الاستعلائية التي طالعته فور دخوله القصر تصفع سلطانه وكرامته كأحد أبناء العائلة العلوية، وقال لنفسه إنَّه حتى ذلك العجوز الماكر ذي العينين العميقتين والذي يُشرف على جميع سياساته بدا مُنزعجًا من حديث «لامسبون» الجاف. إنَّ «أحمد باشا حسنين» داهية القصر والكشاف المُضيء لدهاليز السياسة المصرية المُعتمة يبدو لأول مرة مُهتزًا خائفًا من عواقب وخيمة. وجهه النحيل وجبهته التي هوت المغامرات سنين طوالًا، وعيناه المُدققتان والمُتشككتان في كُل شيء، الآن لا شيء. ما له سكن كشبح؟ قالها الملك «فاروق» لنفسه مُتذكرًا دس حسنين باشا لدى الشيخ «محمود المراغي» شيخ الأزهر لتحريض الطلبة على التظاهر تبشيرًا بانتصار قوات المحور، وخلص إلى أنَّه أخطأ بموافقته على خطة «حسنين» للتخلص من «حسين باشا سري».

قرأت عيناه المُذكرة المُقدمة من «مايلز لامبسون» ذلك الثعلب ميت القلب الذي يقترن بفاتنة تصغره بعقود، لتصدمه الكلمات غير مُصدق نبرة الوعيد والازدراء. مرّ مرورًا سريعًا على المُذكرة التي شاركه قراءتها أحمد باشا حسنين، والذي حاول قبل دقائق منع دخول الجنرال ستون قائد القوات البريطانية مع السفير لكنَّه فشل تحت قصف نظراته المتوعدة.

«لقد كان واضحًا منذ زمن طويل أنَّ جلالتك قد تأثرت بمجموعة المستشارين المحيطين بك، الذين لم يكونوا مخلصين فقط بالنسبة للتحالف مع بريطانيا، بل أكثر من هذا أنهم يعملون ضد هذا التحالف، ومن ثم فإنَّهم يساعدون العدو. ولاشك أنَّ تعاون وتشجيع جلالتك لهم يناقض المادة الخامسة من معاهدة التحالف، التي

بمقتضاها تتعهد كل الأحزاب المتعاهدة بألا يتخذوا موقفًا معاديًا بالنسبة للبلاد الأجنبية، ويكون متعارضًا مع الحلف.

بالإضافة إلى ذلك فإنَّ جلالتك أحدثت أزمة خطيرة بطريقة طائشة وغير ضرورية كرد فعل للقرار الذي اتخذته الحكومة المصرية السابقة استجابة للطلب الذي تقدمت به إنجلترا والذي نصَّت عليه المادة الخامسة من المعاهدة.

وفي النهاية فإنَّ كل المحاولات التي جرت لتشكيل حكومة ائتلافية قد باءت بالفشل، إذ رفضتم أن تعهدوا بأمر تشكيل الحكومة إلى زعيم حزب الأغلبية في البلاد على الرغم من أنَّه يتمتع بمكانة خاصة تجعله قادرًا على ضمان استمرار تطبيق المعاهدة بروح الصداقة كما يجب.

ومثل هذا التهور والطيش، وعدم تقدير المسئولية يعرض أمن وأمان مصر للخطر وكذلك القوات الحليفة الموجودة بالعاصمة، ويؤكد الجميع أنَّ جلالتك لم تعد جديرًا باستمرارك على العرش».

بلع صاحب الوجه المُضيء المُربع ريقه ومعه كلمات التوبيخ والسخرية، مُتخيلًا مجموعة من الأفندية المصريين يتوسطهم خصمه اللدود «مصطفى باشا النحاس» يدوسون فوق رأسه. لاحظ بطرف عين تنكمش أسفل حاجب رفيع نظرات وجل مُنبعثة من عيني رئيس ديوانه ومسددة نحو القائد البريطاني وأخرى نحو النافذة ليشهد دبابات بريطانيا وجنودها حول القصر. أي كرامة لملك مجبور وخائف في وطن يعشق أهله السخرية ويدمنون التنكيت حتى على أنفسهم! قالها لنفسه ذابحًا بقايا كبرياء اشتمها داخله.

تذكر الساعات الفائتة بعد أن جمع باشاوات مصر وكبراءها لمناقشة إنذار السفير البريطاني شديد اللهجة الذي قال «ما لم أسمع قبل الساعة السادسة مساء اليوم بأنَّه تم تكليف «النحاس» بتشكيل الحكومة، فإن جلالة الملك عليه أن يتحمل العواقب». كان

«النحاس» باشا بوجهه الصوفي وعينيه الزائغتين وحيدا وسط تأويلات خصومه الذين رموه بنظرات اتهام ردها بقسوة وقوة، مؤكدًا أنه لا يعرف شيئًا عن الإنذار البريطاني وأنَّه يرفضه تمامًا، وحاول «أحمد باشا ماهر» ترجيح فكرة تشكيل وزارة قومية يترأسها «النحاس»، لكن بدا السياسي المخضرم واعيًا تمامًا أنَّه يقف على أرض صلبة، فأصرَّ أنَّه لن يؤلف إلا وزارة وفدية، وتاهت المناقشات ولم يتم التوصل لحل، سوى اتفاق باشاوات مصر على رفض الإنذار البريطاني والاحتجاج عليه.

قال الملك «فاروق» بعصبية زائدة:

ـ وماذا بعد؟

مدّ السير «مايلز لامبسون» بابتسامة باهتة ورقة أخرى كان واضحًا أنَّها الحُكم النهائي على الملك الذي حاول التصرف كما علمه مُعلمه ومستشاره «أحمد باشا حسنين» باعتباره حاكما واسع السلطات. قرأ الملك بعينين ذبيحتين وثيقة التنازل عن العرش. كانت كل كلمة بمثابة سكين بارد يقطع لحمه ويزدرد دماءه قطرة قطرة.

«نحن فاروق ملك مصر، تقديرًا منا دومًا لمصالح دولتنا، فإني بموجب هذا أتخلى وأتنازل بالنيابة عن أنفسنا وورثتي عن عرش مملكة مصر، وعن جميع حقوق السيادة والامتيازات والصلاحيات في المملكة المذكورة وبشأن رعاياها، وأننا نعفي رعايانا من ولائهم لشخصنا». صدر في عابدين في الرابع من فبراير 1942.

أمسك القلم ولامس بسنه المُدبب وثيقة التنازل، وسأل الله بقدر إحسانه وعطفه على عجائز الطهاة والخدم بقصر عابدين أن يُخلصه من لامبسون وستون فتنشق بهما الأرض كقارون، وتذكر النحاس باشا فضمه للأمنية، ثُم تذكر أمين باشا عثمان ذلك الجسر الممتد بين الوفد والإنجليز فأضافه هو الآخر. ثُم استجمع كل تصوراته عن الشجاعة وقرر التوقيع، لكنَّه سمع كلمات هامسة من رئيس الديوان

خمَّن أنَّها كلمتي «فرصة أخرى»، فتمالك نفسه وقتل نبض قلبه المُتسارع، وقال للسفير بإنجليزية مُتقنة:

ـ هل يمكن أن تمنحني يا سيادة السفير فرصة أخرى؟

هزَّ السفير رأسه باندهاش، وتبادل مع القائد العسكري «ستون» نظرات ذات مغزى ثُم سأل في برود:

ـ ماذا تنتوي أن تفعل؟

منع الملك دمعتين ساخنتين كادتا تدفقان من محجريه وقال:

ـ سأكلف النحاس باشا فورًا بتشكيل الوزارة.

ـ دون تدخل.

قالها السفير، فردد الملك:

ـ دون تدخل.

خرج السفير «مايلز» مبتسما وإلى جواره الجنرال «ستون»، وخلفهما جرى «أحمد باشا حسنين» وهو يُكرر رجاءه بضرورة سحب الدبابات المحاصرة بسرعة حفاظًا على ماء وجه الملك.

دقائق قليلة مسح خلالها الملك الشاب دموعه، ثُم أشعل سيجارًا، قبل أن يستقبل زعماء مصر مرة أخرى. وقفوا متوجسين بينما بدا النحاس بينهم ثابتًا رابط الجأش كأسد جسور. حملق الملك في وجوه الزعماء بحضور رئيس الديوان ثُم قال لهم:

ـ اعتبروا ما دار بيننا كأن لم يكن.

سرت همهمات بين الحاضرين، لكن الملك ركَّز نظره على «النحاس باشا» بعينين فاضتا غيظًا وقال:

ـ وأنا أكلفك يا باشا بتشكيل الوزارة.

ثار الغضب في وجه أحمد باشا ماهر، بينما مصمص «إسماعيل باشا صدقي» شفتيه، وخبط «عبدالفتاح باشا يحيى» كفًا بأخرى، وران

الامتعاض على وجه «محمد باشا هيكل»، ونظر «أحمد باشا زيور» بضيق إلى «النحاس»، الذي وقف فجأة، وقال بثبات موجهًا حديثه للملك:

ـ وأنا أرفض يا جلالة الملك.

ـ ترفض يا باشا؟

قالها الملك غاضبًا فرد النحاس:

ـ أعتذر عن قبول التكليف.

حطّت غربان الخوف بين عيني الملك مرة أخرى وتذكّر وثيقة التنازل ورأى ابن عمه الخديو عباس متنقلًا بين العواصم بلا وطن، فصاح:

ـ لا يا دولة الباشا إنني أصر على تكليفك بالوزارة.

وقف أحمد ماهر وقال بصوت جهوري:

ـ كنت أظن أنَّ النحاس باشا وهو كما يقول عن نفسه زعيم البلاد وصاحب معاهدة الشرف والاستقلال يرفض تشكيل الوزارة، أما وقد قبلها فإني أعلن في حضرة مليك البلاد أنَّ النحاس باشا يتولى الحكم الليلة مستندًا إلى أسنّة رماح الإنجليز.

لم يأبه «النحاس باشا» لوجود الملك وردَّ بصوت أعلى:

ـ لست أنا الذي يستند إلى أسنّة رماح الإنجليز.

كان يود أن يقول لـ«أحمد ماهر» أنّه سبق أن أنقذ رقبته من حبل المشنقة الذي فتله الإنجليز بعد ثورة 1919 للمسئولين عن الجهاز السري عندما ترافع دفاعًا عنه وعن صديقه محمود فهمي النقراشي، لكن صخب الاجتماع منعه. فعاد يقول:

ـ أنتم الذين وصلتم بحال البلد إلى ما جرى.

ورمى نظراته نحو «أحمد ماهر» و«إسماعيل صدقي» و«أحمد حسنين»، لكن الملك قاطعه غاضبًا:

ـ أنا آمرك يا باشا بتشكيل الوزارة.

ـ آسف جلالتك لا يمكن.

ـ هذا أمر ملكي.

وخرج الملك يجر خوفه وقلة حيلته وانفض الباشاوات واحدًا تلو الآخر، ومضى «أحمد باشا ماهر» ليُشهّر بـ«النحاس باشا» ويتهمه بالتواطؤ والاتفاق مع الإنجليز للعودة لحكم مصر، وحكى ما دار، وما تصور، وما ظنَّ لكثيرين من أصدقائه. وكان «توفيق بك أحمد» واحدًا من هؤلاء، لذا لم يكن غريبًا أن يسمعه عارفوه يقول إنَّ «النحاس باشا» عاد إلى الحكم بدبابات الإنجليز.

ـ يا لها من خيانة.

هتف «حسين توفيق» مُعلقًّا على ما سمعه وحجبته الصحف عن الناس تنفيذًا لقرارات الرقابة.

***

دون طرق أو استئذان فتحت السيدة «سميرة» باب حجرة ابنيها لينتفض «حسين» من رقدته صائحًا:

ـ ماما. أما كان أفضل أن تطرقي الباب؟

منحته نظرة عتاب صامتة، بينما غرّد عصفور صغير داخل قفصها الصدري، مُرددًا أنَّ الصغير كبُر وصار رجلًا. ابتسمت مُعتذرة وقالت:

ـ آسفة يا حسين. لكنني أريدك لأمر مُهم.

ألقت نظرة على «سعيد» الجالس إلى مكتبه يقرأ كتابًا لم تعرف إن كان دراسيًا أم رواية مُترجمة استعارها من ابن خالته «نجيب» كما تعود، وأشارت لـ«حسين» بعينها اليُمنى ليتبعها إلى غرفتها.

سار «حسين» مُتثاقلًا خلف الجسد العريض المائل للسمنة متوقعًا رسائل غير مُباشرة تنقلها له أمه عن والده. إنَّه يشعر بالصلابة والقوة عندما يقف أمام والده مُتناقشًا أو مُتهمًا، بينما ينكمش ضعفًا أمام السيدة التركية ذات الحنان المُتكبر، تلك التي مازالت نظراتها إليه تُردد في سعادة كلمة «صغيري».

على سريرها المُستطيل ذي الأعمدة النحاسية جلس أمامها مُستعدًا بعقل منفتح وإجابات مُعدة سلفًا على أسئلة تتكرر. فكّر أنَّ والده ربما حكى لها ما نُقل له حول حوادث التعرض للعساكر الإنجليز أو إحراق سياراتهم، كما توقع أن تعيد السيدة الحنون فتح ملف الدراسة والمُذاكرة. ومن المؤكد أنَّها لن تُحدثه عن الفتيات بعد اطمئنانها أنَّه يلتقي بعضهن ويراقصهن كما أخبرها «نجيب». نظر لسيجارة رويال احتضنتها أصابعها قبل أن تنغرس بين شفتيها مُبديًا برودًا مبالغًا فيه تناسب مع ابتسامة مُصطنعة ارتسمت على وجهه.

سألته السيدة ذات الوجه المُشرب بالحُمرة في تحفز:

ـ قُل لي يا حسين. ماذا تنتوي أن تكون؟

ذات الأسطوانة. ستعرّج على الدروس والمذاكرة والمستقبل. قالها سرًا قبل أن يُجيب:

ـ قولي لي أنت. ماذا تُريدينني أن أكون؟

برقت عيناها فواصل:

ـ طيار مثل أونكل سليم يطير فوق السحاب وينظر للجميع من علٍ؟ أم قائد عسكري مثل جدي إسماعيل باشا يخدم في الجيش العثماني ويُقدم حياته فداء لأمير المؤمنين؟ أم وكيل وزارة مثل بابا نال البكوية ويقترب من إنعام مولانا عليه بلقب الباشاوية؟

اغتمت وبان الوجل على وجهها، ثُم قالت:

ـ كفى سُخرية من أهلك.

ردَّ مقاطعًا:

ـ لست أسخر لكني أعرف أنك تريدينني أن أكررهم.

ـ ليس شرطًا. من الممكن أن تكون طبيبًا ناجحًا يُداوي الناس وينظر إليه الجميع باحترام وتقدير، ومن الممكن أن تُصبح مُهندسًا يُنشئ الأبنية ويصمم العمارات، أو مُحاسبًا كبيرًا تُدير أملاك والدك وتُنمي تجارة تمنعه الوظيفة من تنميتها، أو ربما نُريد أن تستكمل تعليمك في أوروبا لتصبح مؤهلًا لأي منصب مرموق.

غزا الغضب وجهه رويدًا فقال:

ـ أين يا أمي. في لندن؟

ـ وما لها لندن؟

ـ بلد العدو، عاصمة القتلة، وأرض المُستعمرين.

ـ إذن ادرس في فرنسا.

ابتسم ساخرًا قبل أن يقول:

ـ البلد الذي يدك إخواننا في سوريا بالطيران دون رادع. فرنسا التي تذبح الأطفال في الجزائر وتغتصب النساء، فرنسا التي...

رفعت كفها احتجاجًا وقالت:

ـ كفى يا حسين. لا عليك. ادرس في بلدك. لكن لابد أن تجتهد وتُخطط لمستقبلك. اترك الشغب ولهو الأطفال الذ...

لم تُكمل الكلام، حيث وقف حسين غاضبًا وقاطعها بصوتٍ عالٍ:

ـ لعب أطفال؟ لهو؟ أنت لا تعرفين ما أفعل.

قالت بحسم:

ـ أعرف.

ثُم أضافت:

ـ لكن إشعال النار في معسكرات العساكر الإنجليز لا يخدم أحدًا.

إنّها أفعـال متهـوّرة بـلا مقابـل. إنّ والـدك يحـترق حـسرةً كلمـا عـرف بأفعالـك أنـت وأصحابـك. يحـترق صامتًـا حـتى لا ينكشـف أمـرك وتخـسر مسـتقبلك.

وضـع «حسـين» يـده في جيبـه وسـار في الغرفـة ذهابًـا وإيابًـا وقـال في توتـر:

ـ يصمت حتى لا ينكشف أمري ويخسر منصبه. أليس كذلك؟

ردّت بعصبية مماثلة:

ـ لا يـا حسـين. ضربـك للعسـاكر في الشـوارع المُظلمـة لا يمكـن أن يمـر بسـلام. الإنجلـيز لا يتركـون ثـأرًا وأبـوك يُحبـك ويخـشى أن يقسـو عليـك فيمنعـك عـن أصحابـك أو يوقـف مصروفـك. أنـت لا تعـرف كـم يُحبـك.

مضـت سـاردة مـا عرفـه أبـوه مـن صديـق يعمـل بالأمـن العـام بـأنّ هُنـاك جماعــة مــن الأولاد صغــار الســن يخربــون ســيارات الإنجلــيز ويحرقونهـا ويعتـدون عـلى بعـض العسـاكر في المعـادي، وأنّ مُخـبرًا راقبهـم ورآهـم يدخلـون إلى حديقـة منزلـه، فقـدم إليـه ليُحـذره.

اقتربت منه لتضع يدها على خدّه وقالت:

ـ أرجـوك يـا حسـين. لا تحـرق قلـبي وقلـب أبيـك عليـك. أنـت رجُـلي وسـندي بعـد والـدك. أرجـوك اشـغل نفسـك بالموسـيقى. ادخـل السـينما وصـادق الفتيـات، العـب كـرة، واهتـم بدروسـك.

سكنت خلاياه قليلًا وشعر بضعفه أمام أمه فقال:

ـ حاضر يا أمي. لن أرتكب أي أفعال خطر مرة أخرى.

ـ تعدني.

هزّ رأسه في تسليم وقال:

ـ أعدك.

برقت عيناها وقالت له وهي تمسح على شعره:

ـ إذن. أعطني المُسدس.

ـ أي مُسدس؟

ابتسمت قليلًا وكررت:

ـ أعطني المُسدس يا حسين. نحن نعلم أن معك مسدسًا.

هزَّ رأسه في برود، وقال لها:

ـ حاضر.

في المساء جلس في محل جروبي بوسط القاهرة يحتسي البيرة الباردة مع فتاته المُنبهرة دائمًا ببطولاته عندما سألته بعد أن قصَّ عليها حديثه مع أمه:

ـ هل أعطيتها المُسدس؟

ابتسم وقال:

ـ طبعا يا ميمي.

وأضاف مُفصلًا:

ـ أعطيتها مُسدسًا خربًا احتال أحد البوابين وباعه لـ«محمد» الشهر الماضي.

ضحكت «ميمي» وقرصته في خده الذي اتخذ ملمسًا خشنًا قبل أن تقول بنبرة رضا:

ـ أنت داهية.

ودلق كوبًا مُمتلئًا بالبيرة في جوفه، وقال:

ـ في صحتك.

***

في مكتبه بوزارة الداخلية جلس اليوزباشي «محمد إبراهيم إمام» يُراجع تقريرًا وصله من وكيل الوزارة عن حوادث مُقلقة وغامضة في أماكن متفرقة من أنحاء البلاد، التي صارت غاصة بالمشاغبين والناقمين بعد حصار الدبابات لقصر عابدين.

كان وجهه رائقًا وعيناه ناعستين من كثرة القراءة وبدا وجهه النحيل ممصوصًا من طول السهر، وهو يُقلب بأصابع طويلة أوراق التقرير المُقلق الذي يستثير فئران الرغبة في البحث والاستقصاء لمعرفة قتلة سريين أو مُجرمين غير مُسجلين. ورغم سمته الهادئ وابتسامته المُضيئة كان يعتبر أنَّ مسألة حفظ الأمن وحماية الأرواح مُهمة مُقدسة غير مُلتفتٍ لمبررات غضب وطني نتيجة قهر سلطوي يُمارسه الاحتلال البريطاني في مصر. ناقش الرجل نفسه من قبل مرارًا وخلُص إلى أنَّه خادم للأمن أيا كان المستفيد به، ومُطارد للعُنف أيًّا كان مصدره أو اتجاهه. وعلى مدى سنوات تنقل فيها اليوزباشي الشاب بين قطاعات عديدة بالبوليس وجد نفسه مُنفصلًا عن جميع الأحزاب السياسية القائمة، ومُتصلًا في الوقت ذاته بجميع الزعماء وأصحاب التوجهات بصلات تعاون بما يُحقق الشأن العام.

كان التقرير المعروض عليه قد استعرض أنشطة لجماعات وأفراد معادين للأمن العام بما يُشكل خطرًا لا يجب اتساعه. وذكر التقرير أنَّ حوادث موت مُريب شهدتها منطقة الزيتون لعساكر إنجليز كانوا يسيرون في الشوارع ثُم يسقطون صرعى دون سبب، وبعد تشريح جثامينهم اتضح قيام أشخاص ما بشكهم بدبابيس صغيرة مغموسة في السم وهُم يمرون إلى جوارهم، ثُم يعتذرون في أدب حتى تسري السموم في شرايين الضحايا. ورجح التقرير أن يكون مدبرو الحوادث ضُباطًا بالجيش من أولئك الذين يحملون مشاعر كراهية وعداء شديد تجاه الإنجليز، وبعضهم تم فصله من الخدمة في الشهور الأخيرة بسبب شبهات حول اتصالهم بقوات المحور. وذكر التقرير

كذلك أنَّ تكنات الجيش البريطاني بالإسكندرية تعرَّضت لسلسلة حرائق في ظل اشتعال معارك الصحراء في العلمين ويعتقد أن وراءها تنظيمًا سريًا متطرفًا مواليًا لحزب مصر الفتاة.

وثمة حوادث قتل مُريبة في أسيوط لبعض الموظفين الإنجليز في مديرية الأشغال، إذ لقي مهندس ري بريطاني مصرعه بعد أن أطلق عليه مجهول ثلاث رصاصات في جنح الليل، وبعدها بأسبوع واحد وُجدت جُثة طافية لمهندس أيرلندي في نهر النيل مات طعنًا بسكين حاد، وأغلب الظن أنَّ مجموعة من الشباب المتطرف تحاول استغلال الغضب الشعبي للفت الأنظار.

ووقفت عينا اليوزباشي «إبراهيم إمام» عند حكاية اعتداءات المعادي، حيث تم العثورعلى جثة أومباشي بريطاني مصابة بطلق ناري وعدة ضربات في الرأس والظهر، وبعدها عُثر على جُثة الأومباشي «يونج» مصابة بضربات وكسور في الرأس وطعنات بآلة حادة في العُنق والبطن. ثُم تعرّض الأومباشي «ميللر» لإطلاق نار من سيارة مُسرعة في جنح الظلام لتُصيبه طلقتان في الكتف اليمنى دون أن يتعرف على مُطلق النيران. ويُعتقد أنَّ تلك الحوادث مُتصلة بحوادث أخرى شهدها الحي الهادئ خلال السنوات الثلاث الماضية تمثلت في إحراق سيارات نقل تابعة لمعسكر القوات البريطانية، فضلا عن إشعال النار في نادي الضباط بالمعادي. وتفيد المصادر أنَّ وراء تلك الاعتداءات مجموعة من الشباب المرتبطين بحركة مصر الفتاة.

وتابع اليوزباشي في التقرير نفسه توصية بنقل الضابطين «أحمد فؤاد صادق» و«محمد كامل الرحماني» لميولهما مع دول المحور إلى الصعيد، فضلًا عن التوصية بإبعاد الضابط «محمد أنور السادات» تماما عن الجيش لتكرار اتصاله بالجواسيس الألمان.

قطع حبل أفكاره دخول العسكري المناوب سائلًا في لُطف شديد

إن كان يأمر بشيء ما. نظر بهدوء إلى سجائره والتقط واحدة أشعلها بولاعته الروبنسون التي أهداها له حكمدار العاصمة لتميزه في العمل وقال له:

ـ نعم. قهوة سادة.

ـ تمام يا أفندم.

ردَّ العسكري، ليعود اليوزباشي لأفكاره حول تطورات الأوضاع الأمنية في مصر عقب حادث الرابع من فبراير في العام الفائت.

كانت مصر قد تابعت باهتمام بالغ على مدى عام كامل كيف انقلب تقهقر القوات البريطانية أمام قوات المحور في العلمين إلى انتصارات مُتتالية بفضل حنكة ودهاء القائد البريطاني المارشال مونتجمري، وزاغت قلوب عديدة حسرة على انفلات حُلم التحرر من الاحتلال البريطاني حال هزيمة بريطانيا في الحرب، وفاض الغيظ أنهارًا في نفوس الوطنيين المحسوبين على بعض الأحزاب مثل حزب مصر الفتاة، بينما كان حزب الأغلبية واضحًا ومعتدلًا في موقفه بأن مصلحة مصر تكمن في وفائها بالتزامات معاهدة الصداقة الموقعة سنة 1936. أما جماعة الإخوان المسلمين فلم يكن لها موقف واضح.

قال اليوزباشي «إبراهيم إمام» لنفسه إنَّه على يقين من وجود تنظيم سري خاص مُسلح لجماعة الإخوان المسلمين، لكنَّه على ثقة من أنَّ هذا التنظيم لا يستهدف بأي حال جيش الاحتلال البريطاني، وإنَّه سيظهر يومًا ما لحسم مواقف واستغلال فرص.

وفكر الرجل ذو الجبهة العريضة والأنف الطويل والقسمات الهادئة أنَّ الأيام القادمة ستحمل كثيرًا من الأحداث الخطيرة، التي ستكتبها كُتب وأقلام وصحف ويرويها جيل بعد آخر.

***

اتسـع التنظيـم بـأسرع ممـا توقعـوا. كان مـن الواضـح أنَّ الشـاب الصامـت الخجـول «محمـود يحـي مـراد» يُفكـر بذهـن مُتقـد في الغـد. ويـدو أنَّ غرامـه بالرياضيـات وبالهندسـة دفعـه لوضـع حسـابات دقيقـة حـول مسـتقبل التنظيـم، مـا خطواتـه القادمـة؟ ومـا آليـات اتخـاذ القـرارات فيـه؟ وكيـف يؤمـن ذاتـه مـن ضربـات أمنيـة منتظـرة في حـال سـقوط أحـد أفـراد التنظيـم؟ وقبـل كُل ذلـك مـا توجهـات التنظيـم فكريًـا؟ لقـد كان في حـيرة مـن التبايـن الواسـع في أفـكار ورؤى أفـراد الشـلة حـول الديـن والعلـم والحيـاة. لقـد كان البعـض صوفيًـا زاهـدًا، بينمـا كان آخـرون مسرفـين وعبثيـين، وبـين أفـراد المجموعـة كان هنـاك المنفتـح، اللاهـي، وهنـاك أيضًـا الخجـول، المُنغلـق. كان هُنـاك مـن هـو مُثقـف ومُطلـع، وكان هُنـاك مَـن هـو لا يقـرأ كلمـة.

بعـد شـهور قليلـة مـن انخـراط «محمـود يحـي مـراد» مـع «حسـين» وأصحابـه في عمليـات الاعتـداء عـلى الإنجليز ومنشـآتهم وسـياراتهم شـعر بـضرورة السـيطرة عـلى دفـة التوجيـه لتلـك المجموعـة، خاصـة أنهـا قـد تنفلـت في بعـض الأحيـان بسـبب تهـور رأسـها. ولاشـك أن ابـن عائلـة مُراد كان يعلـم يقينًـا أنَّ كفـة القيـادة تميـل دائمًـا لـ«حسـين توفيـق» بسـبب جرأتـه وقدرتـه عـلى التأثـير في «جـول» و«سـعيد» و«مدحـت»، فضـلًا عـن رضـا ابـن خالتـه «محمـد إبراهيـم» عنـه وموافقتـه لـه في معظـم الآراء. ولـم يكُـن هنـاك بديـل سـوى ضـم أعضـاء جـدد بهـدف انـتزاع القيـادة مـن الشـاب الطائـش الـذي كاد عـلى ظـن «محمـود» أن يوقـع بهـم أكـثر مـن مـرة بسـبب خططـه السـاذجة واندفاعاتـه غـير المدروسـة.

في جلسـة احتضنتهـا غرفـة «محمـود مـراد» بمنزلـه وضمـت أفـراد التنظيـم، طـرح طالـب كليـة الهندسـة بـذكاء ضرورة توسـيع الجماعـة، وضـم أعضـاء جُـدد لديهـم قـدرة عـلى التخطيـط باحترافيـة والتحـلي بالـذكاء والـبرود لتنميـة أعمـال التنظيـم وصـولًا لفكـرة الثـورة الشـاملة كهـدف نهـائي. كان حسـين يومهـا يسـعل بشـدة نتيجـة إصابتـه بـدور بـرد

شـديد، وهـو مـا جعلـه عـلى الرغـم مـن تناولـه قـرص بولمونكـس الفعَّال ضـد نـزلات الـبرد أقـل احتمـالًا لمناقشـات طويلـة مـع أفـراد الجماعـة، لكـن طـرح ابـن عمتـه أثـار لديـه شـكوكا بمحاولـة الإقصـاء أو السـيطرة، لـذا فقـد سـأل بدهـاء عـن الحقـل الآمـن لاسـتقطاب أعضـاء جـدد، ليفاجـأ بإجابـة محمـود القاطعـة:

ـ كلية الهندسة.

استشـعر «حسـين» بجديـة ونيـة للسـيطرة مـن جانـب ابـن عمتـه المنضـم حديثًـا، فسـأل في بـرود:

ـ ولِمَ كلية الهندسة تحديدًا؟

فأجاب المسئول قائلًا:

ـ أولًا لأنّها تضم أناسًا أذكياء بالضرورة، فلا يدخل الكلية شخص غـبي أو تافـه. ثانيًـا لأنـني هُنـاك وأعـرف مجموعـة مـن الشـباب الوطـني الباحـث عـن قاعـدة انطـلاق لخدمـة الوطـن، وثالثًـا لأنّـه مـن اليسـير ضـم مجموعـة متآلفـة معًـا بـدلًا مـن ضـم عنـاصر متفرقـة مـن الـشرق والغـرب.

لـم يُبـد المجتمعـون اعتراضًـا، لـذا فقـد فاجأهـم «محمـود» في اجتماع تـال، شـهده منزلـه أيضـا بضـم ولـد أسـمر مـن أصـل صعيـدي يُدعـى «كريـم القنـاوي»، وآخـر سـمين وضاحـك عـلى الـدوام يُدعـى «عبـاس مُرشـدي»، وثالـث جسـور إلى أبعـد مـدى ولا يكـترث لخطـر اسـمه «محمـد خليفـة»، ورابـع قـوي البُنيـان، ثابـت الخطـوات هـو «محمـد الشـافعي». وردّ «سـيد» بعـد ذلـك ربمـا بتحريـض مـن «حسـين» بضـم أحـد أصدقائـه مـن ذوي الأصـول البدويـة المُتحمسـين للعمـل الفـدائي تمـيز بضخامـة الجثـة والشـجاعة الفائقـة يُدعـى «محجـوب»، وآخـر مُدرسًـا يرتـدي طربوشًـا ويتحـدث بلغـة عربيـة فُصحـى ويتقـدم في السـن قليـلًا عـن بـاقي أفـراد المجموعـة هـو «عبدالهـادي أفنـدي مسـعود». كذلـك فقـد ضـم «حسـين» نفسـه مُدرسًـا آخـر هـو «عمـر أبـو يعـلى».

وكان لابد مع اتساع التنظيم من اختيار قيادة واضحة ومعلنة، لذا فقد اجتمع الشباب في منزل «عبدالهادي مسعود» بمنطقة الظاهر، واتفقوا على وضع اسم للجماعة هو «أبناء النيل»، ثُم اتفقوا بعد ذلك على اعتبار قتل الإنجليز والإضرار بممتلكاتهم الهدف الأسمى للجماعة، ثُم بدأوا مُناقشاتهم لاختيار رئيس لهم، فقال «حسين» مُقترحًا:

ــ أرى أن يكون الاقتراع سريا ويكتب كل واحد اسم مَن يريده رئيسًا في ورقة ثُم نفتح الورق كُله.

رانت حالة من الصمت على الحضور، قطعها «محمد إبراهيم كامل» عندما أخرج علبة سجائر وزّع منها على المشاركين كافة في الاجتماع عدا «عمر أبو يعلى» و«سعيد توفيق»، اللذين لا يدخنان، وقال في حزم:

ــ ولِمَ نُجري اقتراعًا سريًا؟ هل نخاف أو نُحرج من بعضنا بعضا؟ علينا أن نُحدد الآن مَن يُريد الترشح ثُم نُصوّت عليه.

قال «عبدالهادي أفندي» بعد أن خلع طربوشه ومسح بمنديل أبيض ناصية رأسه:

ــ أنا أعتقد بخبرتي السابقة في حزب مصر الفتاة أن نختار أولًا مجلسا استشاريا للمجموعة يتكون من خمسة أفراد تكون مهمتهم اتخاذ القرارات المصيرية على أن يختار الخمسة فيما بينهم واحدًا يترأس المجموعة، وأن نتفق على عدم تنفيذ أي قرار لا يحظى بموافقة أعضاء المجلس الاستشاري كافة.

ــ فكرة سديدة وعملية.

علّق «محمود مراد»، ناظرًا إلى «عبدالهادي أفندي» بنظرة ذات مغزى قبل أن يقرر:

ــ أنا شخصيًا أترشح للمجلس الاستشاري.

ـ وأنا أيضًا.

قالها «محمد إبراهيم» فكرر «حسين» في حزم:

ـ وأنا أيضًا.

ابتسم «نجيب» الذي لاحظ عصبية بادية على وجه «حسين»، فقال:

ـ إذًا حُلَّت القضية. لدينا محمود ومحمد إبراهيم وحسين، وأرى أن نضم إليهم عبدالهادي أفندي باعتباره أكبر الأعضاء سنًا، وأن نضم لهم محجوب باعتباره ممثلًا للبدو، وقادرًا على جلب السلاح بسهولة للجماعة.

ـ موافق.

قالها «حسين»، فردد باقي الحضور كلمات الموافقة، قبل أن يستطرد «نجيب»:

ـ وأرى وقد انتهينا من تشكيل المجلس الاستشاري أن يتم اختيار «عبدالهادي أفندي» بحكم عمله السياسي السابق وبحكم أنَّه الأكبر سنًا رئيسًا للجماعة.

ـ أشكرك على ثقتك.

قالها «عبدالهادي أفندي»، فبارك بعض الحاضرين ليشعر «حسين» بحجر صلت أسقطه ابن خالته «نجيب» فوق رأسه من علٍ. طعنة لم يتوقعها، وتطور لم ينتظره، ونظرات شماتة لم يقرأها من قبل في عيني ابن خالته.

حاول «حسين» أن يبدو مُتماسكًا وموافقًا لرأي الأغلبية الذي أقصاه واختار عضوًا جديدًا في محل القيادة، أمَّن على الاختيار بهزِّ رأسه سليمًا ثُم قال للقائد الجديد:

ـ قُل لي يا عبدالهادي أفندي باعتبارك عضوًا عاملًا في حزب مصر الفتاة. هل يختلف أحمد حسين كثيرًا عن مصطفى النحاس ومحمود

فهمي النقراشي؟

هزَّ المسئول رأسه يمينًا ويسارًا وقال في صراحة:

ــ إطلاقًا. أحمد حسين مُخادع وتاجر كلمات فقط. والنحاس لا يريد من الحياة سوى لقب الزعيم الجليل.

ــ وحسن البنا؟

سأله «عمر أبو يعلى» فأجاب مبْتسمًا:

ــ راسبوتين الشرق. نصاب يحفظ كتاب الله.

ثُم قال كمن يوجه تلاميذه:

ــ أفضل شيء لنا أن نكون مُستقلين عن كُل هؤلاء المُخادعين. لو نظرتم إلى الوفد ستجدونه لا يبحث عن شيء سوى السُلطة حتى لو كانت عبر جسور دولة الاحتلال، ولو تابعتم الإخوان ستجدونهم يعبدون قادتهم ويقدّسونهم أكثر مما يقدّسون نبي الإسلام، أما الشيوعيون فهُم مجموعة من السُذج الذين يتخيلون أنهم قادرون على إشعال الثورة من خلال المنشورات التافهة التي يوزعونها. أعتقد أنه لا خلاص دون سلاح، ولا تقدم دون تضحية، واستعداد حقيقي لخوض غمار الخطر.

خطيب بارع. علّق «حسين» دون صوت، بينما ابتسم محمود يحيى مُعتقدًا أنَّ التنظيم الذي كان يطمح لقيادته اختطف من شخص خارج دائرة التوقعات. ابتسم مُتحفزًا، وسأل الرئيس في اهتمام ظاهر:

ــ والآن. ما المُهمة القادمة؟

برقت عينا «عبدالهادي أفندي» اهتمامًا وقال بنبرة تحدٍ:

ــ سنسرق نُزل خُبراء وزارة الأشغال الإنجليز في مصر الجديدة.

ــ نسرق؟

سأل «حسين»، فأجاب «عبدالهادي»:

ـ نعم وبسرعة. نحن نحتاج أسلحة وما تدّخرونه من مصروفكم لا يفي بشراء الأسلحة.

ثُم أضاف بحزم:

ـ مفهوم؟

ـ مفهوم.

قالها أكثر من واحد، قبل أن يستمعوا لخطة السطو على استراحة مُهندسي المياه الإنجليز، التي زارها «عبدالهادي» عدة مرات بصحبة أحد أقربائه العاملين في الري.

***

لم يكُن «عبدالهادي أفندي» يدري وهو يدلُف إلى بار بيلي بباب الشعرية أنَّ هُناك خُطى تتبعه. سار مُنتشيًا بالنجاح، وهو يُردد في سرّه بيت شعر طالما أحبه يقول «دعيني للغنى أسعى فإني.. رأيتُ الناسَ شرُّهم الفقيرُ». جلس مكومًا جسدًا مُترهلًا بانت عليه السمنة على كرسي خشبي بسيط يختبئ تحت ترابيزة رخامية مُستطيلة، عندما ألقى عليه النادل تحية المساء واضعًا طبقين أحدهما من الترمس المُملح والآخر من الخيار المخلل أمامه. سأله النادل بعد أن منحه ابتسامة ترحيب مُعتادة إن كان يطلب مثل كل مرة كونياك، فجاءه الرد بالنفي مُرددًا:

ـ ويسكي يا خواجة. ويسكي.

فُرجت، هكذا قال «عبدالهادي أفندي» في سره، وهو يتأمل نوافذ البار الزجاجية ذات الطراز الأوروبي مُشرعة من الداخل. ستتبدد أيام الشقاء وسترحل ليالي الحرمان، وستهنأ بما لم تنل رغم قدراتك ومهاراتك. أنت تستحق الصدارة والثراء. لقد خلقت للقيادة.

نظر «عبدالهادي أفندي» حوله للجالسين يمينًا ويسارًا يُدخنون في قرف ويشربون بيرة وكونياك ونبيذًا رديئًا يتناسب مع ثيابهم الرثة ووجوههم العابسة، مُقررًا أنَّ مثل هذا المكان لم يعُد يليق به بعد أن صار زعيمًا لأكبر مُنظمة سرية. قبلها وعلى مدى عشر سنوات تنقل بين حزب وآخر والتقى صنوفًا متناقضة من ذوي الأفكار السياسية، واختلط بُخطباء مفوهين، وعرف دُهاة وساسة وشعراء وصعاليك وظرفاء ومحتالين.

وضع النادل زجاجة ويسكي بلا لون أمامه وكوبًا مُلمعًا، صبَّ فيه حتى آخره، قبل أن يقول:

ـ أفضل ويسكي لعبدالهادي أفندي. سكوتش أيرلندي مُعتق.

ـ شكرًا.

هزَّ رأسه، وهو يفكر كيف كانت سنوات الحرب صعبة، وكيف بقي بلا وظيفة لأكثر من عامين قبل أن يلتحق بمدرسة المُعلمين بالعياط راضيًا براتب هزيل لا يتجاوز ثلاثة جنيهات والنصف في الشهر، مرَّ بخاطره كيف عرف من جاره محجوب بأمر الجمعية التي تستهدف مقاومة الاحتلال والتي ينفق عليها شباب ثري يفيض بالحماس والجرأة. دلق كوبًا من الويسكي في جوفه فشعر بلسعة الشراب الساحر الذي حرمه الفقر منه سنين، وتذكر كيف نفذ الأولاد عملية سرقة نُزل خبراء الري الإنجليز بمصر الجديدة دون ذرة خطر. لقد تحركوا كما رسم لهم تمامًا في الصباح الباكر، حيث قاموا بإلهاء الحارس من خلال دعوته للمشاركة في تغيير عجل سيارة يقودها محمد إبراهيم، وإلى جواره مدحت، عندما تسلل حسين ومحجوب ومحمود مراد وسعيد وسيد وكريم إلى الداخل ليسرقوا دواليب المهندسين في خمس عشرة دقيقة فقط ويعودوا دون اشتباك. كانت حصيلة العملية خمسين جنيهًا وثلاثين قرشًا وثلاث زجاجات نبيذ، وساعة يد ماركة جيني وثلاثة أقلام حبر ماركة كروكسلي، وقلم حبر

مونيمـور، ودبوسًـا ذهبيًـا عـلى هيئـة علـم بريطانيـا وشـفرات حلاقـة جيليـت وعلـب أقـراص اسـبرو، واسـبيول.

استطاع «عبدالهـادي» إقنـاع أفـراد التنظيـم بـضرورة منحـه الغنائم حـتى يتمكـن مـن بيعهـا وشراء قنابـل يدويـة عـن طريـق أحـد أقـارب «محجـوب» الذيـن يعملـون في الإسـماعيلية في خدمـة الجيـش البريطـاني. قـال لهـم إن القنابـل ضروريـة لتنفيـذ سلسـلة مـن العمليـات الفدائيـة خـلال المرحلـة القادمـة. وقـرر الرجـل ذو الوجـه العريـض، والطربـوش المُنتفـخ أن يسـتمتع ولـو لأيـام قليلـة بحيـاة عبـث ولهـو كان يحلُـم بهـا لسـنوات طويلـة دون تحقيـق تحـت وطـأة الفقـر والعـوز.

فكَّـر المُـدرس العابـث في زيـارة ضروريـة لعوامـة ثُريـا بإمبابـة، حيـث الراقصـات البدينـات الـلاتي عـاش عمـره عاشـقًا لهـنَّ. كان يـرى اهـتزاز الخـصر مُنشـطًا للقلـب وطـاردًا لرائحـة الحُـزن منـه. حـدَّث نفسـه بـأنَّ الفاتنـة تحيـة ذات العُنـق الطويـل والجسـد الخمـري الممشـوق والعينين الوقحتـين تسـتحق زجاجـة كولونيـا الشـبراويشي هديـة لهـا حـتى يهنـأ بأحضـان دافئـة وفـراش مُشـبع. شرب كوبًـا آخـر وردد مُترنمًـا بأغنيـة «محلاهـا عيشـة الفـلاح» للمطربـة المُبهـرة أسـمهان، بينمـا كانـت هنـاك في ركـن البـار عينـان صاحيتـان تُتابعانـه بترقـب وغضـب. قـال صاحـب العينـين لنفسـه «الويـل للخونـة يـا عبدالهـادي. سـتموت». رددهـا بينمـا كان صـوت «عبدالهـادي» الغليـظ يُردد في نشـوة: «محلاها عيشـة الفلاح.. متطمـن قلبـه مرتـاح.. يتمـرّغ عـلى أرض بـراح.. والخيمـة الزرقـا سـاتراه..».

شـعر صاحـب العينـين الصاحيتـين بالاسـتياء وتذكـر نصيحـة «محمـد إبراهيـم » و«حسـين » و«مدحـت» لـه بـأن يسـيطر عـلى أعصابـه، وتذكـر أيضـا مقولـة معلمـه الأول نيتشـة القائلـة «لا تمـشِ في طريـق مـن طـرق الحيـاة إلا ومعـك سـوط عزيمتـك وإرادتـك لتلهـب بـه كل عقبـة تعـترض طريقـك».

«خائـن. خائـن. خائـن» رددهـا وهـو يكبـت مشـاعر مُنفلتـة تـكاد تذبحـه

مُتذكرًا كيف بدأ سوس الشك ينخر قلوبهم بعد العملية مباشرة. أخبرهم «حسين» بأنَّ «عبدالهادي» سرقنا، وتأكدوا من محجوب عندما قال لهم بأنَّ الرئيس المختار لم يدفع نظير ثلاث قنابل سوى عشرة جنيهات، وأنَّه ماطله في دفع ثمن مسدسين جديدين جلبهما قبل يومين. وقتها قال حسين مُستعيدًا دور القائد المُحنَّك:

ـ سنُراقبه حتى يسقُط. لكن بهدوء.

قام المُكلف بالرقابة بكسل مُدعيًا السُكر وهو على يقين أنَّ «عبدالهادي أفندي مسعود» لن يشعر أن كُل تحركاته وأفعاله تحت رقابة ثعلب صغير اسمه «محمود يحيى مراده. ثعلب يعلم أنَّ العُمر يستحق المُغامرة، وأنّ الكون بلا أخلاق. دفع الحساب مُعطيًا ظهره للأفندي، ومضى مُلتقطًا بأذنه بقايا الأغنية التي غنتها أسمهان: «دي القعدة ويّا الخلان.. والقلب مزقطط فرحان.. تناقلها بجنة رضوان.. يا هناه اللى الخل معاه».

وخرج «محمود» راميًا الرئيس المختار للتنظيم بنظرة وعيد.

***

في حجرة «عم عثمان الجنايني» جلسوا يتشاورون فيما سيفعلون مع «عبدالهادي أفندي مسعود». شرح «حسين» للحضور خطورة الوضع، وحكى «محمود مراد» كيف تابع الرجل، وهو يقوم بتبذير غنائم سرقة الإنجليز على الخمر والعاهرات، وشهد «محجوب» بمماطلة الأفندي في دفع ثمن المُسدسين الجديدين حتى اضطر للاستدانة من شقيقه الأكبر لسداد القيمة للبائع.

كانت العصبية بادية في حديث المُجتمعين العشرة والذين اتفقوا جميعًا في التدخين بشراهة، عندما قام «مدحت» مُشهرًا مُسدسه

وهـو يقـول في جـرأة:

ـ سأقتله.

وكرر:

ـ لا جزاء للخائن سوى القتل.

ـ قتل؟

غمغم البعض، فأكد مرة أخرى:

ـ نعم، ليس أمامنا حل سوى قتله.

ران صمـت غريـب تخللتـه نظـرات مُتبادلـة بـين وجـوه الحاضريـن، وسرحـت خيـوط الدُخـان في فضـاء الحجـرة راسـمة قلقًـا ظاهـرًا، لـم يلبـث أن قطعـه «حسـين توفيـق» قائـلًا بثبـات:

ـ لا يا مدحت. لن نقتله.

استغربوا رأيـه. كان ينبغـي أن يكـون أكـثر حسـمًا خاصـة أنَّـه انـتزع منـه القيـادة. فكـر «محمـود مـراد». ليـس هـذا مُعلـم العُنـف والمُبـشر بالكراهيـة. ردَّد «سـعيد» في سرّه، وهـو يتذكـر كيـف علمـه قتـل الخـوف عندمـا خنـق قطتـه. مـاذا يريـد بنـا؟ سـأل «محمـد إبراهيـم» نفسـه ليجيبهـم «حسـين» وكأنَّـه يسـمعهم:

ـ نحـنُ لـن نقتلـه لأنَّـه لا يسـتحق القتـل، بـل هـو يسـتحق بالطبـع لأنه خائـن. سرق أمـوال الوطـن لحسـابه وألقـى بهـا تحـت أفخـاذ الراقصـات والعاهـرات. نحـن لـن نقتلـه لأن قتلـه قـد يُسـبب لنـا مشـكلات عديـدة، أولاً لأنَّ كثيريـن رأوا بعضًـا منـا عندمـا كُنـا نـزوره في بيتـه، وثانيًـا لأنَّـه جـار محجـوب في السـكن وقـد تحـوم الشـكوك حـول محجـوب. وثالثًـا لأنَّـه شخص عبيـط يسـهل التخلـص منـه دون دمـاء.

أشرق وجه «محجوب» بطمأنينة الرضا، قبل أن يسأل مدحت:

ـ وكيـف سـنتخلص منـه دون قتـل؟ لقـد صرنـا بالنسـبة لـه كـنزًا ثمينًـا، بقرة حلـوب تـدر لبنًـا. نحـن ننفـذ أوامـره ثـم يسـطو عـلى مـا نأخـذ، لـذا

لا أعتقد أنّه سيفرّط فينا بسهولة.

فكر «محمد إبراهيم» قليلًا وقال:

ـــ معك حق. لابد أنّه يرانا وقد تجاوز الثلاثين من عمره مُجرد مجموعة من الأولاد الأشقياء المُدللين الباحثين عن أي مغامرة. وربما يتصور أنه قادر على استغلالنا والتربح من حماسنا للوطن.

ردَّ «سيد» قائلًا:

ـــ أنا على استعداد لأخلصكم منه، خاصة أنني كنت وراء ضمه للتنظيم.

نفثَ «حسين» دُخان سيجارته بعصبية، ما لبث أن سيطر عليها مرة أخرى، وردَّ وهو ينطق كلماته كلمة كلمة:

ـ قُلت لكم إننا لن نقتله.

وعلا صوته قليلًا، وهو يردد بنبرة لوم:

ـــ حاولوا أن تسمعوا ما أقوله لمرة واحدة. سنتخلص منه ببساطة شديدة، وللأبد، واليوم إن أردتم.

نقرت عصافير الدهشة فوق رؤوسهم، وانتظروا بشوق خطة «حسين».

ـ كيف ذلك؟

سأل «محمود مراد» وأمامه ورقة وقلم يُشخبط به، فأجابه «حسين» الذي رانت على وجهه مرة أخرى سمات القيادة:

ـــ الموضوع ببساطة أننّا سنعقد اليوم اجتماعًا للتنظيم في بيت عبدالهادي أفندي، وسيكون غرض الاجتماع مناقشة العملية القادمة والتي سيقترح أحدنا أن تكون سرقة مصرف الخواجة موصيري بوسط البلد. سأقدم أنا الخطة ومعها التفاصيل كاملة وسيرفضها محمد إبراهيم، ويعتبرها ساذجة، ثُم سيشتمه محمود مراد ويتهمه بالخيانة، وهُنا سيشهر مدحت مسدسه مُتوعدا محمود بالقتل إن

كـرر كلمـة خيانـة مـرة أخـرى، وسـيقوم سـيد بتهديـد الجميـع بإبـلاغ البوليـس، في الوقـت الـذي سـيطلب فيـه محجـوب حقـه في العمليـة السـابقة، وسـيغادر كريـم ومحمـد خليفـة والشـافعي غاضبـين، وسـأعلن أنـا وقتهـا حـل التنظيـم تمامًـا، وسـننفض وكأنّ كُل شيء انتهـى.

ابتسـم «محجـوب»، وصفّـق «محمـد إبراهيـم»، بينمـا قبّـل «مدحـت» رأس ابن خالتـه في امتنـان ظاهـر وهـو يقـول:

ـ برافو.

دخل نجيب في الحديث رغم عدم اهتمامه في السابق قائلًا:

ـ أهنئـك يـا حسـين. لأول مـرة تُفكـر بوعـي وتُخطـط بحنكة. أنـت تصلُح للقيـادة. لقـد أخطأنـا جميعًا.

ـ نعم.

كـرر الحضـور تأمينهـم، وانفضـوا سريعًـا عـلى موعـد باللقـاء ليـلًا، بعـد أن طلـب «حسـين» مـن «محجـوب» أن يُخـبر «عبدالهـادي» أنَّهـم سـيمرون عليـه في العـاشرة مسـاء.

غـادروا سُـعداء، بينمـا جلـس «حسـين» يُفكـر بجديـة في مسـتقبل التنظيـم. سينمو وسـيكبر ويتـولى قيـادة الأمـة بعـد خلـع الملـك الطفـل. رأى حُلمـه مُتخيـلًا مشـانق منصوبـة في ميـدان الإسـماعيلية يتـدلى منهـا «إسـماعيل صـدقي»، «النقـراشي»، و«أحمـد ماهـر»، و«أحمـد حسـين»، و«حسـن البنـا»، ثُـم أضـاف لهـم «النحـاس باشـا».

صعدا غرفتهما، ليقول «سعيد» لـ«حسين»:

ـ سمعت مامـا تقـول لبابا إنَّها ستشـتري لـك كلبًا بوليسـيًا هديـة عيـد ميلادك القـادم. آمـل ألا تقتلـه.

فرح «حسين» وظهر ذلك على وجهه، وقال لشقيقه:

ـ لا تخف. سنستخدمه في نضالنا.

فكر سعيد قليلا، ثُم سأل:

ـ هل تعتقد أنَّ والدنا يعرف ما نفعل؟

ـ طبعًا.

ـ كيف يسكت على ذلك؟

ـ لأنَّه يعلم أننا على صواب، وأننا نكرر ما عجز هو عن تحقيقه. لقد كان مثلنا عندما كان في السن نفسها.

هزَّ «سعيد» رأسه قائلًا:

ـ معقول. معقول.

في اللقاء المسائي جرت الخطة كما أراد «حسين»، وسرت الرعشة واضحة في جسد «عبدالهادي أفندي» عندما شهر «مدحت» مسدسه مُهددًا «محمود مراد» بأنه سيضربه بالرصاص إن كرر وصفه لـ«محمد إبراهيم» بالخائن، وصاح في الشباب:

ـ استهدوا بالله. يا شباب. كُلنا إخوة.

هبَّ «سيد» واقفًا وهو يُردد بصوتٍ عالٍ:

ـ أنا أرفض هذه الأعمال، سأبلغ البوليس عنكم.

وردَّ «حسين» بنظرات كُلها شرر قائلًا:

ـ أنت تحفر قبرك بيديك.

وعلا صوته قائلًا:

ـ سنقتلك إن خرجت كلمة مما نفعل أو نقول لأحد.

حاول «عبدالهادي» السيطرة على الوضع صارخًا:

ـ كفى طيشًا. كفى هُراءً. كفى لعب عيال.

وقام «محمد إبراهيم» مُمسكًا بياقة قميصه صارخًا:

ـ لسنا عيال يا هذا.

ـ احترم رئاستي لـ..

ـ اخرس.

وفوجئ صاحب البيت بـ«محجوب» يصرخ فيهم:

ـــ سأفارقكم. أعطوني حقي في العملية الأخيرة. لن أشاركم بعد الآن.

نظروا إلى «عبدالهادي»، فوجدوه مُضطربًا وهو يُكرر:

ـــ ستخسرون التنظيم، وستشمتون فيكم الإنجليز، وأعوانهم من الخونة.

وقام كريم وخليفة والشافعي ومعهم مدحت وفتحوا الباب بعنف مُتظاهرين بالغضب بعد أن ركلوا في طريقهم كُرسيًا ومنضدة صغيرة، وتبعهم حسين صائحًا:

ـــ اسمعوا كلكم. لن أقبل لعب الأطفال مرة أخرى. اعتبروا التنظيم حل نفسه بنفسه. انتهى كُل ما بيننا كأن لم يكن.

ـ انتظر.

هتف به «عبدالهادي» لكنَّه كان حاسمًا وحادًا، وخلفه غادر «محمد إبراهيم»، و«محمود مراد»، و«سيد»، و«سعيد» وهُم لا يُعيرون صاحب البيت أي اهتمام وهو يصرخ فيهم طالبًا الانتظار.

في الطريق وعلى بعد خطوات من المعبد اليهودي، قال «حسين» في هدوء يليق بسياسي مُنتصر:

ـ انتهينا منه. شربها المُغفل.

ـ نعم.

قالها محمد إبراهيم مُثنيًا، فكرر حسين:

ـ دون أي دماء.

ومشوا فرحين ليحتفلوا بعيد ميلاد حسين التاسع عشر في جروبي.

***

أمطـرت شـوارع المعـادي رصاصًـا. غضبًـا، غِـلًا ضـد كُل قلـب أجنـبي ينبُـض عـلى أرض الوطـن، ذلـك المسـلوب والمصلـوب ردحًـا مـن الزمـن، مُشـتتًا بـين صراعـات الساسـة والباشـاوات، ومُدنسًـا تحـت ظـل طفولـة وعبـث ملـك سـاذج لا يملـك مـن أمـره شـيئًا. كان شـباب المعـادي كُلّـه ناقمًـا عـلى تجـول العسـاكر الإنجلـيز في الشـوارع سُـكارى كُل ليلـة فرحًـا بانقشـاع خطـر روميـل ومـن معـه، وبـين الشـباب كان «حسـين» ومـن معـه يصلـون قتيـلًا بآخـر، ويتبعـون ضحيـة بضحيـة باحترافيـة شـديدة اكتسـبوها نتيجـة حُسـن تدبيرهـم وتماسـكهم وتغيـير سـيناريوهاتهم باسـتمرار. وفي أوج النشـاط ومـع انخـراط «كريـم» و«خليفـة» و«الشـافعي» و«عمـر» و«سـيد» و«محجـوب» في عمليـات القنـص عـن بُعـد شـعر «حسـين» برغبـة شـديدة في تطويـر مجـال العمليـات ونقلهـا إلى مناطـق متفرقـة مـن العاصمـة، خاصـة بعـد أن أبلغهـم «عُمـر أبـو يعـلى» مُـدرس اللغـة الفرنسـية أنّـه علـم مـن شـقيقه ضابـط البوليـس أنَّ الإنجلـيز رصـدوا ألـف جنيـه مكافـأة لمـن يُـدلي عـن معلومـات حـول القتلـة السريـين لعسـاكرها في المعـادي.

كان «حسـين» يـرى أنَّ أبـرز رد عمـلي عـلى ذلـك هـو أن يتـم تنفيـذ سلسـلة مـن عمليـات القتـل العشـوائي بمناطـق أخـرى لتشـتيت انتبـاه البوليـس، لـذا اختـار هـو بـار ماتوسـيان ببـاب اللـوق لاصطيـاد ضحيـة جديـدة، بينمـا قـرر «محمـود يحـيى مـراد» قتـل أحـد العسـاكر الإنجلـيز الخارجـين مـن ملهـى ليـل القاهـرة بشـبرا، وذهـب «محمـد إبراهيـم» إلى حُلـوان للبحـث عـن فريسـة، في حـين تـم تكليـف «سـيد» و«محجـوب» و«مدحـت» بإشـعال النـار في سيارات الجيـش البريطـاني في قليـوب.

في بـاب اللـوق وقـف «حسـين» لأكـثر مـن سـاعتين دخّـن خلالهـا ثمـاني سـجائر رويـال مُنتظـرًا ضحيـة مُناسـبة حـتى لمـح ضابطًـا أربعينيًـا يميـل إلى السـمنة يخـرُج مـن البـار مُتثاقـلًا، فتبعـه في خفـة، تـاركًا مسـافة عـشر خطـوات فاصلـة. كان «حسـين» قـد تمـرّس عـلى إطـلاق الرصـاص عـلى

البطن مُباشرة باعتباره المكان الأسهل في الإصابة خلال حركة الجسم، خاصة بعد أن أثبتت له التجارب العملية أن التصويب على الرأس كثيرًا ما يخيب. نظر «حسين» في ساعته فلمحها تقترب من الواحدة صباحًا ودارت عيناه في الشارع لتجده خاليًا إلا من شحاذ عجوز يجلس تحت أحد أعمدة الإنارة. قدر أنّ الناصية القادمة هي الأنسب لإطلاق الرصاص نظرًا للعتمة الطاغية على المكان المحيط بالتقاطع. سعل الضابط الإنجليزي سعلتين مكتومتين وبدا مُطمئنًا تمامًا وهو يُدندن في خدر يُليق بيوم عُطلته الأسبوعية، عندما انسحبت كف «حسين» سريعًا من جاكتته مُمسكة بمُسدس أوتوماتيكي متطور، ثُم مدّ خطواته بسرعة مُتجاوزًا الضابط ببضعة أمتار ليتوقف بعدها ويستدير مواجهًا ضحيته ليقرأ في عينيه هلعًا نادرًا قبل أن تضغط سبابته على زناد المسدس مُطلقًا على بطن فريسته رصاصتين مُتتاليتين ثم مانحًا بعدها ساقيه عنان الركض دون توقف.

من شارع لآخر توارى قبل أن يستقل تاكسيًا نحو منزل عُمر بالجيزة ليلتقي هناك مع زملائه، حيث أخبره «محمود» أنه نجح في إطلاق الرصاص على جنديين في شبرا لكنه يشك في موتهما، بينما قصّ «محمد إبراهيم» تجربته حيث تجوّل عدة ساعات في شوارع حلوان دون العثور على ضحية مُناسبة. أما المجموعة المُكلفة بإحراق سيارات قليوب فلم تعُد حتى الصباح مما أثار القلق بين أفراد التنظيم، وقرروا العودة إلى منازلهم مُنتظرين ما تُسفر عنه الساعات التالية.

فور عودته إلى البيت فوجئ «حسين» بـ«عم عثمان الجنايني» مُخبره السري يقول له إن عسكريا من قسم البوليس جاء صباحًا وسأل عنه وطلب إبلاغه ضرورة الذهاب لمأمور القسم في الثانية عشرة. لم تمض دقائق على الخبر حتى دخل عليه «نجيب» ليخبره أن «مدحت» و«سيد» و«محجوب» قُبض عليهم ليلًا بقليوب

وبحوزتهم مواد سريعة الاشتعال، وأنّ والدته لا تعلم أي شيء حتى اللحظة.

امتص «حسين» ببرود قلق ابن خالته، وربت على كتفه قائلًا:

ـ اذهب إلى عُمر الآن وأخبره. سيتصرف.

ـ وأنت؟

سأله «نجيب» بغضب، فأجاب مُبتسمًا:

ـ أنا مطلوب في قسم البوليس.

أطلّ الخوف من عيني «نجيب» وسأل محاولًا تمالك أعصابه:

ـ وأنت. ماذا ستفعل؟

ـ لا تقلق.

وغادر «حسين» بعد أن سكبَ نصف زجاجة كولونيا فوق بذلته السوداء ومعه «عثمان الجنايني»، الذي سأله عن «سيد» فكرر كلمتي «لا تقلق». استقلا تاكسيًا إلى القسم وسخر قلبه من إيمان «عُثمان الجنايني» وهو يردد طيلة الطريق الدعاء بحق السيدة زينب أن تأتي العواقب سليمة. وصلا فسأل حسين عن المأمور، ثُم بُخطى واثقة دخل إلى مكتبه بعد إشارة من الشاويش ذي الجسد الضخم الذي استقبله فور دخوله. وجد أمامه شاربًا طويلًا مُتدليًا على فم غليظ الشفتين مزروعًا في وجه مُربع غامق البشرة يُدخن بشراهة كمدخنة مصنع فحم. لمحه واقفًا فسأله:

ـ من أنت؟

ـ حسين توفيق.

رماه بنظرة مُتفحصة من أسفل لأعلى والعكس، ثُم سأل:

ـ ماذا تُريد؟

ابتسم «حسين»، وجلس مُستفزًا مأمور القسم قبل أن يجيب:

ـ أنا لا أريد شيئًا، لكن هُناك استدعاء لي.

تفرّس المأمور ذو الوجه المُتجهم في الولد الجالس أمامه وصاح فيه:

ـ قُم. مَن سمح لك بالجلوس؟ أنت ابن توفيق بك محمد، أليس كذلك؟ لكن من الواضح أنك ولد مُشاغب.

وقف «حسين» صامتًا ليدفع السائل للتورط في سكب كُل ما لديه من أفكار ومعلومات.

ـ أين كُنت في الواحدة صباح الأمس؟

سأله المأمور، فأجاب:

ـ في فراشي.

ـ في بيتكم؟ ممم. هل لديك شهود على ذلك؟

ابتسم «حسين» وقال بثقة:

ـ طبعًا.

ـ مَن؟

ـ عم عثمان الجنايني وشقيقي سعيد.

ونظر للواقف على باب حجرة المأمور وقال:

ـ ادخل يا عم عثمان.

دخل ذو الجلباب الأبيض، ليُقر بأنّ «حسين بك» وصل البيت الثانية عشرة مساء وصعد إلى غرفته في البيت ولم يهبط منها إلا في السادسة صباحًا موعد تريُضه.

نظر المأمور بتشكك إلى «حسين» المُصمت من التعبيرات كلوح ثلج، وسأله:

ـ أين والدك؟

ـ في أسوان. في مهمة عمل.

واصل المأمور تدخينه الشره ثُم قال:

ــ أبلغــه ســلامي وتحيــاتي. ولا تعبــث في الشــوارع لئــلّا حــتى لا تُثــير الشــبهات.

ثُم بحزم:

ــ انصرف.

بعــد عودتهما،عــرف «حســين» مــن «ســعيد» أنّــه لا توجــد أي تُهــم واضحــة تــم توجيههــا إلى مدحــت وســيد ومحجــوب، وأنّــه تــم الإفــراج عنهــم عندمــا ذهــب عُمــر أبــو يعــلى لهــم بعــد أن اتصــل بشــقيقه الضابــط ليتدخــل مؤكــدًا أنهــم طلبــة مجتهــدون، وينتمــون لعائــلات محترمــة، وســأل ســعيد عــن أخبــار ضحايــا الأمــس، فأجــاب:

ــ الضابــط الإنجلــيزي الــذي ضربتــه أنــت اســمه هتــش ونقلــوه إلى قــصر العيــني وحالتــه خطــيرة جــدًا، أمــا الجنديــان اللــذان ضربهمــا محمــود مــراد في شُــبرا فــلا توجــد بشــأنهما أي معلومــات ولا توجــد أنبــاء عــن تعــرض أحــد لاعتــداءات.

ــ هل تعتقد أنه يخدعنا؟

سأل «حسين»، فأجابه شقيقه وكأنه ينتظر السؤال:

ــ لا يــا حســين. أعتقــد أنّــه أطلــق الرصــاص في الهــواء كمــا يفعــل كُل مــرة ثُــم جــرى.

وقف «سعيد» فجأة كمن تذكر شيئًا ثُم قال:

ــ الغريــب يــا أخــي أن هنــاك جنديــين إنجليزيــين قُتــلا في صحــراء العباســية قبــل يومــين.

ــ وما الغريب في ذلك؟

سأل «حسين»، فأجاب «سعيد» بسؤال:

ــ مَن قتلهما؟

ابتسم «حسين» وأراح ظهره على المقعد مُسترخيًا، وقال:

ـ هُناك جمعيات عديدة مثلنا، وهُناك شباب وطني آخر يعمل بجد وفدائية في مقاومة الإنجليز.

ثُم قام مُتمشيًا في الغرفة قبل أن يسأل:

ـ هل سمعت عن الحاج محمد؟

هزَّ «سعيد» رأسه بالنفي، فأخرج شقيقه سيجارة أشعلها بسرعة، وقال:

ـ واحد من الأبطال السريين، اسمه محمد أنور السادات وكان ضابطًا بالجيش وعمل مع عزيز المصري قبل أن يطرده النحاس باشا، وسأقابله بعد غد.

عقدت الدهشة حاجبي سعيد، فسأل:

ـ كيف عرفته؟ وأين ستقابله؟

ـ حكى لي عنه عمر أبو يعلى، لأنَّه صديق شقيقه ضابط البوليس. وطلبت منه مقابلته، وأخبره، فحدد لي موعدا في محل آلامريكين بعماد الدين.

وسحب نفسًا طويلًا من سيجارته وزفره قائلًا:

ـ هو شخص خطير جدًا، ومُهم لنا. سنستغله في الحصول على أسلحة ومعلومات تفصيلية عن العدو.

***

ساعة كاملة انتظر نصفها قبل الموعد المُحدد والنصف الآخر بعده ولا أحد بان. الْتهمه الملل وافترسته علبة سجائر كاملة وهو مُتطلع للقاء شخصية أسطورية سمع عنها حكايات مُثيرة كم تمنى

أن يكـون هـو بطلهـا. وحـده والصمت وسـط مقاعـد وطـاولات خاليـة إلا مـن سـيدتين تتنـاولان إفطـارًا خفيفًـا بأحـد الأركان. تخيّـل «حسـين» جليسـه المُرتقـب رجـلًا بـلا ملامح واضحـة، تفيض عينـاه فزعًـا وهيبـة، ولا يطـرف لـه هُـدب، ولا يعـرف يأسًـا أو انهزامًـا.

طلـب قهـوة ثانيـة، وهـو يتطلـع إلى شـارع عمـاد الديـن حيـث تسـير عربـات وشـباب وأفنديـة لهـم ألـوان وملابـس شـتى. قلـوب مُبعـثرة، وعيـون مُتعبـة تمُـر في صخـب نهـار ربيعـي صعـب رغـم زوال خطـر الحـرب عـن القاهـرة. تذكـر أنَّ «ميمـي» هاتفتـه صباحًـا لتلومـه عـلى غيابه عنهـا أيامًـا طويلـة، ممـا اضطـره أن يعدهـا اللقـاء مسـاءً رغـم ضيـق الوقـت. قـال لنفسـه إنَّ النسـاء لا يشـغلهن في الغالـب سـوى العنـاق والقبـلات والفسـاتين وأدوات الزينـة، وإن ذكـروا غـير ذلـك. كـم ذكـرت لـه «ميمـي» أنَّهـا غاضبـة مـن تجـبر الاحتـلال وخيانـات الكبـار، وأنَّهـا تـود مثلـه لـو تُسـوي بالإنجليـز وأعوانهـم أرض المحروسـة، لكـن كان باديًـا أنَّ كلامهـا لا يتجـاوز حلقهـا وأنَّهـا تقولـه لتُرضيـه. لا حُـب ولا رومانسـية في هـذا العالـم الوحـشي ومَـن لا يعيـش كقابيـل سـيحيى مُرغمًـا كهابيـل.

رشـف مـرار قهوتـه مُسـتعذبًا وهـو يكتـب في ذهنـه مفاتيـح كُل شـخص مـن أفـراد تنظيمـه. كان يُراجـع وهـو جالـس اسـتعدادات وسـمات رفاقـه ليُعيـد اسـتخدامهم في خططـه المُسـتقبلية. فكـر أنَّ «محمـد إبراهيـم كامـل» مُخلـص لكنـه مُتأنـق ومُعتـدّ بنفسـه، أمـا «محمـود مـراد» فهـو نيتشـوي وعنيـف ومُتهـور كثـيرًا، و«سـيد» طيـب ومُخلـص وتابـع، أمـا «محجـوب» فقـوي وشـجاع و...

وانقطعت أفكاره عندما اقترب منه النادل سائلًا:

ـ أستاذ حسين؟

هزَّ رأسه بالإيجاب، فأشار سائله إلى التليفون قائلًا:

ـ تليفون لحضرتك.

قام مُندهشًا ليسمع صوتًا دافئًا وهادئًا يقول له:

ـــ حسين. أنت مُراقب. خُذ الترام إلى غمرة ثُم اهبط ستجد على اليمين قهوة بلدي اشرب فيها شايًا ثُم خُذ تاكسيًا إلى ميدان العتبة، وسر في شارع محمد علي حتى مسجد قاسيون، ولاقني هُناك بعد صلاة الظهر.

نظر حوله، وبحث عن مُراقبه دون جدوى، فدفع الحساب وسار كما أراد له مُحدّثه مُتحيرًا أي نوع من الرجال سيقابله، ذلك المُحتاط كما لم يتعلم، والماكر كما لم يتصور. صلى في المسجد خلف الإمام رغم أنّه قليلًا ما فعلها في ظل عدم مبالاة والده بسؤاله عن الصلاة بعد أن نبت شاربه. جلس صامتًا يُفكر مَن يكون ذلك الضابط الغريب المطرود من الجيش بسبب اتصالاته مع الألمان؟ واصل الانتظار دون جدوى حتى وجد المسجد يخلو رويدًا إلا من خادمه الذي كان مُهتمًا بالنظر إليه بتركيز شديد. همّ بالخروج بعد أن فقد الأمل في لقاء الداهية المطلوب من البوليس، وما أن وضع حذاءه خارج المسجد حتى وجد كفًا سمراء تُصافحه قائلًا:

ـ حرمًا.

سرت رعدة في جسده الفارع على غير اعتياده،عندما وجد وجهًا أسمر شاحبًا تُنيره عينان ضيقتان، وابتسامة ماكرة. تمالك اتزانه وأخمد شرر الخوف وهو يضغط على كف مُحدثه قائلًا بفرح شديد:

ـ جمعًا يا حاج محمد.

سارا معًا عبر أحد الأزقّة المتفرعة من الشارع ليصعدا درجًا في بيت قديم فتحه «الحاج محمد»، ثُم جلسا في صالة ضيّقة خالية إلا من ثلاثة كراسي خشبية وطاولة قديمة يعلوها التراب. سأله «حسين»:

ـ هل هذا بيتك؟

ابتسم «الحاج محمد» وهزّ رأسه قائلًا:

ـ كلها بيوت ربنا.

وابتسم قبل أن يقول:

ـ أنا أبيت كُل يوم في مكان. والأحباب كثيرون مثلك هكذا.

أخرج «حسين» علبة سجائره، فالتقط «الحاج محمد» واحدة وقال له :

ـ تستطيع أن تُناديني باسمي، أنور.

ثُم بتبسُط مقصود:

ـ أنور السادات.

بطل كما تصوره، رائق الضحكة، حكاء العينين، قوي التأثير. سأله «حسين» في اهتمام عمَن كان يُراقبه فأجاب:

ـ رجل طيب من أصحابنا.

ـ أصحابنا؟ مَن؟

ـ من البوليس السياسي. يوزباشي مُجتهد اسمه محمد إبراهيم إمام.

استغرب «حسين»، وقال باستهجان مُقطعًا حروفه:

ـ مُ ج ت هـ د؟!

هزَّ «أنور السادات» رأسه قائلا:

ـ نعم. ألم تسمع عنه؟ هو الذي ذهب للقبض على المُخرج أحمد سالم ليمنعه من قتل زوجته المُطربة أسمهان ونجح في إنقاذها لكنه تلقى رصاصة في صدره، وأصاب المُخرج برصاصة وعولجا معًا في نفس المُستشفى وكانا حديث الوسط الفني. ألا تقرأ الصُحف؟

هز «حسين» رأسه نافيًا ثُم قال:

ـ لا أهتم. لكن قل لي.. ما علاقة ضابط البوليس السياسي بمُخرج ومطربة؟

سحب «أنور» نفسًا طويلًا من سيجارته وقال وهو ينفثه رويدًا:

ـ المُطربة أسمهان لها اتصالات عُليا، بالمُخابرات الألمانية والإنجليزية والسراي، وهي كنز أسرار ومعلومات. وهذا الضابط ذكي ومُخلص في عمله و...

ـ مُخلص؟ إنَّه خائن.

ـ لا ليس خائنًا. قبل عامين كُنت مطلوبًا وقابلته وكُنت أرتدي الجلباب وأعمل بالمقاولات بعد أن طردتني حكومة الوفد من الجيش، وقُلت له هيا بنا إلى السجن، لكنَّه سألني: لماذا السجن؟ فقلت: لأنني مطلوب، فهزَّ رأسه قائلًا: ومَن وجدك؟ لا أحد يعرف أنني وجدتك. انطلق ولكن ابتعد عن طريقي فقد أضطر إلى اعتقالك.

ـ ياه. غريب هذا الضابط. إذن لمَ يُراقبني؟

هزَّ «أنور» رأسه وهو يقول:

ـ هذا مطلوب، لكن وقت الحسم هو لا يميل إلى الإنجليز ورجال الحُكم، وهو بالمناسبة لا يُعذِّب مستجوبيه. لقد بعثت له وردًا عندما أصابته رصاصة أحمد سالم. تصور جرأته، لقد ذهب للرجل في بيته، وقال إنَّه موفد لمنع جريمة قتل المطربة، فأخرج المُخرج مسدسه وأقسم أن يقتلها أمامه فقفز ليتلقى الرصاصة في صدره، ثُم أطلق رصاصة على «أحمد سالم» أفقدته الوعي ودخل معه نفس المُستشفى فأصرَّ أن يعالج الأطباء المُخرج قبله.

ـ مثال غريب.

ابتسم «أنور» وقام ليُعد شايًا، لم يلبثا أن رشفاه معًا وهُما يتحدثان عن مصر وحالها في ظل الحرب وحكومات العار القابضة على الحُكم خدمة للاحتلال. وحكى «حسين» لـ«أنور» عن مغامراته وعملياته الفدائية طيلة السنوات الخمس الماضية، لكنَّه شعر بالضآلة عندما قال له «أنور» إنَّ هناك مجموعات كثيرة تقوم بنفس

العمـل.

ـ ما العمل إذن؟

سأل «حسين» كتلميذ، فأجيب:

ــ أعتقـد أنـك ومَـن معـك تقومـون بعمـل عظيـم، لكنَّـه غـير مجـدٍ. مـا الفائـدة مـن قتـل عسـكري إنجلـيزي؟ مـا الفائـدة مـن قتـل ضابـط؟ اثنـين؟ ثلاثـة؟ لا شيء. لـن تُخـرج هـذه الأعمـال الاحتـلال. المُصيبـة في أعـوان الإنجلـيز، خدمهـم مـن المصريـين، هُـم الأخطـر عـلى البلـد.

ـ خونة.

ــ بالطبـع. هُـم كذلـك. لا تهمهـم سـوى مصالحهـم الشـخصية. لـذا فـإنَّ قتـل واحـد منهـم يسـاوي قتـل ألـف جنـدي إنجلـيزي.

ـ يااااه ألف. لكن مثل مَن.. صدقي والنقراشي وماهر؟

ــ هـؤلاء أضعفهـم. انظـر للـرأس الكبـير. النحـاس باشـا. ذلـك السـاحر العجـوز. درويـش النـاس وأفيونهـم، بحزبـه وأنصـاره ومُحبيـه هـو الأخطـر وهـو الأولى بالقتـل.

فكَّر «حسين» قليلًا قبل أن يقول:

ــ هـو سـاحر فعـلًا. معـك حـق. لقـد سـمعته يخطـب مـرة وكـدت أصدقـه وأهتـف لـه حـتى عرفـت مـن والـدي كيـف تحالـف مـع الإنجلـيز ليأتـوا بـه حاكمًـا في ظـل دباباتهـم.

ابتسم «أنور» وهو يقول:

ــ لـو فكرتـم في عمـل وطـني كبـير عليكـم أن تبـدأوا بـه. انتظـروا حـتى يقيلـه الملـك وأعتقـد أنَّ ذلـك سـيكون قريبًـا، ووقتهـا يُمكـن التخلُّـص منـه وإنقـاذ البلـد مـن ديكتاتوريـة الوفـد.

ـ ديكتاتورية؟

ــ نعـم. ديكتاتوريـة الزعامـة الـتي تدّعـي امتلاكهـا للقيـم والمبـادئ والأخـلاق.

مصمص «حسين» شفتيه وقال له:

ـ هل تعرف عزيز المصري؟

ـ بالطبع إنَّه مُعلمي وأستاذي وأستاذ جميع الثائرين. أنا أعرف كُل مَن يُناضل، لذا فقد وافقت على التعرف بك. أنا أشم رائحة البطولة. اسمع، سأساعدكم بالمعلومات والسلاح الذي تحتاجونه، لكن توقفوا عن اصطياد الإنجليز. لو خرج الإنجليز من مصر لأكلها الباشاوات وبلغاء الخُطب في كروشهم.

وقام «السادات»، وهو يقول:

ـ والآن انزل. وسأتبعك بعد عشر دقائق. سأدلك على مخبئين للأسلحة في المُقطم. وعندما تسنح الفرصة، ستتوجه إلى هُناك لتأخذ ما تحتاج.

انبهر «حسين» بذلك التخطيط وشعر بالغبطة وهو يُعانق أنور الذي بدا مسرورًا وهو يودع تلميذًا جديدًا.

على أول الزقاق كان أفيش فيلم «تحيا الستات» لأنور وجدى ومديحة يسري وميمي شكيب يحتل عمود الإنارة العمومي، وأمامه كُتب بطبشور صغير على الحائط المقابل «الموت للاحتلال».

***

استطاع «حسين» اكتساب ثقة واحترام جميع زُملائه بعد تسويته لأزمة عاصفة كادت أن تودي بالتنظيم كُله. في يوم ما دخل محمود يحيى مُراد اجتماع التنظيم وبيده مُسدس ليُقسم أمام الجميع بأنه سيقتل نجيب، ران التوتر والقلق على وجوه الحاضرين خاصة «مدحت» الذي توقع أي تصرُف من شقيقه الأكبر، إلا ارتكاب ما يستحق معه الموت. كان «حسين» هادئًا كعادته وبدأ في امتصاص

غضب «محمود» ببطء، مُقررًا أنه يُقدّر غضبه ووطنيته وإخلاصه ويعرف جيدًا أنّه أكثر نفعًا للتنظيم الفدائي من ابن خالته نجيب، الذي لا يشاركهم سوى في الكلام وتقديم المشورة، ثُم أكد له أنّه على استعداد لمعاقبة «نجيب» حال ارتكابه أي خطأ يُعرّض المجموعة للخطر، لكن من الضروري توضيح الأمر برمته لجميع الزملاء. وتعهد حسين بحل المشكلة تماما بعد أن أخذ المُسدس من «محمود»، فطلب من عم «عثمان الجنايني» الاتصال بـ«نجيب» ودعوته للقدوم بسرعة شديدة. وبعد دقائق من التدخين والنقاش الساخر خمدت همة «محمود» للقتل وتحوّل غضبه لبوح حزين كشف فيه أنّ «نجيب» على علاقة عاطفية بشقيقته وأنّه علم بذهابهما معًا إلى السينما قبل يومين.

دخل «نجيب» ليتلقى توبيخًا مُستحقا من ابن خالته وليُقرر بعفوية أنّه يُحب شقيقة «محمود» بصدق ويريد الزواج منها، لكنّه تراجع أمام شتائم وتهديدات مُتكررة من«محمود»، قبل أن يتدخل حسين مُهدئًا وطالبًا من الجميع ترك جميع الصغائر والتركيز على تطوير أعمال التنظيم ونقلها إلى مُحيط الساسة المصريين المُرتبطين بالإنجليز.

كرر «حسين» ما قاله «أنور السادات» له من أنّ قتل سياسي مصري مُتعاون مع الإنجليز يُعادل قتل ألف جندي إنجليزي. وفاجأ القائد غير المُنتخب للتنظيم الأعضاء بضرورة البدء بالنحاس باشا، وهو ما أثار علامات الدهشة عند معظم الأفراد.

قال «نجيب» بتحفز:

ـ تقتل زعيمًا يُحبه الناس ويشهدون له بالنزاهة والوطنية؟

وردّ «محمود» بغضب:

ـ بل خائن ومُدع يخدع الناس بمعسول الكلام. ويكفي أنّه تحالف مع العدو ضد الملك ليُصبح رئيسًا للحكومة.

فقال «نجيب»:

ـ لكن الناس تحبُّه و...

ورد «محمود» مُقاطعًا:

ـ تبًا للناس. لن تولد هذه الجماعة ونُصبح لها تأثير حقيقي بغير دماء.

وقال «محمد إبراهيم كامل» بعد أن رمق المُسدس الذي يحمله «حسين» بوله:

ـ مُتفق تمامًا مع حسين ومحمود. قتل النحاس باشا ضرورة. هو السبب في خلود الناس إلى الدِعة مُنتظرين نتائج مفاوضات لا تتم أبدًا. إنَّه مُخادع كبير. ثُم مَن قال إن حُب الناس شفيع له. ألم تروا ما جرى للنادي الأهلي على يد المُختلط.

ضحكوا على المثال، فقال «مدحت»:

ـ لقد انهزم 6 / صفر. زُقلط أحرز وحده ثلاثة أهداف، ومحسن حلمي هدفين.

بدوا غير مُهتمين كعادتهم بأحاديث الكُرة، عندما وقف حسين مُلقيًا نظرة استفسار عن آراء سيد، ومدحت، وسعيد، ومحجوب، والشافعي، وعُمر، وخليفة، فتكررت إجابات الموافقة على اغتيال النحاس بهز الرأس إلى أن قال محجوب:

ـ إنني مثلكم أعتقد أن قتل النحاس ضرورة، لكن ينبغي أيضًا قتل النقراشي وماهر وصدقي وهيكل.

قال «محمود»:

ـ معك حق. علينا أن نُقرر أنَّ النحاس هو ضحيتنا الأولى، ثُم سنقتل بعده ماهر. ذلك المتلون الذي خان تاريخه كمناضل ومقاتل ضد الإنجليز ليتحالف معهم.

رمقه «محمد إبراهيم» بنظرة استهجان قائلًا:

ـــ هــل صدقــت مــا رددوه بأنّــه كان مُشرفًــا عــلى الجهــاز الــسري لثــورة 1919؟ كُلهــا دعايــات كاذبــة. إنَّهــم يتاجــرون بــكل شيء. الأبطــال الحقيقيــون هُــم شــفيق منصــور وآل عنايــت ومَــن أُعدمــوا معهــم ســنة 25.

مــشى «حســين» بهــدوء واضعًــا يديــه في وســطه، ليــدور حــول أفــراد المجموعــة الجالســين ثُــم قــال:

ـــ إذن علينــا أولًا أن نُنــشئ جهــازًا للمعلومــات لجمــع المعلومــات عــن الخونــة واحــدًا واحــدًا. نريــد كُل شيء. عناوينهــم، جداولهــم اليوميــة، عاداتهــم، خطــوط ســيرهم، رجالهــم، وأنظمــة الحراســة الــتي يســتخدمونها. أقــترح تكليــف محمــد إبراهيــم كامــل بإنشــاء جهــاز المعلومــات، وأقــترح إنشــاء جهــاز معاونــة آخــر يضــم تنظيمًــا مــن الشــباب الصغــير يترأســه مدحــت.

ـــ لماذا؟

سأل «محمود»، فأجاب «حسين»:

ـــ ســيكون هــذا التنظيــم مســئولًا عــن اســتكمال أعمالنــا حــال ســقوط تنظيمنــا. ســنُطلق عليــه تنظيــم الكتاكيــت.

ضحكوا، عندما أطلق مدحت شخرة احتجاج على الاسم.

في المســاء حــدَّث حســين صاحبتــه عــن تطــور نظــام جماعتــه، ووعدهــا أن تســمع عنهــا قريبًــا بعــد أن تُقــدم عــلى أفعــال لا يتوقعهــا أحــد. كانــت مُتوتــرة قليــلًا عندمــا أخبرتــه أنهــا خُطبــت. هبــط عليــه النبــأ كصاعقــة، ولاحــظ دموعًــا تترقــرق في عينيهــا وهــي تُكــرر:

ـــ أنا أحبك. أحبك.

سألها بعد أن رشف كوبًا من البيرة الباردة:

ـــ مَن يا ميمي؟

مسحت دمعة مُنحدرة على خدّها وقالت:

ـ يوزباشي في البوليس.

ـ البوليس؟

ـ نعم البوليس السياسي.

ـ اللعنة.

قالهـا مُغتمًـا، لا عـلى فـراق رفيقتـه الحسـناء، ولكـن عـلى اقترانهـا بضابـط بوليـس، بـل وبوليـس سـياسي. كان يعتقـد أنَّ كُل رجـال الأمـن خصـومٌ لـه، وجميـع المُخبريـن خـدمٌ لأهـل السُـلطة والنفـوذ. قـال إنَّ ملعـب المُبـاراة لا يسـمح بتواجدهمـا معًـا، ولـو قُـدر لـه اقتـلاع أرواحهـم سـيفعل دون تـردد.

ودعهـا غـير مكـترث بدموعهـا ليسـمع وهـو عائـد إلى البيـت بائـع الصُحـف يُنـادي عـلى جريـدة الأهـرام قائـلًا:

ـ اقرأ الحادثة. اقرأ الحادثة. مصرع أسمهان.

نـاول البائـع قرشًـا وقـرأ بالبنـط الأحمـر «مـصرع المطربـة أسـمهان بعـد سـقوط سـيارتها في النيـل. السـائق قفـز مـن السـيارة قبـل غرقهـا».

وتذكـر مـا قالـه «السـادات» لـه بـأن «أسـمهان» ليسـت مُجـرد مُطربـة. وقـال لنفسـه: لابـد أن المخابـرات البريطانيـة قتلتهـا أو رُبمـا الألمانيـة، أو آخـرون. القتـل هـو نهايـة المُنخرطـين في الأعمـال الخطـرة. سـيكون مصـيرك يومًـا. لكـن لا شيء يهـم. إنّـه مـوتٌ جميـل.

***

«الفرصـة سـانحة». قالهـا «أنـور السـادات» لحسـين توفيـق في لقـاء سريـع جمعهمـا في شـقة عمـر أبـو يعـلى. كان الملـك فـاروق قـد أقـال حكومـة الوفـد مُسـتغلًا سـفر السـفير «مايلـز لامبسـون» إلى الخـارج، بعـد أن سـعى القـصر عـبر رجالـه إلى تشـويه «النحـاس باشـا» اعتمـادا

على اتهامات بالفساد أعدَّها «مكرم باشا عبيد» سكرتير الوفد السابق ونشرها في كتاب قُدم إلى السراي بعنوان «الكتاب الأسود». كان رأي «السادات» أن أطقم الحراسة المفروضة حول الرجل زالت ولم يبق سوى حارس شخصي واحد يُسهل التعامل معه.

قال «السادات» وقتها:

ـ الأسد العجوز بلا مخالب.

وردّ «حسين» بأنّه ومجموعته جاهزون للتنفيذ، خاصة بعد تلميحات باح بها السادات بأنّ هناك مجموعات وطنية أخرى على استعداد للقيام بتلك البطولة حال تقاعس رجاله. كان «حسين» يتصور أنّ المجموعة التي ستحقق السبق في صيد روح الرجل ستكون مؤهلة للعب دور قيادي في النظام الجديد الذي سيحكم بعد خروج الاحتلال، واعتبر «السادات» هو حلقة الوصل بين تنظيمه وبين قيادات الثورة القادمة.

في بضعة أيام جمع التنظيم بيانات تفصيلية حول الجدول اليومي للضحية، عاداته، زواره، وموقع سكنه، وتحركاته، واكتشفوا صعوبة الوصول له إلا يوم الجمعة، والذي يزور فيه ضريح الحُسين للصلاة، وقرروا قتله خلال ذلك اليوم رغم تحذير «نجيب» لهم بأن تنفيذ الاغتيال خلال الصلاة سيُزيد من شعبية الرجل ويحوّله إلى شهيد أمام الناس.

في أحد صباحات الجُمعة تطوَّع «محمد إبراهيم كامل» و«عُمر أبو يعلى» و«محجوب» بالاختباء وسط المُصلين تمهيدا لانتهاز فرصة خروجه مع الناس عقب الصلاة وإطلاق الرصاص عليه، لكنَّهم فشلوا بسبب الزحام الشديد حول الرجل واحتضان البعض له مما جعله هدفًا صعبًا، مُتذكرين الواقعة الشهيرة لمحاولة قتله في المنصورة قبل أكثر من عشر سنوات والتي فشلت بعد تلقي سينوت حنا طعنة أحد القتلة بدلًا منه.

في مـرة أخـرى كمـن «حسـين» في أحـد أركان المسـجد مُنتظـرًا قـدوم النحـاس ومعـه مسـدس أتوماتيـكي سريـع الطلقـات منحـه إيَّـاه «السـادات»، لكنَّـه اكتشـف فجـأة خلـو المسـدس مـن الرصـاص، وتذكـر أنَّـه نسي مـلء خزانتـه قبـل التحـرك. وفي مـرة ثالثـة انتظـره هـو و«محمد خليفـة» و«كريـم القنـاوي» ومعهـم عـدة مُسدسـات وقنابـل يدويـة، لكنَّـه لـم يـأت في ذلـك اليـوم، لتنـشر الصحـف بعـد ذلـك أنَّ الرجـل مصـاب بنزلـة بـرد حـادة.

واعتـبر «محمـود مُـراد» إخفاقهـم في قتـل الرجـل بمثابـة لعنـة لا يُمكـن الخـلاص منهـا، واقـترح تحويـل المسـار بشـكل مؤقـت إلى أحمـد باشـا ماهـر الـذي صـار رئيسًـا للـوزراء وحليفًـا شرعيًـا للإنجليـز، لكـن «حسـين» اعـترض مُكـررًا أنَّ إخفاقهـم في قتـل شـخص مـا لا يجـب أن يدفعهـم إلى تركـه واختيـار بديـل لـه، وقـال لهـم إن عليهـم المحاولـة مـرة واثنتـين وثلاثـًا.

وعـاد «حسـين» لـ«السـادات» ليُخـبره بصعوبـة قتـل النحـاس لأنَّـه في الغالـب مُحـاط بعـشرات الأشـخاص، وأنَّـه محـدود الحركـة ولا يـكاد يُغـادر بيتـه لأيـام طويلـة. وسـأله إن كان مـن الممكـن قتـل أحمـد ماهـر باشـا بـدلًا منـه، فأشـاح عنـه السـادات بوجهـه وقـال:

ـــ إن الرصاصـة الواحـدة فيـه حـرام. ماهـر؟ مَـن يُمثـل؟ لا شيء. دعـك مـن أحـزاب الأقليـة جميعـا، وفكـر في المُتحكمـين في الشـعب.

كان الامتعـاض باديًـا عـلى وجـه «السـادات» كُلمـا ذكـر اسـم «النحـاس» أمامـه ويبـدو أنَّـه لـم يكـن قـادرًا أن ينـسى للرجـل أنَّـه طـرده مـن الجيـش وحوَّلـه إلى شريـد بـلا عمـل. وفكـر «السـادات» قليـلًا قبـل أن يخـبر «حسـين» أنَّـه مـن الممكـن قتـل رجـال حـول «النحـاس باشـا»، ثُـم يجـرى بعـد ذلـك تفجـير الجنـازة خـلال مشـاركته فيهـا. وأعجبـت الفكـرة «حسـين»، فنقلهـا إلى زملائـه الذيـن بـدأوا التفكـير بشـكل جـدي في المُقربـين مـن «النحـاس باشـا»، فاختـاروا في البدايـة «فـؤاد سراج

الدين»، ثُم استبعدوه لأنَّه يستعين بحراسة قوية، ثُم فكروا في أحد أشقاء حرم «النحاس»، لكنَّهم عادوا واعتبروا ذلك بعيدًا عن المروءة والنبل خاصة أنَّهم جميعًا ليس لهم أي توجهات سياسية، وأخيرًا أخبرهم «السادات» أنَّ «أمين باشا عُثمان» هو الأنسب لهذه العملية خاصة أنَّه لعب دورًا معروفًا في الوساطة بين «النحاس» والإنجليز، وهو من خدم التاج البريطاني حيث تعلم هُناك، وتزوج إنجليزية، واعتبر الاحتلال البريطاني رفعة وتقدمًا، وأنَّه يجاهر بخيانته دون حياء.

وجلس ثلاثة عشر شابًا في حديقة منزل توفيق بك بالمعادي يصوتون على قتل «أمين عثمان» كمقدمة لقتل «النحاس»، لكنَّهم اختلفوا مرة أخرى بسبب إصرار «محمود مراد» على رأيه في أنَّ قتل «أحمد ماهر باشا»هو الأولى في الوقت الحالي باعتباره رئيس الوزراء الموجود في الحكم ، وأنَّ «النحاس» بعد خروجه من الوزارة صار مُثيرًا للشفقة. وتمثَّل لهم «محمود» بمقولة للفيلسوف نيتشه تقول: «من كان يحيا بمحاربة عدو ما، تصبح له مصلحة في الإبقاء على هذا العدو حيًا».

وشعر «حسين» بالتبرُم من اعتراضات «محمود» المتكررة، وانتظر ذهابه إلى الحمام ليقول لزملائه في حزم:

ــ لا عليكم باندفاعات محمود، هو يتحامق كثيرًا. سنقتل النحاس باشا لا محالة، وسنقتل أمين عثمان. لا تغيير بدون دماء. استعدوا. يجب أن تكون لدينا معلومات تفصيلية عن أمين عُثمان.

فهزوا رؤوسهم موافقين.

***

راجعت يمناه رابطة عُنقه التي كادت تخنُقه، وهو يستعد للخروج من قاعة البهو الفرعوني لمبنى البرلمان مُتذكرًا أنَّه حقق نصف ما يريد بانتصاره على خصمه اللدود. بدا ثقيلًا وهو يُصافح بعض النواب في طريقه نحو سيارته بالخارج لتقلّه إلى بيته بعد أن أعلن رسميًا أنَّ مصلحة مصر ستتحقق بدخولها الحرب العالمية الثانية إلى جانب بريطانيا. بوجه عريض مُنفرج الشفتين، وشارب كث يتناسب مع سمنته المفرطة قابل «أحمد باشا ماهر» زملاءه وهُم يُهنئونه على قراره النابه بعد تأكد انتصار الحلفاء في الحرب لتصبح مُشاركة مصر مُجرد تحصيل حاصل ومقاسمة في الغنائم. قال لنفسه إنَّه استطاع النيل من غريمه «مصطفى النحاس» الذي سبق أن أضاع فرصته في تولي الحكومة قبل ثلاث سنوات عندما تدخلت دبابات الإنجليز لتأتي به رئيسًا رغم أنف الملك.

«السياسي هو مَن يتحول من اليمين إلى اليسار بفطنة ثعلب وسرعة أرنب، السياسي هو الباحث عن إجابات متعددة لأسئلة صعبة، وهو القابل للحلول الوسطى، والراضي بالأمر وعكسه، واللامُحب واللاكاره لأحد أو أمر». ردَّدها داخله وهو يستعيد لقاءه الأول قبل ثلاثة عقود مع سعد باشا زغلول عقب عودته من دراسة القانون في باريس وإحساسه بأن الأيام تُخبئ لهذا الرجل أدوارًا تاريخية عظيمة، واتفاقه مع صديقه المُقرّب «محمود فهمي النقراشي» على الانخراط في العمل المسلح لدعم «سعد زغلول».

طافت برأسه مشاهد نقل الأسلحة للفدائيين، وتجهيز القنابل للجهاز السري، وتوفير السلاح للقائمين بالاغتيالات، ثُم القبض عليهما من قبل الإنجليز واتهامهما بالإرهاب، ومحاولة لف حبل المشنقة حول رقبة كُلٍ منهما. يومها تفرغ المُحامي الكُفء «مصطفى النحاس» للدفاع عنهما وحشد كُل الأدلة لتبرئتهما في قضية شغلت الرأي العام. تساءل «ماهر باشا» عن مصيره لو لم يحصل له

«النحـاس» عـلى الـبراءة، وشـعر أنـه مديـن للرجـل رغـم خلافتهمـا بالكثير. ضبـط «أحمـد ماهـر» طربوشـه وهـو يخطـو في ثقـة مُتذكـرًا يـوم اجتمـاع الهيئـة الوفديـة لاختيـار خليفـة لـ«سـعد باشـا» وكيـف وقـف هـو و«النقراشي» إلى جـوار «النحـاس» في منافسـة «فتـح اللـه بـركات»، لكنَّـه شـعر بجفـاء شـديد مـع تقريـب «النحـاس» لــ «مكـرم باشـا»، ثُـم جعلـه الرجـل الثـاني في الوفـد. حـدّث نفسـه بـأنَّ النحـاس هـو الذي دفعـه دفعًا للخـروج مـن بيـت الأمـة ليؤسـس مـع «النقـراشي» حـزب السـعديين. الوفـد هـو الوفـد. ردّدهـا وهـو يواجـه هـواء السـاحة مُتنفسًـا بصعوبـة معتـادة نتيجـة سـمنته المُفرطـة، واسـترجع سـنوات الفدائيـة والعمـل الـسري، وتغيـير ملابسـه عـدة مـرات في اليـوم للإفـلات مـن عيـون المُخبريـن، والسـفر لبنهـا بتذاكـر القاهـرة الإسـكندرية لخـداع مطارديـه، وإطـلاق الرصـاص في البـارات عـلى جنـود الاحتـلال. كيـف تغـيّر بـكُل هـذه الحـدة؟ سـأل نفسـه، وأجـاب بـأنَّ الزمـن تغـيّر والأعـداء انقلبـوا حلفـاء، وصـار الرفـاق خصومًـا، وأثبتـت الأيـام أن حلـول السياسـة أنجـع مـن الرصـاص.

دقّ قلبـه بتسـارع وهـو يسـتعيد لقـاءه الأخـير مـع السـفير «مايلـز لامبسـون» عندمـا أخـبره بأنَّـه أنفـع للإنجليـز مـن الوفـد، وأنَّـه لا يهمـه في الوقـت الآني سـوى مصلحـة مـصر، وهزيمـة «النحـاس» والثـأر منـه. لمـح سيارته وحرسـه أمـام البـاب، وفكـر كيـف كان يضـع خطـط إرهـاب الـوزراء في زمـن الثـورة، مُتغلبًـا عـلى نُظـم التأمـين ومُتحديًـا كُل مَـن وقفـوا خـارج الوفـد. لقـد قـال يومهـا أن مَـن يخـرُج عـلى الوفـد يخـرج عـلى الأمـة، ومَـن يخـرج عـلى الأمـة يُعـد خائنًـا، وهـا هـي الأقـدار تدفـع بـه خـارج الوفـد، لكنَّـه ليـس خائنًـا.

تذكـر أنَّـه تلقـى قبـل مجيئـه البرلمـان رسـالة مـن مجهـول تُهـدده بالقتل إن قـدم اقتراحـه بإعـلان دخـول مـصر الحـرب، لكنَّـه قـدم الرسـالة لـ«النقـراشي باشـا» المسـئول عـن وزارة الداخليـة ليُقدمهـا للبوليـس

السياسي بهدف البحث عن ذلك المخبول الذي واتته الجرأة أن يُهدد دولة رئيس الوزراء.

لاحظ شابًا طويلًا مُهندمًا يقترب مُسرعًا من الباب، لتلتقي عيناه بعينين عسليتين مُتعبتين قرأ فيهما حُكم الإعدام. تذكر وجه عسكري إنجليزي طعنه في زحام القاهرة سنة 1922 وهو يطلب العفو منه بملامح مُنكسرة، ودموع مُترجية. قال إنَّه يُفضل الموت صلبًا، شامخًا كالرجال. ودَّ لو قال للشاب المواجه بعد أن تبين مُسدسًا بين يديه أنه ليس خائنًا، وأنَّه مثله يريد مصلحة مصر لكنَّه لم يكد ينطق حتى أخرسه أزيز رصاصات لم يتبين عددها قبل أن تُصيبه لسعات مُتفرقة، سمع على إثرها صياحًا، وشعر بحركة مُتسارعة حوله، ثُم غاب تمامًا عن الوعي.

ـ مات؟

سأل «توفيق بك» مُحدِّثه في التليفون، ثُم هز رأسه حُزنًا وهو يقول:

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله.

كان «حسين» جالسًا أمامه في غرفة المكتب عندما سأل والده في فضول عما جرى، فأجابه:

ـ قتلوا ماهر باشا.

هزَّ «حسين» رأسه قلقًا وقال في سره «محمود الوغد. سيقضي علينا جميعًا»، واستأذن والده بدعوى أن لديه موعدًا مع أصدقائه، وخرج مُسرعًا لتنفيذ خطة مواجهة الخطر. الاختفاء ضرورة حتى يستبين موقف «محمود». قالها لنفسه في الطريق إلى بيت عُمر، قبل أن يسمع صوته مناديًا في الشارع. أدار وجهه وفوجئ بـ«محمد إبراهيم كامل» معه، فبادراه بالخبر وقالا إنَّ القاتل ليس «محمود يحيى مراد»، وإنما هو شاب وطني آخر اسمه «محمود العيسوي» يعمل مُحاميًا بمكتب عبدالرحمن الرافعي.

انحسر القلق تدريجيًا من وجه حسين، واستعاد هدوءه رويدًا، وفكر كثيرًا ثُم قال:

ـــ يبدو أنَّ ما قاله لي أنور السادات صحيح مائة في المائة، هناك جماعات عديدة تفعل ما نفعل، وتُجاهد مثلنا وتُفجر، وتطارد الخونة، وإن لم نتحرك وندخل أرض المعركة، فإننا سنكون خارج أي حسابات فيما بعد.

***

كقالب سكر ذاب، واختفى عن الأنظار. لم يذهب «محمود يحيى مُراد» اللقاء الأسبوعي للتنظيم في حديقة منزل «توفيق بك». اتصل به «حسين» عدة مرات ووجد التليفون مُعطلًا، وسأل «عُمر» عنه في الكلية فلم يجد جوابًا، وشعر «حسين» بالقلق، فسحبته قدماه نحو منزل «محمود» في حدائق القُبة، وطرق الباب، لينفتح على وجه بشوش مُنير لفتاة غرست فيه البراءة أعلامًا وشارات. تذكر أنَّه لم يرها مُذ كانت طفلة، ثُم دار بخاطره غضب «محمود» من اكتشافه علاقتها بـ«نجيب» ابن خالته. سأل نفسه كيف يُمكن أن يفلت هذا الجمال من بين يديه ويذهب إلى المناضل المُتفرج الذي لم يطلق يومًا رصاصة، ولم يخاطر بنفسه، ولو للحظة. لو كانت على علاقة بأي من أفراد المجموعة لما استكثر، ولا اندهش، لكن أن يفوز بها «نجيب» مذوق الكلام، ومُدّعي الثقافة، فلابد أن يغضب. عيناها صافيتان كبحيرتي سُكر، وأنفها يُشابه أنف محمود، لكنَّه أقل بروزًا، وابتسامتها تُنبئ عن رقة مُتناهية وأنوثة طاغية، وذلك الشعر الساحر المُنسكب خلف جيدها يؤكد أن الجمال اختار موطنًا له في شقة بسيطة بحدائق القبة.

رحلت «ميمي»، تركته، لا يهم، إلى الزواج، إلى العريس الجاهز،

ضابط البوليس السياسي، الخادم للخونة، إلى الجحيم، ولا أسف، فقد اختارت، وصار من اللازم اختيار امرأة أجمل وأنضج وأكثر قدرة على استيعاب أعماله الوطنية، وليس أنسب من هذا القمر المُتلألئ الفتان، ويكفي أنّها ابنة عمته الراحلة مُنذ سنوات، وشقيقة «محمود» زميله في الكفاح والنضال ضد الإنجليز والخونة. لاحظت صمته فبدرت منها ابتسامة نقية أطلت على استحياء من خلف باب موارب، وسألت في فراسة:

ـ أنت حسين؟ أليس كذلك؟ ابن خالي توفيق؟

هزّ رأسه كمَن يُحيي الجماهير، مُقررًا في سره أنها أجمل من «ميمي» مائة مرة. قالت:

ـ لم أرك مُنذ سنوات طويلة، لكن لم تتغير كثيرًا.

هزّ رأسه مرة أخرى، وهو يفكر إن كان كلامها إعجابًا أم نفورًا، ثُم سأل وعيناه تلتهمان جمالها:

ـ سناء؟

ـ نعم. عظيم أنك تعرف اسم بنت عمتك التي لم تزرها.

حدّق في وجهها أسفًا قبل أن يسأل:

ـ محمود هُنا؟

هزّت رأسها نافية، فواصل:

ـ أين أجده؟

كررت هز الرأس وران على وجهها بعض الضيق، وشعر «حسين» بأنّها تكذب عندما اشتم رائحة دُخان سجائر مخنوق يتسرب عبر الباب. ركز نظره على عينيها مُخترقًا ومُسيطرًا قبل أن يكرر سؤاله:

ـ هل أنتِ متأكدة أنّ محمود غير موجود؟

قرأ ارتباكها، فكرر:

ـ سناء. أرجوكِ. أخبريه أنني أريده لأمر مهم. سأنتظر هُنا.

انسحبت للداخل بجذبة ذراع مُستترة، بينما أطل وجه «محمود» مُكفهرًا، ليبدو بلحيته النابتة مُنزعجًا في البيت لعدة أيام. دعاه للدخول، بينما غابت شقيقته في إحدى الغرف، وتبعه نحو غرفته المُختنقة بدخان السجائر.

ـ مالك؟

سأله «حسين» في برود، فأجاب:

ـ قتلوا أحمد ماهر.

مصمص «حسين» شفتيه، وضرب كفًا بأخرى وسأله:

ـ ألم تكن تتمنى ذلك؟

ثُم بنبرة تهكم:

ـ هل أنت حزين على الباشا؟

أشعل «محمود» سيجارة جديدة، وقال بحزن حقيقي:

ـ كُنت أتمنى أن أكون قاتله بدلًا من العيسوي. كُنت أكرهه بصدق، أشعر أنّه النموذج الأمثل للخيانة، والانصياع للسلطة. إنني أحسد المحامي القاتل على ما ناله من شرف، مُنذ عرفت بالحادث وأنا أشعر بالتقصير والبطء في اتخاذ القرار. إننا كثيرو الكلام قليلو الفعل، نُفكر، ونُخطط، ونُدبر، ولا نتحرك. لذا يصدق فينا قول نيتشه «في صدورهم ثورة البغضاء، وعلى شفاههم بسمة الثلج».

ـ هات سيجارة.

ابتسم «حسين» ثُم مدَّ يده مُلتقطًا سيجارة وأشعلها بقداحته وقال:

ـ الفرص لا تنتهي. والخونة أكثر مما تتخيل. قُتل أحدهم خير، ولكن أمامنا غيره.

ـ لكـني أتحـسر كُلمـا رأيـت صـور محمـود العيسـوي مُبتسـمًا عـلى صفحـات الجرائـد، ومُصرحًـا للصحـف بـأنَّ التاريـخ سـيتكلم عنـه وسـينصفه. سـبقنا للمجـد.

ابتسـم حسـين مُسـتعذبًا حمـاس محمـود وإخلاصـه وتذكـر عيـني شـقيقته، مُقـررًا أنَّـه سـيتزوجها يومًـا مـا، وقـال:

ـ اسـتعد يـا بطـل. يجـب أن نتحـرك. الهـدف مُتـاح، والتوقيـت مثـالي، ولابـد أن نسـتغل حالـة الغضـب العـام، واضطـراب البوليـس بحثًـا عـن شركاء العيسـوي في تنفيـذ عمليـة مباغتـة تُربـك البلـد وتُهيئـه لثـورة عارمة.

ـ فيم تُفكر؟!

سـأل «محمـود»، فـرد «حسـين» بسـؤال يؤكـد حنكتـه واسـتحقاقه مقعـد القيـادة:

ـ فيم تُفكر أنت؟

فكر «محمود» قليلًا ثُم قال:

ـ في النحاس باشا.

ـ أمين عُثمان أولًا. لقد اتفقنا على ذلك.

احمرت عينا «محمود» وزفر دُخان سيجارته قائلًا:

ـ اقتلوا أنتم أمين عثمان وسأقتل أنا النحاس.

سـكت «حسـين» لحظـات كمَـن يبحـث عـن رد منطقـي، وهـو يُدخـن بعصبيـة، وقـال:

ـ يـا محمـود. مـصر تريدنـا أن نعمـل معًـا. لقـد حاولنـا قتـل النحـاس عـدة مـرات مـن قبـل، وكان ذلـك صعبًـا للغايـة، فقررنـا اختيـار أمـين عثمـان لأنـه هـدف أسـهل. أمـا لـو كان لديـك خطـة جديـدة لقطـف روح النحـاس، فقُـل ونحـن معـك.

وأضاف:

ـ نحنُ جماعة يا محمود.

ثُم قام وهو يربِّت على كتف صاحبه، مُتمنيًا أن يرى وجه الجميلة التي فتحت له الباب، لكن أمله خاب، فغادر راضيًا.

***

كان قلق «توفيق بك أحمد» على ابنه يتعاظم يومًا بعد يوم، خاصة بعد أن تأكد من عنفه وضلوعه في أعمال خطرة ضد عساكر إنجليز وأجانب ومصريين. جال بخاطره أنَّ أمر ذلك الولد الذكي المُشاغب لابد أن ينكشف، خاصة مع تطور طموحاته، واستمرارية عملياته التي يقوم بها مع أصحابه الغاضبين دائمًا.

علم الرجل المُخضرم ذو الخبرات المُتراكمة في السياسة أنَّ هؤلاء الشباب لا يُثنيهم نصح ولا يوقفهم إرشاد، كما أن مجابهتهم بالعنف والتهديد قد تؤدي إلى نتائج صعبة. إنهم حزمة من العناد يصعب تفريقها. قال الرجل لزوجته إنه على يقين أن أبناء الخالة «نجيب» و«مدحت» و«محمد» مُنخرطون مثل «حسين» في ذات الأعمال العدوانية، كما أنَّه تناقش ذات مرة مع ابن شقيقته «محمود مراد» وعلِم أنَّه يحمل أفكارًا مُشابهة. وبدا الرجل في داخله مُتعاطفًا مع توجهات الشباب الحماسية عندما قال لزوجته في إحدى جلساتهما المسائية:

ـ إنَّهم لا يعجبهم سياسي ولا يُرضيهم حزب. حتى مصر الفتاة والإخوان المسلمين اللذين اجتذبا كثيرا من الشباب في هذه الأيام لا يلقون لهما بالًا. هُم يُبصرون الجميع على حقيقتهم، يعرفون المُمثل، والخائن، والمُهرج.

ثُم ببسمة رضا:

ـــ هـل تعرفـين يـا سـميرة؟ إننـي أرى فيهـم شـبابي. هُـم أنقيـاء ووطنيون ومخلصـون. لكـن لابـد مـن تأمينهـم. أعتقـد أنَّ إبعـاد الشـبهات عـن حسـين يسـتلزم انتقالنـا لبيـت جديـد، بعيـد عـن معسـكرات الإنجليـز.

ـ وبيتنا؟

سـألت «سـميرة»، فأجابهـا بأنَّـه سـيكون مفتوحًـا لاسـتقبال الضيـوف وإقامـة الحفـلات فقـط، لكـن السـكن سيكون في مـصر الجديـدة. ثُـم قـال لهـا بشـكل واضـح:

ـ لقد أجرْت بيتًا مناسبًا في شارع حسن الأكبر في مصر الجديدة.

مصمصـت شـفتيها امتعاضًـا، لكنَّهـا رأت أنَّ السـبب الـذي سـاقه زوجهـا مُقنـع، خاصـة أنَّهـا عـلى يقـين أنَّ بكريهـا مُنفلـت وحـاد المـزاج. تذكـرت سـخريته مـن أقربائهـا الباشـاوات ونظرتـه المتهكمـة لهـم.

كان خـبر الانتقـال إلى مـصر الجديـدة صادمًـا لـ«حسـين» وزملائـه، والذيـن فقـدوا مقـرًا جيـدًا لاجتماعاتهـم في غرفـة «عثمـان الجنايـني»، لكنَّهـم اعتـبروا الأمـر خطـوة مُهمـة للاعتيـاد عـلى عقـد اجتماعاتهـم المصغـرة عـلى المقهـى أو في جـروبي، والموسـعة في بيـت «عمـر أبـو يعـلى» الـذي تمكَّـن مؤخـرًا مـن ضـم ثلاثـة أعضـاء جـدد هـم «سـعد كامـل»، و«محمـود الجوهـري»، و«عبدالعزيـز خميـس». في ذات الأمـر فقـد وجـد «حسـين» خزانـة خلفيـة في البيـت الجديـد تصلـح لتخبئـة الأسـلحة، خاصـة القنابـل الـتي وفرهـا لهـم «عمـر» عـن طريـق شـقيقه المتصـل بـ«أنـور السـادات».

في يـوم مـا فاجأهـم «محمـود مُـراد» بـأن متابعتـه للرجـل العجـوز وصلـت بـه لإمكانيـة قتلـه خـلال الاجتمـاع القـادم للهيئـة الوفديـة بالنـادي السـعدي. كان «مُحمـود» مُـصرًا عـلى قتـل «النحـاس» رغـم ترجيـح جميـع الأعضـاء اغتيـال «أمـين عثمـان» أولًا، لـذا فقـد انشـغل عـلى مـدى أسـابيع عديـدة برصـد كُل حركـة وكلمـة لزعيـم الوفـد. وضـع طالـب الهندسـة عـلى طاولـة الاجتمـاع خريطـة مرسـومة بالقلـم الرصاص

لمقر النادي السعدي والطرق المؤدية له، مُتوقعًا مرور الهدف من شارع رستم المتفرع من قصر العيني قبل نُصف ساعة من موعد الاجتماع. قال «محمود» إنَّ واحدًا منهم سيقف على ناصية الشارع ومعه قنبلة، وسيقف آخر أمام النادي ومعه مسدس، وستلقى القنبلة على السيارة لتقف ويصبح مَن فيها هدفًا سهلًا لحامل المُسدس، بينما ستنتظر سيارة أخرى في شارع قصر العيني وسيارة ثالثة في ميدان لاظوغلي لتقل منفذي العملية بعيدًا.

فكر «حسين» بروية في خطة «محمود» واعتبرها صعبة التنفيذ، خاصة أنَّ سيارة «النحاس» قد تأتي من شارع آخر، لكنه اعتمدها وأيدها عندما تذكر ضرورة تقربه من ابن عمته، ليوافق على اقترانه بـ«سناء» التي مازالت عيناها تسكنان خياله.

قال «حسين» على غير اعتياد:

ـــ الخطة مُمتازة. سألقي أنا القنبلة على السيارة، وستطلق الرصاص يا محمود، وسيكون لدينا سيارتان، واحدة سيقودها سعيد ومدحت وتقف في قصر العيني، والأخرى سيقودها محجوب وستقف في ميدان لاظوغلي.

ضرب «محمد إبراهيم كامل» بقبضته فوق الطاولة صائحًا بأنَّه يجب أن يشارك في العملية، وهو ما فتح الباب لتدخلات غضب مشابهة من «كريم القناوي» و«سعد كامل» و«محمود الجوهري» مطالبين بالمشاركة أيضا، ولم يجد «حسين» بُدًا من تشكيل فرقة أخرى وإسناد قيادتها إلى «محمد إبراهيم كامل» تكون مهمتها تعطيل أي مطارد لمنفذي العملية. كان الجميع يرون اغتيال «النحاس باشا» بمثابة شرف عظيم يجب نيله حتى أنَّهم احتفلوا في الليلة السابقة على التنفيذ كُلٌّ على طريقته حيث شرب «حسين» كأسًا من النبيذ، ودخَّن «محمود» و«سعد» و«سيد» الحشيش، بينما صلى «محجوب» بتبتل شديد، وقرأ «سعيد» عدة قصائد من ديوان

المُتنبي مُكررًا في انتشاء بيتين يقولان «إذا غامرت في شرفٍ مرومِ.. فلا تقنع بما دون النجومِ. فطعم الموتِ في أمرٍ حقيرٍ.. كطعم الموت في أمرٍ عظيمِ».

في ساعة الصفر وقف «حسين» مُرتديًا بذلته الجديدة التي منحتها له أمه هدية عيد ميلاده العشرين، واطمأنت يُمناه على القُنبلة الناعسة في جيب الجاكت الداخلي، بينما لمح وجه «محمود مُراد» شاحبًا وهو يقف على بعد أمتار مُنتظرًا إلقاء القُنبلة. اقترب موعد الاجتماع وبدت برودة الطقس تبُث رجفاتها في الجسد النحيل، مُتصورًا أن سيارة «النحاس» قد لا تأتي من الناحية المتوقعة، وفي تلك اللحظة لن يكون في مقدور «محمود» إطلاق الرصاص. تذكر «أنور السادات»، وقال إنّه سيسعد جدًا بخبر قتل «النحاس»، باعتباره الأخطر على مصر ومستقبلها، مسترجعًا توصيفه له بأنه «أفيون الناس ومخدرهم». حقًا. إنه كذلك. هتف في أعماقه وهو يُتابع بنظره سيارة صغيرة تمر إلى جواره ببطء شديد. نظر إليها ففوجئ بـ«فؤاد سراج الدين» إلى جوار «النحاس باشا» جالسين معا على المقعد الخلفي، بينما جلس على المقعد الأمامي رجل بسيط ضئيل الجسم ولا يبدو كحارس أو رجل أمن. أين رجال الأمن المفترضون؟ سأل نفسه، وأجاب بأن ذلك الجالس إلى جوار «النحاس» رجل مخادع وداهية. إنّه قادر دائمًا على إدهاشه. اضطرب قلبه عندما رمقه الباشا بنظرة مُخترقة، واضطر إلى رفع يده لأعلى مُتظاهرًا بتحية مُحب، حتى مرت السيارة قليلًا، فقذف بقنبلته بأقصى قوة لتسقط أمام السيارة دون انفجار. شعر «حسين» بوجع في بطنه ومر الهدف أمام عينيه مرور الكرام، وبعد بضع ثوان انفجرت القُنبلة مُحدثة رجة هائلة، اضطرب لها المارة فجرى بعيدًا، وهو يتابع خيبة الأمل تكسو وجه «محمود مراد» بعد أن غابت سيارة النحاس بعيدًا كأنّ شيئًا لم يقع.

«محظوظ. دائمًا» قالها غاضبًا، مُغتاظًا أن الهدف أفلت منه دون

سبب منطقي بعد أن كان على بُعد خمسة أمتار منه.

ـــ سيكون علينا أن نُعجِّل بقتل أمين عثمان في أقرب وقت. ولو خرج النحاس إلى الجنازة سنكون نهايته.

قالها «حسين» بحزم في الاجتماع الطارئ الذي دعا إليه عقب فشل العملية في الليلة نفسها، ووافقوا جميعًا مُستسلمين.

***

عقدوا المُحاكمة فعليًا بحضور «نجيب» الذي اختاروه مُحاميًا عن المُتهم. في صحراء المُقطم وقف «محمود يحيى مُراد» يتلو قرارات الاتهام ضد «أمين باشا عثمان» وزير المالية الأسبق ورئيس نادي رابطة النهضة. نظر «محمود» في ورقة أمامه، وقرأ منها بصوتٍ عالٍ:

«أتى أمين عثمان أفعالًا تمثل أقصى درجات الخيانة، وتستوجب الموت جزاءً، حيث قام المذكور في سنة 1937 بالاتصال المباشر مع السفير البريطاني لوضع جميع طاقات مصر وإمكاناتها في خدمة الجيش البريطاني، وحصل مقابل ذلك على لقب الباشاوية. ثُم واصل دور الوساطة القذر في فبراير 1942 ليدفع بحزب الوفد إلى الحُكم رغم أنف الملك بعد محاصرة دبابات الإنجليز لقصر عابدين، ونال نظير ذلك وزارة المالية التي مكَّنته من استغلال نفوذه وتأسيس شركات تجارية بمشاركة الخواجة شارل كاسترو ومنحها تراخيص عمل واستيراد وتصدير مخالفة للقانون. وبعد إقالة الحكومة دعا المتهم إلى الاندماج في الثقافة الإنجليزية وتوطيد العلاقات مع بريطانيا وأسس لذلك رابطة أسماها رابطة النهضة. وواصل المتهم تحديه للإرادة الوطنية وقام باتصالات مباشرة بين السراي والإنجليز بهدف تحسين العلاقات، ووصل به الأمر إلى التصريح بزواج مصر وبريطانيا زواجًا كاثوليكيًا. ولم يكتف المتهم بالكلام وإنما قام بجمع تبرعات

مالية من أموال المصريين بلغت نحو مائة ألف جنيه وقدّمها إلى الحكومة البريطانية لإنشاء قرية في بريطانيا لتخليد ذكرى معركة العلمين».

كان شباب التنظيم يجلسون على صخرة يُدخّنون في تحفز وهُم يستمعون لقائمة الاتهامات ناظرين نحو «نجيب» بنظرات تحذير بعد أن قام لتمثيل دور الدفاع بناء على إشارة من «حسين» الذي وقف إلى يمين «محمود مراد».

قال «محجوب» وهو يقف مُنفعلًا:

ـ أعتقد أنّ الدفاع سينسحب من المحاكمة ، لأنّه لا يمكنه الدفاع عن الخيانة.

ونظر «محمد إبراهيم» نظرة ذات مغزى إلى «نجيب» الذي أشعل سيجارة انتظارًا لمنحه الكلمة، قبل أن يقول:

ـ لا إنّنا نريد أن نسمع دفاعه.

وعلّق «عُمر» قائلًا:

ـ إنّ صديقنا نجيب طيب القلب، لكن مهما كان فهو إنسان وطني.

رد «نجيب» بإشارة اعتراض من يده صائحًا:

ـ أرجو من هيئة المحكمة منحي الفرصة للدفاع عن المتهم.

سرت همهمات وارتفعت أكف مُشوحة في وجه نجيب، لكن حسين الذي أسعده تمثيل دور القاضي قال بحنكة:

ـ سنمنح الدفاع خمس دقائق للرد على الاتهامات.

ـ كثير.. كثير.

ردد الحاضرون، لكن «نجيب» وقف وقال بصوتٍ عال:

ـ إنّني مع كُل ثقافتي واعتراضي على العُنف أقر أنه لا يمكن التعامل مع أفعال المتهم بتحضر، خاصة أنه فُرض عليّ الدفاع عنه دون

رغبة مني. وأنا لا أجد عُذرًا مقبولًا لمن يدفع بمصر لتُصبح عروسًا لبريطانيا، مع التبجح والدعوة أن يكون ذلك الزواج كاثوليكيًا أي أبديًا، وهُنا فإنني أشعر بمزيج من الخجل والانهزامية وأنا أقف بينكم طالبًا الصفح عن مُجرم، خائن لبلاده. إنني أعرف جيدًا أن جميع الاتهامات الموجهة إلى المُتهم صحيحة، وأنه ضالع في خدمة العدو المُحتل، مُحققًا مكاسب مالية حرامًا، ويكفي أنه تزوج من سيدة بريطانية تدعى الليدي كاترين جريجوري، وأن شريكه الأول انجليزي الجنسية.

ثُم ابتسم «نجيب» ابتسامة خافتة، ثُم رمى بنظرة رضا نحو ابن خالته القاضي قائلًا:

ـ إنني للمرة الأولى في تاريخ القضاء أضم صوتي إلى صوت ممثل الادعاء مطالبًا بتوقيع أقصى العقوبة على المتهم. وباعتباري محاميًا ودارسًا للقانون فإنني لا أجد لجرمه عقابًا سوى الموت.

هلّل الحاضرون، وصفقوا، قبل أن يرفعوا «نجيب» عاليًا، وهُم يرقصون في مرح ويصيحون: يحيا العدل. يحيا العدل، بينما وقف «حسين» رافعًا قبضته في الهواء وهو يُردد في صوتٍ عالٍ:

ـ هدوء من فضلكم. النطق بالحكم.

صمتوا، والغبطة تُظللهم عندما قال «حسين» في رزانة:

ـ حكمت المحكمة الوطنية على المتهم أمين عثمان بالإعدام، وحددت مساء الغد موعدًا لتنفيذ الحُكم. الله.. الوطن.. الشعب. رفعت الجلسة.

***

ودعـت عينـاه العسـليتان ضـوء الشـمس وهـو يسـحب أسـتاره مُبـشرًا بغـروب شـتوي عاصـف. لـم يكُـن الرجـل متوسـط القامـة ذو الملامـح المنبسـطة دائمًـا يشـعر بوحشـة الغـروب الشـتوية الـتي يعتادهـا سُـكان القاهـرة لأنّـه كان دائمًـا لا يكـترث بمـا حولـه. لقـد تعلّـم مُـذ كان طفـلًا في مدرسـة فيكتوريـا بالإسـكندرية كيـف ينعـزل تمامًـا عـن أي مؤثـرات قـد تنـال مـن حالتـه المزاجيـة، لـذا فإنّـه لـم يلتفـت لقـول زوجتـه «كاتريـن» وهـو يُغـادر في ذلـك الصبـاح:

ـ أمين. أشعر أن الجو مُقبض اليوم.

منحهـا قُبلـة رقيقـة اعتـاد طبعهـا فـوق خدهـا الأيمـن مُكـررًا أنّـه كرجـل نشـأ في الإسـكندرية، وهـي كسـيدة ولـدت بانجلـترا وتربّـت هُنـاك لا ينبغـي أن تُعكـر صفوهمـا حالـة الطقـس.

ـ عزيزتي.. سيكون كُل شيء على ما يرام.

كان «أمـين عُثمـان» رجُـلا عمليًـا إلى أقـصى درجـة، يفهـم السياسـة كصفقـة تجاريـة، فيهـا طرفـان كلاهمـا رابـح. عـرف الرجـل الخمسـيني دروب السياسـة وحنكـة الإنجليـز ودهـاء المحامـين مُـذ اسـتثمر علمـه في القانـون والمتـوج بدكتـوراه حصـل عليهـا مـن باريـس، وخـاض غمـار المفاوضـات بحثًـا عـن مصالـح بـلاده. كان يؤمـن أنّـه يمكـن خدمـة الوطـن دون دمـاء، وأنّ المعـارك والمواجهـات المبـاشرة بـين المصريـين والإنجليز لا يُمكـن أن تـؤدي إلى اسـتقلال، أو تُحقـق نهضـة. في مـرات عديـدة اختلف مـع ساسـة وزعمـاء مُحنكـين حـول كيفيـة تطويـع ظـروف الخصـم لتحويلـه إلى صديـق والاسـتفادة منـه، وكثـيرًا مـا كان يُـردد أنّ مصالـح مـصر سـتتحقق بالطُـرق السـلمية.

ركب «أمين» سيارته، وابتسم ابتسامة رضا وهو يقول لسائقه:

ـ إلى الجمعية.

النهضـة. هكـذا أطلـق عليهـا مُنـذ أسسـها قبـل سـنوات قليلـة بهـدف الاسـتفادة مـن الثقافـة الإنجليزيـة والتقـدم المُتحقـق في انجلـترا ونقلـه

إلى مصر. وقتها قرر إنشاء جمعية لخدمة هذا البلد الذي يستحق أحوالًا أفضل وينبغي انتشال بنيه من الجهل والتخلف والفقر. وكان ذلك الخاطر يدور برأسه عندما قال في خطاب سياسي قبل أيام «إنَّ مصر وإنجلترا يجب أن يتزوجا زواجًا كاثوليكيًا». لم يقصد ما ذهب إليه الفاشيون من خضوع أو خنوع، وإنما كان هدفه التأثير في المُتلقي الإنجليزي الذي يفهم معنى العبارة كرباط مصالح دائم، لا تبعية. فكَّر أن يوضح للمُنتقدين في الصُحف المصرية مغزاه من العبارة، لكنَّه عاد وتجاهل الرد على أولئك الذين يعرف جيدًا إلى أي مدى هُم متربصون به، وقال لنفسه إنَّهم سيخونونه سواء فهموا ما أراد أو لم يفهموا. قرأ جريدة «الكُتلة» المرصوصة وسط الصُحف بالسيارة واغتمَّ من تلميحات وإشارات «مكرم عبيد» ضده باعتباره جناحًا سريًا لدعم حزب الوفد. سأل دون أن ينطق: ألم تكُن تنام وتقوم في خدمة الوفد يا مكرم باشا؟ لمَ كان الوفد بيتًا للأمة عندما كُنت رجله الثاني وكيف فسد الآن؟ ثُم ما هي المُشكلة أن أعمل لصالح الوفد؟ أليس هو حزب الشارع والناس؟ وأليس ذلك أطهر وأنبل من العمل لصالح السراي؟

تذكر كيف ساقته الأقدار أن يعمل يومًا سكرتيرًا في مكتب مكرم عبيد قبل خمسة عشر عامًا مضت قبل أن يصبح بعد ذلك مفتشًا بوزارة المالية، ثُم يتوّج طموحاته بنيل مقعد وزير المالية نفسه. وفكَّر في المنشور مُقررًا كعادته اعتزاله السياسة وتفرغه للتجارة وتعليم جيل من الشباب العلوم الإنجليزية الحديثة ليقودوا مصر يومًا في دروب التقدم. كان هذا هو الدافع الذي من أجله أنشأ جمعية النهضة واختار لها مقرًا مميزًا بشارع عدلي ليجذب أصحاب الألباب الناضجة من الشباب والفتيات. «لقد تركت لكم حلبة السياسة كُلها. اشبعوا بها». قالها في سره عندما وصلت السيارة إلى مُبتغاه.

شعر الرجل بتحرره وهو يهبط من سيارته أمام بناية فخمة على

الطراز المعماري الأوروبي، مُقدرًا قرار اعتزال العمل العام والتفرغ للتجارة، الذي اتخذه بعد مناقشات مُستفيضة مع رفيقة حياته «كاترين»، تلك التي أحبته بجنون، فمنحها قلبه وحياته وأعصابه وتشاركا معًا في الطموحات والآمال. لأجلها وصمه البعض بالخائن أو «زوج الست»، لكنه لم يأبه كعادته، مُعلنًا أنَّ الأسد لا ينبغي أن يلتفت لخربشة الفئران في جحورها.

عبر بُخطى ثابتة داخلًا إلى العمارة المقصودة وعلى وجهه ابتسامة مُعتادة صارت لصيقة بوجهه. نظر إلى المصعد وتوقَّع أن يكون مُعطلًا كالعادة، ثُم تذكَّر نصائح زوجته بضرورة الصعود عبر السلالم لتنشيط الدورة الدموية كُلما أمكن ذلك. سمع خطوات مُسرعة خلفه، لكنَّه كعادته لم يكترث وواصل صعوده حاملًا في يمينه حقيبته السوداء، ونظر في الساعة فوجدها السادسة والنصف، لكن أذنيه أنكرت اسمه منطوقًا بصوتٍ عالٍ. مَن هذا الذي يُناديه باسمه مُجردًا من لقب باشا؟ الصوت لشاب في مُقتبل العمر، ربما أحد أعضاء الجمعية من الشباب، فكَّر، لكنَّه لام جيلًا بأكمله على الجليطة وعدم احترام الأكبر سنًا.

ـ يا أمين يا عُثمان.

للمرة الثانية سمع اسمه عاليًا، بصوت كريه، كنعيق الغربان. ثُقب في السماء ينزف دمًا أسود. فكر للحظات شاعرًا بدبيب الخطر يزحف مُحاصرا. لن يكترث كالعادة، لكن الفضول دفع رأسه للالتفات، ليشهد عينين ذئبيتين تُطلقان نارًا. ثلاث رصاصات كفيلة برسم نهاية مأساوية لطالب خير اجتهد من أجل بلاده فأساءوا فهمه، ثلاث رصاصات كافية لإنهاء قصة حُب بين اثنين من بلدين شاء القدر أن يتقاتلا ويحتل أحدهما الآخر، ثلاث رصاصات تصلُح لإسعاد آلاف الخصوم والساسة وغوغاء الأرض. الأولى في الكتف اليسرى، والثانية في اليمنى، والثالثة حفرت طريقًا ضيقًا بين أمعائه.

جلس مُرغمًا، وشلال الدم يغسل سلالم العمارة، ولمح ابتسامة انتصار على وجه القاتل، الذي ببرود شديد وضع يده بالمسدس في جيبه وخرج ماشيًا بهدوء.

لم يعرف «أمين عثمان» بعد ساعات من نقله إلى مُستشفى مورو أنَّه ميت إلا بعد أن سمع نحيب «كاترين» وهي تصرخ فيمن حولها:

ـ افعلوا شيئا. أتوَسل إليكم.

لا توسلات ولا شفاعة. النهاية هي دائمًا ما لا تتمناها أو تنتظرها.

***

سريعًا أتوا. كان «حسين» يتوقع قدومهم، خاصة بعد أن علم أنَّ ضحيته قضى نحبه سريعًا في مُستشفى مورو. لم يكد يجلس على مكتبه مُدخنًا سيجارة قبل النوم حتى سمع أصوات الخُطى تدب بقوة داخل المنزل، وصوت أمه تصرخ فيهم مطالبة باحترام غياب توفيق باشا عن المنزل. هل حصل الوالد الفاضل على الباشاوية؟ سأل «حسين» نفسه ولم يُجب، عندما بادره أحد الرجال ضخام الجسم مُطالبًا إياه بالثبات دون حراك. اعتدل «سعيد» من فراشه راميًا من يديه مجلة «الاثنين» ومُنتبها لقول أحد المُقتحمين:

ـ معنا أمر بضبط حسين توفيق وشقيقه سعيد توفيق.

علا صوت السيدة «سميرة»، لكن أحد الرجال قال في هدوء:

ـ هل تنتظرين خارج الغرفة حتى ينتهي التفتيش؟

انصاعت بعد أن قرأت في عيني حسين نظرة غامضة تعرفها جيدًا. كان يقول لها إنَّهم على حق. أنا القاتل، الفاعل، مَن ضغط على الزناد، مَن حاكم الخائن، ومَن نفذَّ الحُكم. أنا يد العدالة أيها الخدم، قتلت عدوكم وعدو الناس، مثلما قتلت قبله عساكر

وموظفين إنجليز. تذكرت حديثها له قبل أيام عندما أخبرته بضرورة الاهتمام بدروسه لطمأنة والده الذي يلازمه قلق دائم تجاهه وتجاه مستقبله، حينها قال لها إنَّه يعرف مُستقبله، وأنَّه حريص عليه. لم تكن تتصور أن ذلك المستقبل هو توجيه السلاح نحو أي شخص حتى لو كان عدوًا.

ـ وجدت هذا.

قال أحد الرجال موجهًا حديثه لشخص آخر، وهو يشير لمُسدس، فقال:

ـ يُحرّز.

استمر التفتيش نصف ساعة بينما وقف حسين في مكانه مُدخنًا سيجارة خلف أخرى وبدا وجهه أشبه بصخرة مُصمتة مُنتظرًا السير معهم إلى حيث الجحيم المُنتظر. توقع أن يرى «محمد إبراهيم إمام» رجل البوليس الذي حدثه عنه السادات، لكنه لم يكُن يعرفه. جمعوا عددًا من الرصاصات المتفرقة، ومسدسين، وجريدة الإجيبشيان جازيت، وجريدة المصري، وورقة يانصيب، وعدة ولاعات، ومفكرة بها رسوم لميادين العتبة والجيزة وباب الحديد.

اقتيد المُتهمان إلى مبنى سجن الأجانب حيث وُضعا معًا في غُرفة نصف مُظلمة وضيقة. بدا الوهن والاضطراب على وجه سعيد، لكن وجه شقيقه الأكثر تماسكًا دنا منه قليلًا وهمس:

ـ اصمت تمامًا. لا تُجب عن شيء.

ظلوا دقائق لم تطل حتى تم استدعاؤهما إلى مكتب وكيل النيابة، والذي قدَّر «حسين» عمره بأربعين عامًا، قبل أن يقرأ اسمه على لافتة خشبية صغيرة «كامل القاويش». قال في نفسه: لو قدر لي أن أقتلك سأفعل.

ـ حسين توفيق أحمد وسعيد توفيق أحمد. أنتما متهمان بقتل

أمين باشا عثمان مساء أمس بشارع عدلي.

نطق وكيل النيابة في تريُّث محاولًا قراءة وجهي المتهمين بعد سماع الاتهام، لكنَّه لم يلحظ أي تغير ولا حتى طرفة عين. نظر إلى «سعيد» الواقف أمامه محنيًا رأسه إلى الأرض، وقال بصوتٍ عالٍ:

ـ أنت يا ولد متهم بجريمة عقوبتها الإعدام شنقًا. ما قولك؟

هزَّ رأسه باكيًا وقال:

ـ لم أفعل شيئًا.

وعلى مدى دقيقتين تكررت النظرات وتكرر الرد نفسه عدة مرات قبل أن ينتقل وكيل النيابة ناظرًا بعينيْ ثعلب نحو حسين قبل أن يقول:

ـ يا حسين أنت في موقف صعب. لقد شاهدك أفندي حاملًا المُسدس وأنت تخرج من عمارة المجني عليه، ثُم هتف: أمسكوا القاتل فجريت.

ـ لم يحدُث.

قالها «حسين» بثبات غريب استفز وكيل النيابة فواصل:

ـ لو قُلنا إنَّ الأفندي كاذب، فهناك كونستابل في ميدان الأوبرا رآك وأنت تجري وخلفك المارة وألقيت عليهم قُنبلة.

ـ لم يحدُث. يخلق من الشبه أربعين.

نفس الثبات، استفز وكيل النيابة، لكنَّه حاول تمالك أعصابه ثُم دعا «حسين» للجلوس، بعد أن طلب من العسكري الواقف بغرفته أن يعيد «سعيد» إلى زنزانته، ثُم مدّ يديه بسيجارة رويال إلى «حسين» سائلًا إن كان يود التدخين، فوافقه.

ابتسم «كامل القاويش» قبل أن يرُد على اتصال هاتفي قال فيه:

ـ نعم إمام بك. إنَّه أمامي. هو سيساعدنا.

وعاد مُحدثًا «حسين»:

ـ نحن نعرف يا حسين مقدار وطنيتك. أنت ولد طيب وابن ناس طيبين. ونعرف أنَّ البعض استغل حماسك لدفعك لإطلاق الرصاص على أمين باشا. إنَّك لم تكن تقصد أن تقتله، لكنها إرادة الله.

ابتسم «حسين» نافثًا دُخانه بعصبية في الهواء قبل أن يقاطع الرجل قائلًا:

ـ أنا لم أقتل أمين عثمان.

حاول وكيل النيابة استرجاع ما تعلمه في مادة علم الإجرام ليُحدد على وجه الدقة قدرات الولد الصغير الجالس أمامه، وفكر صامتًا للحظات قبل أن يسأل:

ـ إذن قُل لي: ما هو رأيك في أمين عثمان؟

ـ خادم.

هزَّ وكيل النيابة رأسه مُستبشرًا وقال:

ـ عظيم. خادم وخائن.

هزَّ «حسين» رأسه موافقًا، فأكمل الآخر:

ـ ويستحق الموت؟

ـ نعم.

ـ إذن فقد قتلته؟

بثبات غريب أجاب:

ـ هو يستحق الموت وأنا أراه خائنًا، لكنَّني لم أقتله.

ثم أضاف ببعض البرود:

ـ لا أعتقد أنَّه يمكن أن يحاكم إنسان لأنَّه تمنى قتل إنسان.

ران بعض التوتر على وجه «كامل القاويش» فعاد للسؤال:

ـ أين كُنت أمس في الساعة السادسة والنصف مساء؟

ـ عند خالتي.

ـ ماذا كنت تفعل عند خالتك؟

ـ كُنت أجلس مع ابن خالتي محمد إبراهيم كامل.

ـ هل هو زميلك في الدراسة؟

ـ لا، طالب في مدرسة الحقوق، لكنَّنا أصدقاء.

علا صوت وكيل النيابة مرة أخرى وهو يسأل:

ـ ماذا كنتما تفعلان؟

ابتسم «حسين» ابتسامة هادئة وقال:

ـ كُنا نُدخن ونتحدث.

سأل وكيل النيابة مرة أخرى:

ـ ومتى عُدت إلى المنزل؟

ـ السابعة مساءً.

هدأت ملامح وكيل النيابة وبدا أنَّه تذكر أمرًا ما، ففتح درج المكتب وأخرج كيسًا يُغلف مُسدسين وقال:

ـ لماذا تحتفظ بهذين المُسدسين في مكتبك؟

قتل حسين سيجارته في منفضة زجاجية أمام وكيل النيابة، ثُم قال بعد أن رمى الرجل بنظرات وعيد:

ـ نلعب بهما.

ـ كيف وصلا إليك؟

ـ قُمنا بشرائهما من أحد حرس المعسكرات الإنجليزية.

ـ مَن هو البائع؟

ـ لا أتذكره.

ثُم قال بنظرة غضب:

ـ أنا مُتعب، وأريد أن أنام.

تذكر لحظة إطلاق الرصاص على الخائن، كان تنفيذًا مُحكمًا، فبعد إشارة من بطارية «محمود الجوهري» عرف بوصول سيارة الهدف، ودخل خلفه العمارة، وفي الشارع الخلفي كان يقف «محمود مراد» و«محجوب» و«سيد» و«عمر» مؤمنين ومعاونين. خرج واضعًا يديه في جيبي بنطاله، لكن أحد المارة صاح بالناس: امسكوا القاتل. امسكوا المجرم، فجرى وخلفه جمع من السُذج يحاولون الفتك به، أطلق عدة رصاصات في الهواء، لكنّهم ظلوا يطاردونه حتى فاض به وقرر استخدام قنبلته، فرمى بها على الأرض لتنفجر ويتفرق على إثرها المطاردون.

نظر «حسين» نظرات ذات مغزى إلى «كامل القاويش» وقال له:

ـ أنا من حقي ألا يتم استجوابي وقت النوم.

خبّط وكيل النيابة بيد غليظة على المكتب وهو يصيح:

ـ هل عرفت حقك أيها القاتل؟

ـ حتى الآن. ليس من حقك يا رجل القانون أن تصفني بالقاتل.

هزَّ رأسه موافقًا وقال:

ـ معك حق.

ثم نادى حارسه، وقال له:

ـ أرجع الأستاذ حسين إلى غرفته. وأردف بعد هنيهة:

ـ الرجل يحتاج الراحة، فغدا أمامه يوم عصيب.

ثم قال لكاتبه:

ـ يُستدعى محمد إبراهيم كامل ابن خالة حسين توفيق، ويستدعى وفيق بك أحمد.

ونظر إلى المُسدسين مُندهشًا كيف تمكن هذا الشاب الصغير من

الإمساك بآلة القتل! ثُم كيف واتته الجرأة أن يضغط على الزناد!

***

في الصباح استيقظ «حسين» على صوت فتح باب زنزانته، تلك الحجرة المستطيلة التي تضم ثلاثة أسرة ودلوًا صغيرًا في أحد الأركان، فوجئ بالحارس يضع صينية بها ثلاثة صحون في أحدها فول، وفي الآخر جبن أبيض، وفي الثالث عسل أسود بالطحين. فوجئ أيضا بصُحف الأهرام والمصري والسياسة. شعر بغبطة النصر وهو يلمح مانشيت الكتلة يقول «مصرع أمين باشا عثمان برصاص مجهول» وسرت الطمأنينة في جسده، وهو لا يجد الجحيم المنتظر الذي حدثه عنه أنور السادات يومًا. فكر كيف تلقى «السادات» النبأ؟ هل هو سعيد بنجاح مجموعة الشباب الذين كان يعتبرهم صغارًا بقتل الخائن؟ وابتسم وهو يوقظ شقيقه النائم، ثُم أمسك صحيفة الأهرام ليقرأ تفاصيل الخبر.

قال لنفسه إنَّ توصيل رسالة للناس بخيانة أمين عثمان هو أفضل ما في الأمر. وجد علبة سجائر بين الصُحف، فتحها وأشعل واحدة، وهو يستمتع بقراءة الحادث. علا صوته محاولًا إيقاظ شقيقه الغائص في نوم ثقيل: «.. وقد لفظ المرحوم أنفاسه الأخيرة بعد ثلاث ساعات من وصوله إلى المُستشفى، وقد زاره فور وصوله دولة الرئيس «مصطفى باشا النحاس»، ومعه «فؤاد سراج الدين»، والسيد السفير «مايلز لامبسون»، وحاول الأطباء إنقاذ حياته، لكن محاولاتهم باءت بالفشل. وصرح السيد «محمد كامل القاويش» وكيل النيابة بأنَّه تم القبض على أحد المُشتبه فيهم، وأن التحقيقات الابتدائية كشفت أن وراء الحادث منافسة على علاقة بإحدى سيدات المجتمع و...».

ولم يستطع «حسين» أن يُكمل فصرخ بأعلى صوته:

ـ لا. هذا كذب. هذا كذب. كذب.

ثم بصوت مبحوح:

ـ نساء؟ سيدة؟ افتراء. افتراء.

واستيقظ شقيقه مذعورًا ليجده يرن بقوة بصينية الإفطار على باب الحبس مناديًا:

ـ يا وكيل النيابة. يا وكيل النيابة: أنا قتلت الخائن. قتلت أمين عثمان. قتلته لأنه تحالف مع الإنجليز.

ثم صاح في الحارس البادي من قضبان الحجرة قائلًا:

ـ افتح لي. أريد النائب العام. أنا قاتل الخائن.

كرر الصراخ بصوتٍ عال، حتى فُتحت الزنزانة وأطل منها وجهان لرجلين أحدهما لوكيل النيابة، بينما كان الآخر هادئا وصارمًا ومُطابقًا لوصف «أنور السادات» عن اليوزباشي «إبراهيم إمام». كان يبدو بارد الملامح وهو يُحدّق بعين متفرسة في وجه حسين الذي شعر أنّه أمام ثعلب البوليس السياسي الذي طالما سمع عنه.

فكر «حسين» قليلا قبل أن يسأل:

ـ هل أنت اليوزباشي إبراهيم إمام؟

هزَّ الرجل رأسه وعلى وجهه ابتسامة هادئة، قبل أن يقول «كامل القاويش»:

ـ نعم. حضرة القائمقام محمد إبراهيم إمام. واضح أنكما تعرفان بعضكما.

هزَّ الضابط رأسه نافيًا وقال بهدوء:

ـ لم أتشرف من قبل.

ثم ألقى نظرة على «سعيد» الواقف خلف «حسين» وقال:

ـ أهلا وسهلا يا حسين. سأترككما لتتحدثا.

سار «حسين» إلى جوار وكيل النيابة عابرا ممرا يُفضي إلى مكتبه، جلسا هادئين قبل أن يقول «كامل القاويش»:

ـ ها. احك لي يا حسين ماذا جرى.

هزَّ «حسين» رأسه مُطيعًا، وقبل سيجارة من محدّثه قبل أن يسترسل في سرد كُل شيء عن جماعته الوطنية. بدأ منذ حادث إحراق سيارات المعسكر الإنجليزي، ثُم ضرب العساكر واحدًا بعد الآخر ووصولًا إلى الاعتداء على «مصطفى باشا النحاس». كانت عينا المتهم تفيضان ألقًا وفخرًا وهو يتحدث عن فلسفة المقاومة، وردع الخونة، قبل أن يسأل وكيل النيابة في حدة، إن كان لا يرى أنَّ الإنجليز أعداء، فابتسم الرجل وقال إنَّه غير معني بالإجابة لأنه وكيل نيابة، وهو وحده الذي عليه توجيه الأسئلة. كان من الواضح أنَّ القاويش أوقع به بعد أن صرح للصحف بأنَّ النساء هُن سبب الحادث، لذا فقد اندفع «حسين» كاشفًا كُل شيء بحدة وافتخار. تحدث عن المشاركين معه في اغتيال أمين عثمان، وغيرهم المشتركين في محاولة قتل النحاس، ثُم باقي أفراد الجماعة، مُكررًا أن الغرض هو تحقيق استقلال مصر ومطاردة الخونة. فتح «كامل القاويش» نوافذ الاسترسال أمام «حسين» بسعادة، ثُم سأله في النهاية عن سبب وصمه لـ«أمين باشا عثمان» بالخيانة، فأجاب:

ـ كُل الناس تعرف خيانته.

ابتسم بمكر وسأل:

ـ هل واجهته؟ هل منحته حق الدفاع عن نفسه؟

ردَّ «حسين» بحدة:

ـ لقد سمعت دفاعه بنفسي في رابطة النهضة.هو خائن لبلده وعقوبة الخيانة هي الموت.

نظر وكيل النيابة بتركيز إلى وجه المتهم وسأل:

ـ ماذا يعمل والدك؟

ـ وكيل وزارة المواصلات.

هزَّ رأسه وسأل:

ـ هل لو اكتشفت خيانته ستقتله؟

ران صمت على شفتي «حسين»، لكن سرعان ما قال:

ـ نعم، بكل تأكيد.

ـ إذن لمَ لم تقتله؟ وهو في منصب وكيل وزارة المواصلات يضع جميع خدمات البلاد تحت تصرف الإنجليز.

لم ينطق، وفكر أنَّ الأمر مختلف، لكنَّه تذكر كم يحتقر والده. لقد كان يحب توفيق الآخر، السابق، الوطني، المُتقد غيرة على بلاده، والذي شارك في خلية اغتيال بطرس غالي قبل أكثر من ثلاثة عقود.

أنهى «حسين» اعترافاته ثُم خرج من الحجرة ليصطحبه الحارس إلى حجرة أُخرى وجد فيها القائمقام إبراهيم إمام الذي بدت ملامحه أكثر صرامة، فجلس، لكنَّ صوتًا زاعقًا أمره بالنهوض مرة أخرى قائلًا:

ـ قُم. لم أسمح لك بالجلوس.

اهتزَّت أوصاله قليلًا، لكنَّه سرعان ما سيطر على أعصابه، حتى قال له الضابط:

ـ لقد أخبرني سعيد أنَّك تعرف الحاج محمد.

ـ سعيد؟ متى؟

ـ لقد حققت معه وأنت عند وكيل النيابة.

هزَّ رأسه مُستسلمًا:

ـ نعم أعرفه. محمد أنور السادات. إنه يُحبك ويحترمك.

ـــ عظيـم. أريـد أن أرُد لـه هدايـاه إلي، وهـذا لـن يحـدث إلا بعـد أن تُخـبرني كيـف أجـده.

وأشار بيده إلى الكُرسي وقال:

ـ اجلس أستاذ حسين. تفضل.

جلس بهدوء وقال له:

ـ سأخبرك بكُل شيء.

***

اعتـاد القائمقـام «محمـد إبراهيـم إمـام» بحـث القضايا وقـت الشروق، مُسـتبشرًا كعادتـه بسـاعات البكـور الـتي علمـه والـده أنهـا الأكـثر نفعًـا وبركـة. جلـس في مكتبـه وبـين أصابعـه قلـم منتمـور أهدتـه لـه زوجتـه قبـل أيـام يُشـخبط ويرسـم عـلى ورق أبيـض، مُفكـرًا في تفاصيـل أكـبر قضيـة يُحقـق بهـا مُنـذ التحـق بالبوليـس السـياسي. كان أمامـه خيـوط عديـدة تؤكـد أنَّ هُنـاك جُنـاة خـارج الحبـس فكـروا وخططـوا وأمـروا، وأنَّ الصبيـان الذيـن وقعـوا ليسـوا سـوى شـباب سـاذج يُسـاق دون درايـة.

لقـد اعـترف «حسـين توفيـق» عـلى زملائـه «محمـود يحـيى مـراد»، و«محمـد إبراهيـم كامـل»، و«عمـر أبـو يعـلى»، و«محجـوب »، و«سـيد»، و«الشـافعي»، و«محمـود الجوهـري» وشـقيقه «سـعيد»، وابـنيْ خالتـه «نجيـب» و«مدحـت»، لكـن يبـدو أنَّ هُنـاك تنظيمـات أخـرى موازيـة في الخـارج تعمـل لدعمهـم وإفسـاد القضيـة، وإلا كيـف يمكـن تفسـير سلسـلة الحـوادث الغريبـة الـتي جـرت عـلى مـدى عـدة شـهور بعـد القبـض عـلى جماعـة حسـين توفيـق؟ هكـذا تسـاءل مُتذكـرًا كيـف أعقـب القبـض عـلى «أنـور السـادات» تعـرُّض «عبدالعزيـز أفنـدي» الشـاهد الرئيـس في القضيـة الـذي رأى «حسـين توفيـق» أمـام مـسرح

الجريمة للتهديد ثُم لإطلاق الرصاص عليه، ثُم تعرضت أوراق القضية نفسها للسرقة من جانب شاب غامض كان يسير وراء حاجب المحكمة ثُم اختطف منه كل ما يحمله من أوراق. كما تعرض شاهد آخر في القضية هو كونستابل ميدان العتبة لإطلاق رصاص عليه من مجهولين مما دفعه للعدول عن شهادته مُدعيًا أنَّه لا يستطيع التيقن من الجاني.

طقطق «إبراهيم إمام» أصابعه وهو يستعيد مشهد «توفيق بك» في أول استدعاء له وهو مُستسلم لفكرة قيام ابنه بقتل أمين عثمان، والقول بأنَّ ابنه مُصاب بمرض بشبكية العين يؤثر على قواه العقلية، ثُم تراجعه في ساحة المحكمة عن أقواله، ورد الاتهام بأنَّ ابنه تعرض لضغوط شديدة من البوليس السياسي للاعتراف بما لم يرتكب.

رسم وجهًا عريضًا مسحوبًا لأسفل وحوله وجوه صغيرة مُبتسمة مُندهشًا كيف تلاعب هؤلاء الصبية بالقضية فعاد «حسين توفيق» لينكر كُل ما اعترف به، ثُم عاد ليقول أنَّه لا يعرف أنور السادات وأن البوليس السياسي طلب منه الاعتراف عليه. لقد نجح الشبان الصغار في مد آجال القضية لأكثر من عام بعد تطوع عشرات المحامين الكُبار واستدعاء وزراء وساسة وزعماء وضباط بوليس وأطباء نفسيين. تذكر الضابط ذا العقل المُتقد والمُحب للقراءة والثقافة. مقالات لصحفيين كثيرين انتهت إلى أنَّ محاكمة «حسين توفيق» وزملائه تحولت لمحاكمة لأمين عثمان، فأصبح أكبر آمال أنصاره هو أن يحصلوا له على البراءة من تهمة الخيانة.

قال «إبراهيم إمام» لنفسه وقلمه المنتمور يواصل الشخبطة على الورق إنَّ هُناك ثعلبًا وداهية كبيرا يُمثل وسيط جميع التنظيمات الإرهابية في مصر هو «أنور السادات»، الذي لا يخلو تنظيم يساري أو فاشي أو ديني من وجوده ولا يغيب عمل إرهابي عن علمه. إنَّه

شخص موهوب في الإقناع، ومُخضرم في العمل السري، يعرف ما يريد، ويحقق ما يُخطط له، بأيدي غيره بينما تظل يداه دائمًا مغسولة من الدماء. مُنذ صار «السادات» غريمه وهو يعي أنَّ هذا الرجل نافذ ولديه شبكات لا حصر لها من الإرهابيين والقتلة والمنتشين بحلم الثورة. سأل نفسه: لحساب مَن يعمل السادات أو الحاج محمد كما يحلو للبعض تسميته؟ لثوار حقيقيين؟ للألمان؟ للإخوان؟ أم للسراي نفسها؟ أو ربما للإنجليز؟ لكن كيف؟

تذكر كيف بدأت متاعبه مع القضية مُنذ الأسبوع الأول عندما نادى المتهمون المحتجزون في الغرفة رقم 10 بسجن الأجانب على الحارس وهم يصرخون مُطالبين بسجائر، وعندما فتح الباب فوجئ بضربه بُقلة مياه شج رأسه على إثرها، ثُم استولوا على سلاحه، قبل أن يسمع هو الجلبة خلال مروره ويطلق رصاصًا في الهواء لإخافتهم ثُم يأخذ منهم المسدس المختطف. فكَّر كيف يدفعه الله دائمًا نحو الخطر فيُفلته ويكتب له السلامة بعد أن يرى شبح الموت مارًا أمامه. وعادت به ذاكرته إلى سنوات مضت كان فيها محل تقدير وامتنان قياداته لجرأته وخوضه للمخاطر دون تردد حتى أنَّه تلقى رصاصة في الصدر يومًا ما عندما نجح في إنقاذ المطربة أسمهان من القتل على يد زوجها.

قبل أيام قالت له زوجته إنَّها تشعر بالقلق عليه خوفًا من تعرضه لاعتداء خاصة بعد أن أبلغها بنظرات الوعيد التي رماه بها «السادات» خلال شهادته في المحكمة وتعليقه على الشهادة بأن هذا الكلام لا يقوله إلا إنجليزي. قالت له إنَّها تُقدر وطنيته وإخلاصه لعمله لكنها تعلم أنَّ مُدعي الوطنية عميان، فأجاب بأنَّه اعتاد السير في الظلام في حقول الألغام.

واصل الشخبطة على الورق وهو يُقرر أنَّه لا يعرف مع مَن يلعب هذه المرة؟ إنَّ القضية تبدو بسيطة بوجود أكثر من 50 متهمًا

معظمهـم طـلاب في المـدارس والجامعـة ويقودهـم شـاب أهـوج نرجسي مفتـون بنفسـه، لكنهـا في حقيقـة الأمـر معقـدة للغايـة، خاصـة عندمـا يتعـرض شـهود القضيـة للإرهـاب وتتحـول الصُحـف لنـشرات تعظيـم ومديـح للجنـاة، ويطـول أمـد القضيـة ويصبـح هـو وبـاقي أفـراد البوليـس السـياسي مُتهمـين في حاجـة لدفـاع أمـام الـرأى العـام. لقـد كان مُدهشًـا أن تتقـدم إحـدى الفتيـات بطلـب زيـارة للمتهمـين عارضـة الـزواج عـلى واحـد منهـم هـو «محمـد إبراهيـم كامـل» باعتبـاره فـتى أحلامهـا.

وتذكـر الضابــط صـولات جيـش المُحامـين المُحتشـد للدفـاع عـن المُتهمـين ونجاحهـم في الإفـراج عـن عـدد مـن المتهمـين بعـد تراجـع «حسـين توفيـق» عـن أقوالـه فخـرج في المـرة الأولى «جـول أسـود» و«محمـد إبراهيـم كامـل» و«عزيـز ديـاب»، ثـم في المـرة الثانيـة تـم الإفـراج عـن «محمـد خليفـة» و«أحمـد خـيري» و«عبـاس المرشـدي» و«محمـد الشـافعي». وفكـر أنَّ الأيـام القادمـة مـن المُحاكمـة سـتكون صعبـة ومريـرة.

***

ابتسـم صاحـب الوجـه الأسـمر ابتسـامة انتصـار وهـو يُصافـح بعينـين صافيتـين عيـون شـباب أسـن يرونـه أسـتاذًا ومُلهمًـا. كانـوا يُنادونـه بحـضرة اليوزبـاشي، لكنـه كـرر لهـم مـرارًا أنَّـه صـار خـارج الجيـش وبـأنَّ اسـمه مُنـذ عـدة سـنوات صـار «الحـاج محمـد». كان المُتهمـون في قضيـة «اغتيـال أمـين عُثمـان» عائديـن إلى السـجن بعـد زيـارة اعتادوهـا للمحكمة لحضـور إحـدى الجلسـات عندمـا حـكى لهـم «الحـاج محمـد» عـن روعـة السـجن ومُتعـة القُضبـان، كان يسـتثير حماسـهم وخيالهـم وهـو يكـرر لهـم أنَّ مُعظـم الأبطـال والزعمـاء التاريخيـين دخلـوا السـجون، وعاشـوا سـنوات محرومـين مـن الحريـة. ذكـر لهـم ضرورة توزيع جميـع المأكولات

والحلويات التي تأتي لهم من ذويهم على جميع المتهمين، وكذا السجائر.

وطلب منهم الرجل تكوين فريق تمثيل لأنَّ أمد المحاكمات ستطول، وبالفعل اقترح عليهم تمثيل مسرحية عن الخليفة هارون الرشيد كتبها خلال أيام الحبس الأولى، وقام بتوزيع الأدوار ليحتفظ لنفسه بدور هارون، ثُم اختار دور السياف لـ«حسين توفيق»، ودور كبير الحجاب لـ«سعيد توفيق»، ودور اسحق الموصلي لـ«عمر أبو يعلى»، ودور رئيس وفد الإفرنج لـ«محمود يحيى مُراد»، ودور قهرمانة لـ«سيد خميس». تبدأ المسرحية بقيام هارون الرشيد بدعوة الجارية قهرمانة للغناء فتشدو بأغاني تمجيد في قوة وعدل الخليفة ليطرب الحاضرون، ويطلب هارون اعادة الغناء مرة واثنتين وثلاثاء، ويقاطعه كبير الحجاب مستئذنا في دخول وفد الإفرنج، ليدخل رئيس الوفد ومعه هداياه طالبًا من الخليفة التعاون مع بلاده فينفعل مسرور السياف، ويقول للخليفة إنَّ الإجانب لا يحفظون العهود ولا يحترمون الحدود، ويطلب أن يسمح له الخليفة بقطع رأس رئيس وفد الإفرنج، فيُهدئ الخليفة من غضب سيَّافه ويؤكد له أنَّه لا يسمح بقطع رأس رسول، ثُم يأمر رئيس الوفد بالمغادرة فينطلق متبوعًا بشتائم ولعنات حاشية الخليفة، لتعود قهرمانة للغناء مرة أخرى.

بعد بدء المحاكمات صار السجن أشبه باستراحة مُنعزلة فيها جميع وسائل الراحة والترفيه، فكان المتهمون يقضون الساعات في تبادل النكات وسرد حكايات الغرام ولعب الشطرنج، وكان «الحاج محمد» بشوشًا ومُقبلًا على الحياة، مُستمتعًا بها، وهو ما دفع «حسين» إلى محاولة تقليده مُبديًا كثيرًا من المرح المُصطنع. وفي يوم طلب «الحاج محمد» حلويات من أحد أكبر المحلات ودفع حسابها، وأخبرهم أنَّ تلك الحلويات للاحتفال بنقل السفير لامبسون من مصر، مُكررًا أنَّ هذا الرجل كان أسوأ ممثل إنجليزي منذ بدء

الاحتـلال.

بـدأ «السـادات» كشـخصية سـاحرة قـادرة عـلى طمأنـة الجميـع بـأنَّ رجالـه في كُل مـكان سيفسـدون كُل شيء خـاص بالقضيـة، وسـيخرج جميـع المتهمـين دون عقوبـات تذكـر نظـرًا لحداثـة أعمارهـم. ومـع الوقـت تجـاوب المتهمـون مـن أعضـاء التنظيـم مـع مـرح ولامبـالاة السـادات، غـير أنَّ «نجيـب فخـري» الـذي رأى أنَّـه دُفـع بـه دفعًـا ضمـن المُتهمـين كان يشـعر بالنـدم لأنـه لـم ينخلـع تمامًـا عـن «حسـين» وأصحابـه عندمـا تورطـوا في أعمـال القتـل، وظـل عـلى علـم بمـا يفعلـون ومشـاركًا في التخطيـط دون التنفيـذ.

وذات يـوم فوجـئ المتهمـون برؤيـة شـاويش ضخـم الجُثـة، قـاسي الملامـح، وحـاد النظـرات في حـوش التريُـض، ودنـا منهـم سـائلًا إن كانـوا هُـم المُتهمـين بقتـل أمـين باشـا عثمـان فهـز «محمـود مـراد» رأسـه بالإيجـاب، ففوجـئ بـه يُخـبره أنَّـه عشـماوي. ولمـا التـف حولـه بـاقي الجماعـة قـال لهـم إنَّـه ينتظـر الحُكـم عليهـم بفـارغ الصـبر لأنَّـه مرَّ عليـه وقـت طويـل لـم يُنفِّـذ فيـه حُكـم إعـدام، ثُـم بـدأ يصـف لهـم كيفيـة تنفيـذ الإعـدام واصفًـا لهـم سُـمك الحبـل وطريقـة لفـه حـول الرقبـة، ولحظـة رفـع مقبـض طبليـة الإعـدام، وشـهقة المُذنـب وهـو يلفـظ روحـه، بعـد أن تنكسر رقبتـه نتيجـة الشـنق. وحـكى لهـم كيـف كان مُسـاعدًا لعشـماوي وقـت إعـدام شـفيق منصـور في قضيـة الاغتيـالات قبـل أكـثر مـن عشريـن عامًـا وتابـع بـكاء المُذنـب عنـد تغطيـة عينيـه بكيـس أسـود.

كان لوقـع الكلمـات في نفـوس الشـباب الصغـير أثرهـا الموجـع إذ بـدأوا لأول وهلـة يتخيلـون أنَّـه مـن الـوارد الحكـم عليهـم بالإعـدام، ولـم يسـتطع «حسـين» رغـم دعابـات «السـادات» أن يمحـو مـن رأسـه مشـهد المشـنقة وبذلـة الإعـدام الحمـراء وهـي تلتصـق بجلـده. كان يـرى أنَّـه لـم يُحقـق بعـد مـا تصبـو إليـه نفسـه مـن إشـعال الثـورة وقيـادة البـلاد

وتحقيق العدل والمساواة على الأرض الطيبة التي أحبها رغمًا عنه. فكَّر كثيرًا في أمه الملهوفة عليه دائمًا والمُنصاعة لمطالبه والمُبررة لأفعاله أمام والده، وشعر كم هي تُحبه، لكنَّه لا يُبادلها ذات الشعور رُبما لجذورها التُركية أو تكبُرها على الخدم والبسطاء. راجعت ذاكرته مشاهد والده وهو يؤنبه مرارًا على إهماله لدروسه، مُستقربًا بين عينيه نظرات حنان مكتوم، ومُقنعًا نفسه بأنَّ الأب مهما كان حُبه لأبنائه يجب أن يبدو قاسيًا حتى تستقيم له القيادة، وهو نفس حال الزعيم الذي لابد أن يحمل قدرًا من الحدة حتى يتسنى له تنفيذ أفكاره. تذكر «حسين» وجه «سناء» شقيقة صديقه وزميله في الكفاح «محمود مراد» وتساءل إن كان سيراها مرة أخرى أم لا؟ وهل هي مُعجبة ببطولته؟ هل تشتاق لرؤيته كما يفعل؟ قال إنَّ الحُب كثيرًا ما يختنق في بلاد القهر وأزمنة الكفاح، لكنه لا يُمكن أن ينخلع تمامًا عن النفس الإنسانية لأن الله خلق لكل إنسان قلبًا، وزرع في كل بني البشر مشاعر وأحاسيس. كان يعلم أنَّ علاقته بـ«ميمي» لم تكُن علاقة حُب لكنه كان يشعر بنوع من الألفة معها، وبحالة من الاعتياد والرضا تجاهها. ترى هل هي سعيدة الآن وهي مُستلقية تحت ضابط في البوليس السياسي تئن وتتأوه تلذُذًا؟ هل تشُرها قُبلاته وهل تذوب بين ذراعيه مثلما كانت معه؟

مرَّت الأيام بطيئة، مُملة، بين جلسة وأخرى نقاشات حادة ومفاجآت عدة. توفي وكيل النيابة المسئول عن القضية فجأة، فتم انتداب غيره ليحلّ محلّه، في الوقت الذي تتابعت فيه أحداث فلسطين بسرعة بعد إعلان اليهود قيام دولة إسرائيل واعتراف الرئيس الأمريكي ترومان بالدولة الجديدة. كانت الصحف تنشر أنباء المذابح المرتكبة من جانب عصابات اليهود ضد السُكان العرب العُزل، داعية لنصرة الشعب الشقيق والتطوع لقتال اليهود، بينما اجتمعت الحكومات العربية لتنسيق التعاون والتدخل بجيوشها في فلسطين. قرأ «حسين» لزملائه مقالًا لكاتب بروزاليوسف يدعو الناس للتطوع في فلسطين،

وعلّـق «السـادات» بـأنّ مَـن فشـل في طـرد المُحتلـين عـن بـلاده لا يُمكـن أن يطـرد اليهـود عـن فلسـطين. شـعر «حسـين» أنّ السـجن يحجـزه عـن المشـاركة في قتـال اليهـود الأوغـاد مُقتنعًـا أن كُل مـا تفعلـه الحكومـات العربيـة وحكومـة بـلاده مـن بينهـم مُجـرد تمثيـل في تمثيـل مثلمـا هـو كائـن في مسرحيـة هـارون الرشـيد، وقـرر أن بقـاءه في السـجن سـينتهي بـه إلى المـوت حـتى لـو لـم يُحكـم عليـه بالإعـدام، لأنّ حرمانـه مـن ممارسـة دوره الـذي اختـاره لنفسـه في الحيـاة يمثـل حُكمـا بنهايتـه كبطـل ومناضـل. هكـذا فكّـر قبـل أن يخلُـد للنـوم في العنـبر رقـم 10 في سـجن الأجانـب.

***

عـاد «توفيـق بـك» إلى منزلـه بعـد سلسـلة إجـراءات خاضهـا هـو وعـدد مـن المحامـين للسـماح لابنـه المحبـوس في قضيـة اغتيـال «أمـين عثمـان» بالـتردد عـلى عيـادة طبيـب الأذن والحنجـرة بنـاء عـلى شـكوى تقـدم بهـا. أخـبر زوجتـه أن «حسـين» سـيكون بـين ذراعيهـا خـلال سـاعات، ثـم سـيترك مـصر نهائيـا بعـد ذلـك للإفـلات مـن مـوتٍ محتـوم. سرت دمـاء السـعادة في شرايـين السـيدة «سـميرة»، وشـعرت باسـترداد الحيـاة بعـد شـهور مـن الحـسرة والقلـق عـلى مصـير بكريهـا المشـوش نفسـيًا. اسـتفسرت منـه عمـا جـرى فأخبرهـا أنّ ضابطًـا مـن البوليـس السـياسي زاره قبـل أيـام ونقـل لـه تقديـر السراي لوطنيـة نجلـه وتشـكيل مجموعـة عمـل لإنقـاذ حياتـه وتهريبـه خـارج البـلاد. في البدايـة لـم يُصـدق «توفيق بـك» حـتى أقسـم لـه الضابـط أنّ مـا يقولـه حـق، وأنّـه يفعـل ذلـك دون علـم رؤسـائه في العمـل، وبتوصيـة خاصـة مـن جلالـة الملـك شـخصيًا. كان «توفيـق بـك» قـد سـعى لـدى عـدد مـن الأطبـاء النفسـيين لاسـتخراج شـهادات تفيـد عـدم مسـئولية ابنـه «حسـين» عـن أفعالـه بعـد أن أكـد

لـه المحامـي الكبـير الـذي لجـأ إليـه صعوبـة إفـلات ابنـه مـن حُكـم الإعـدام خاصـة أنـه شـبه متلبـس.

سـألته السـيدة «سـميرة» كيـف سـيهرب ابنهـا، فأشـار إلى الحمـام قائـلًا إنَّـه أمـر بخلـع حديـد نافذتـه ليعبُر الهـارب إلى الفنـاء الخلفـي للحديقـة وهُنـاك سـينتظره ضابـط البوليـس السـياسي بسـيارته ليأخـذه إلى مقـر آمـن لحـين ترتيـب سـفره خـارج القطـر. بـدت مُبتهجـة، مُعلنـة أنَّ اللـه اسـتجاب لدعواتهـا لإنقـاذ ابنهـا الحبيـب، مُكـررة أنَّهـا عـلى يقـين بأنـه سـيتعلم مـن تجربتـه وسـيُصبح ابنًـا يبعـث عـلى الفخـر.

مـرَّت ثـلاث سـاعات كالدهـر، وصـل بعدهـا «حسـين» بصُحبـة ضابـط وعسـكري بعـد أن ذهـب معـه إلى عيـادة طبيـب الأنـف والحنجـرة، ثُـم ترجـاه أن يتنـاول غـداءه في البيـت، بينمـا غـادر «توفيـق بـك» حـتى لا يبـدو مُتهمًـا بالتخطيـط لتهريـب ابنـه. بـدا الضابـط كمـال الديـن عـلي مُغتبطًـا وهـو يُشـاهد فرحـة السـيدة سـميرة برؤيـة ابنهـا واحتضانـه بـين ذراعيهـا، وتذكـر التوصيـة الـتي تلقاهـا مـن رئيسـه المُبـاشر بعـدم التضييـق عـلى «حسـين» خـلال اصطحابـه لزيـارة الطبيـب، لـذا فقـد اسـتجاب لرجائـه بالمـرور عـلى والدتـه المريضـة قبـل العـودة للسـجن. شـعر بالامتنـان لإلحـاح والـدة حسـين لتنـاول الغـداء معهمـا، واعتـذر مؤكـدا ضرورة العـودة قبـل الخامسـة مسـاء التزامًـا بالتعليمـات، ثُـم قبـل أخـيرًا أن يتنـاول فنجانـا مـن القهـوة المضبـوط قالـت السـيدة إنَّهـا سـتعدُه بنفسـها. نظـر الضابـط إلى «حسـين» فوجـده مُسـتكينًا كالعـادة، ينظـر لأسـفل، فتسـاءل إن كان نادمًـا عـلى مـا فعـل أم إنـه كمـا يـرِّدد دائمًـا بـريء وقـع ضحيـة عمليـة تلفيـق مُنظمـة قـام بهـا إبراهيـم إمـام. قـال لنفسـه إنَّ «إبراهيـم إمـام» رجـل بوليـس قـوي وثعلـب ماكـر لكنَّـه شريـف بالدرجـة الـتي تمنعـه مـن تلفيـق اتهـام كهـذا لـبريء. لحظـات ورأى فنجـان القهـوة يتقـدم بـين يـدي السـيدة «سـميرة»، ذات الوجـه البشـوش الـذي لا يتناسـب أبـدًا مـع الظـروف المُحيطـة بابنهـا. خمَّـن

أنَّ سعادتها برؤية ابنها منحت وجهها البشر والحيوية فبدت كزهرة بنفسج جميلة. رمقه «حسين» بنظرة استعطاف قبل أن يسأله في أدب جمّ:

ـ هل تسمح لي بدخول الحمام؟

رمى باب الحمام المواجه له بنظرة فاحصة سريعة قبل أن يُجيب:

ـ تفضَّل. لكن لا تتأخر سنغادر خلال ثلاث دقائق.

ـ كافية.

نطق «حسين» وهو يعي أنها كافية لتنفيذ ما أنبأه به والده عبر رسول يعمل في السجن. ذهب إلى الحمام وأوصده خلفه وبسرعة تدلَّى من نافذته ليمر إلى الفناء الخلفي بعيدًا عن العسكري المُصاحب للضابط المنتظر في السيارة أمام باب البيت. قفز من السور بسرعة ليجد أمامه سيارة سوداء كاديلاك ففتح بابها لتنطلق بعيدًا مانحًا السائق نظرة استفسار.

شعرت السيدة «سميرة» بضيق الضابط الذي نادى بصوتٍ عالٍ:

ـ تأخرنا يا حسين.

قامت بسرعة لتجلب للضابط ألبوم صور لابنها عندما كان صغيرًا وهي تقول:

ـ سأعرض لك صورًا عجيبة لحسين وهو طفل صغير، وستعلم يقينًا أنَّه لا يُمكن أبدًا أن يقتل فرخة.

ابتسم في دبلوماسية، وحاول التملص، لكنَّه انصاع تحت إلحاحها مُستغربًا كيف لسيدة في مثل ظروفها أن تتحلَّى بكل هذه الصلابة والقوة. جاراها في تأمل الصور للطفل اللاهي بكرة، والجالس وسط أقرانه في احتفال أشبه بعيد ميلاد، والمُرتدي لبذلة وطربوش لا يُناسبان مَن هو في العاشرة من عُمره، وتابعها مُبتسمة وهي تُقلّب

صفحات الألبوم أمامه واحدة وراء واحدة. تأخر «حسين»، فاستثقل الضابط الوقت، وقال لسيدة البيت:

ـ أنا آسف يا هانم. يجب أن نتحرك الآن.

ثم نادى بصوتٍ عال:

ـ حسين. تأخرنا يا حسين.

كرَّر النداء، فأشارت السيدة «سميرة» لصورة أخرى، لكنه سمع دبيب القلق في نبضات قلبه، فقام مُسرعًا ليطرق باب الحمام دون مُجيب، فضربه بقدمه بقوة لينفتح على خواء. نظر إلى النافذة المفتوحة، ثم قرأ في عيني السيدة نظرة طمأنينة وانتصار فصرخ بصوتٍ عالٍ:

ـ هرب. خدعتموني.

وأخرج مُسدسه وجرى في أنحاء البيت مفتشًا يمينًا ويسارًا، ودخل الغرف لينظُر تحت الأسرّة ويفتح دواليب الملابس ثُم خرج إلى الحديقة وجابها، وصرخ في العسكري الواقف أمام الباب إن كان قد رأى «حسين»، فنفى، فعاد إلى البيت وقال لصاحبته:

ـ سأطلق الرصاص على رأسي إن لم تُخبريني الآن مكان حسين.

ـ اهدأ.

قالتها في برود، لكنّه واصل الصراخ مهددًا بالانتحار، مما دفعها أن تُدير قُرص التليفون سريعًا طالبة من زوجها الحضور بسرعة.

في الوقت نفسه كان «حسين» قد هبط أمام إحدى البنايات في شارع قصر العيني، عندما قال له السائق:

ـ في هذا البيت ستصعد إلى الطابق الثالث، ستجد الباب مفتوحًا، ادخل دون كلام وانتظر التعليمات.

ضربه رصاص الدهشة، وكرر سؤالًا طرحه مرارًا خلال الطريق من مصر الجديدة إلى قصر العيني دون مجيب:

ـ مَن أنت؟

ابتسم الواقف أمامه، وقال في ثبات:

ـ سأقول لك الآن. أنا اليوزباشي محمود موسى من البوليس السياسي، لقد قُمنا بتهريبك تنفيذًا لتعليمات جلالة الملك. إنَّه يُقدِّر وطنيتك، ويُقدر أنَّك خلصت مصر من أحد الخونة. اصعد الآن، ستجد كُل شيء على ما يرام.

لم يُصدق، وجرَّ ساقيه ثلاثة طوابق نصف مُظلمة ليدخل إلى شقة واسعة مؤثثة أثاثًا كلاسيكيًا فريدًا. شاهد بيانو خشبيًا كبيرًا، وتماثيل نُحاسية بديعة، وبارًا خشبيًا، تمتد عليه عدة مقاعد مستديرة، وصالونًا ذهبيًا ضخمًا. جلس مُستغربًا، فوجد شابًا أبيض البشرة، متوسط القامة له عينان عسليتان، صافحه في اهتمام وقال له:

ـ إحسان.

ـ أهلًا.

ـ هذه غرفتك. أرجوك لا تخرج منها أبدًا، في الصباح سيأتي الخادم، وهو يعلم أنَّ هذا الغرفة مغلقة على متعلقات والدي ولا يفتحها. لكن لا تُحدث صوتًا. سأمرّ عليك كُل مرة في الصباح ومرة في المساء. وسأجلب لك كُل ما تحتاج.

سحب يدُه الدافئة وأشار إلى الغرفة قائلًا:

ـ ارتاح الآن. وأغلق الباب من الداخل.

ابتسم وشعر بحاجة ماسة للتدخين، ونظر إلى صاحب البيت وسأل:

ـ هل لديك سجائر؟

ـ لا. لكنَّك ستجد سجائرك على السرير داخل الغرفة.

الفصل الثاني
دمشق

هتفت غير مُصدقة:

ـ حسين.

واقفًا بملابس ضابط سوداء أمام باب الشقة المُنفتح، لاهثًا من صعوده سريعا على السلالم، زائغًا بعينين قلقتين تخوفًا من صاعد أو هابط. هكذا رأته سناء بعد أن توقعت ألف طارق وطارق لباب شقتها سواه.

ـ هل أدخل؟

سألها، فأسرعت لتفتح الباب وهي تهتف:

ـ تفضَّل.

دلف بخطوات مُتعبة مُتذكرًا نصيحة صديقه «سعد كامل» الذي التقاه مُتخفيًا ألا يجلس في مكان أكثر من نصف ساعة على الأكثر، خاصة أنَّ عيون «إبراهيم إمام» تبحث عنه في كل شبر يتوقع مروره به. منحها نظرات إعجاب طاغية مُتمنيا اعتصار جسدها النحيل بين ذراعيه. قالت له:

ـ قرأت خبر هروبك، وتوقعت أن تذهب إلى أي مكان إلا أن تأتي هُنا؟

جلس مُتفرسًا في وجهها الأرق لائمًا بخياله تلك الشفتين الرقيقتين، متذكرًا أنف زميله «محمود مراد» المُشابهة لهذه الأنف، ثُم سألها:

ـ لِمَ؟

قالت:

ـ لأنك لم تزرنا من قبل، خاصة بعد أن انقطع والدك عن السؤال علينا بعد وفاة ماما.

ابتسم وهو يرمقها، ثُم قال:

ـ كُنت مُخطئًا.

ـ والدتك كانت دائمًا لا تحب زيارة خالي توفيق لنا.

واصل التحديق في عينيها وقال:

ـ هي مُخطئة. دائمًا مُخطئة. المهم يا سناء الخطأ يمكن تصحيحه، وهذا هو دورنا. أن نصحح أخطاء آبائنا.

هزّت رأسها مبدية التفهم، ثم قالت:

ـ لكن لا يُمكن تصحيح خطأ بأخطاء أكبر.

ـ لا أفهم.

وقفت وسألته:

ـ ماذا تشرب أولًا؟

ـ لا وقت يسمح بشراب. أمامي خمس وعشرون دقيقة، بعدها ستكون السيارة مُنتظرة للمغادرة.

ـ إلى أين يا حسين؟

ـ خارج مصر. لكن لا عليك لقد جئت لأمر آخر. قُولي لي أولًا ماذا تقصدين؟

جلست مرة أخرى، وقالت بهدوء:

ـ أنا لا أجد وصفًا لما فعلتموه أنت ومحمود ومَن معكم سوى الجريمة. لقد قتلتم روحًا.

ـ قتلنا خائنًا. خان بلده وناسه و...

ـ ليس من حقكم. القتل لا يعني سوى القتل. لقد تألمت عندما رأيت صورة عائشة ابنة أمين عثمان في الصُحف وهي تبكي والدها.

أخرج سيجارة وأشعلها وقال لـ«سناء»:

ـ اسمعي يا سناء. كُل الأعداء بشر لهم أبناء وزوجات وعائلات، لكنَّ ذلك لا يعني أنَّهم ليسوا أعداء. في بعض الأحيان فإنَّ القتل

ضروري لخدمة الأوطان.

ـــ أنا أكره الدم عمومًا، والعنف لا يحقق استقلالًا، والقتل لا يُحرر بلدًا.

نفثَ خيطًا طويلًا من الدُخان في الهواء وقال لها:

ـــ أنتِ مازلت صغيرة لا تعرفين ماذا يفعل الإنجليز وأعوانهم بالمصريين الغلابة. إنّهم يروننا جميعًا حشرات وأغبياء وكسالى، ولا يتصوروننا سوى خدم لهم. لو لم نقتلهم سيقتلوننا.

ـــ غير صحيح يا حسين. والدليل أنَّ كثيرا من المصريين الناجحين وصلوا لأعلى المراتب ولم يتعرضوا لقتل أو اضطهاد أو تعذيب.

تذكَّر حديث الصحفي «إحسان» الذي استضافه في بيته، عندما قال إنَّه لا يقرّ ما فعله، لكنَّه يرى أنَّ الواجب يدفعه دفعًا لحمايته وإنقاذه لأنَّه لا يستطيع رد مَن يستجير به، وقد استجار به «سعد كامل» المحامي الذي يعمل ضمن شبكة مهمتها تهريبه. كرر «إحسان» أنَّه لا يجد بطولة في قتل مصري، وأن الأولى قتال اليهود الذين سحقوا شعبًا وسرقوا أرضه.

قال «حسين» لـ«سناء»:

ـــ هل تتصورين أنني حملت روحي بين كفي وخاطرت بنفسي لأجل وهم. إنَّنا نعرف جيدًا أننا مُعرضون للموت والسجن والتعذيب، لكننا نؤمن بما نفعل ونعتقد أنَّ الخلاص لا يتحقق دون رصاص. اسمعي يا سناء. يا ابنة عمتي. لقد جئت من أجل شيء آخر، أنتظر إجابة سريعة عليه قبل أن أغادر.

صمت قليلًا وهو يلحظ آثار كلماته في عينيها، ثُم قال:

ـــ إنني أودُّ أن تكوني لي. أشعر بانجذاب حقيقي ناحيتك، وأتمنى لو تقبلين الزواج مني. سأسافر غدًا مساءً، ولو وافقتِ ستكونين معي. سنبني بيتًا ونـ..

قاطعته بسرعة:

ـ سافر.

طعنة مُباغتة قبلها على مضض، قبل أن تستكمل ذبح فريستها:

ـ ألا تعلم يا حسين أنني مُرتبطة؟

ـ ماذا؟

ـ نعم أنا مرتبطة بابن خالتك نجيب، وهو شخص طموح ومُثقف وأحبه ويحبني وقد تورّط في مغامراتك رغمًا عنه.

لاح له وجه «نجيب» وهُما صغيرين وهو يؤدي دور التركي ويتلقى لكماته، ثُم تذكر حديثه معه عن أول فتاة، وأول قُبلة، فقام مُستئذنًا، لكنّها قالت له:

ـ حسين. أنت تعرف يقينًا أن مصر والغلابة الذين تتحدث عنهم لا يستفيدون مما تفعل بأي صورة. أنت تدعي التضحية، وتبحث عن مجد شخصي.

ورفعت إحدى الصُحف المُلقاة على الأريكة لتُكرر:

ـ أنت سعيد بصورك في الجرائد، وبالمكافآت المُجزية التي تُرصد للوصول إليك. أنت بطل كاذب يا حسين.

ـ لا.

صرخ فيها، وقام من فوره بعد أن شعر بالدم يتدفق في رأسه، ثُم فتح باب الشقة ليهبط مُسرعًا دون أن ينطق بكلمة. كان يشعر أنّ الحسناء التي أحبها عزّته، وأسقطته أرضًا قبل أن تطلق عليه رصاص سخريتها. تلك الجبانة المُطأطئة الباحثة عن زوج مُثقف، طموح في زمن قاهر ووطن مقهور. تذكر كلمات «إحسان» له بأنّ النساء هُنّ السؤال الذي لا يستطيع بشر أن يُحدد له إجابة واحدة. ظل يمشي ببطء حتى اقتربت سيارة سوداء منه، ثُم وقفت، ففتح بابها ليجد اليوزباشي «محمود موسى»، فاستغرب خاصة أنّ «سعد كامل» هو

مَـن قـام بتوصيلـه، لكـنَّ الضابـط أوضـح بهـدوء:

ـــ التأمـين يتطلـب تغيـير السـيارة والسـائق. تصـوّر، لقـد اسـتدعى إبراهيـم إمـام صديقنـا إحسـان ويبـدو أنَّـه يشُـك فيـه. سـتبات اليـوم في بيـت في العباسـية وفي الصبـاح سـأقلك إلى السـويس، ومنهـا ستسـافر إلى العقبـة، وسـتجد في انتظـارك ضابطًـا صديقًـا سـيعتني بشـئونك.

هزَّ رأسه وقال:

ـ خسارة. حسبت أنَّ إبراهيم إمام يعمل لصالح الملك.

ـ للأسف لا.

***

أفلـت ذو الوجـه الصـارم مـن ثُقـب إبـرة. في الميـنـاء تسـلل مسـاءً ليرقُـد مـع الحقائـب في المخـزن ذاتـه الـذي لا يُشـم منـه سـوى رائحـة الجلـد. مـضى «حسـين» مُستسـلمًا لمسـار رسـمه لـه آخـرون لا يعرفهـم ولا يعلم دوافعهـم الحقيقيـة. فكّـر. كيـف يُمكـن لملـك مُنسـحق الشـخصية يغلـب عليـه طيـش الأطفـال مثـل «فـاروق» أن يُسـخر رجـالًا وشرطيـين وبيوتـًا وسـيارات وأمـوالًا ليُسـاعدوه عـلى الفـرار مـن المُحاكمـة! مـا السـبب المُباشر في أن يتحـول حاكـم يُفترض أنـه لـه سُـلطات إلى العمـل السري بعيـدًا عـن القانـون؟ هـل هـو يـرى في قتـل «أمين عثمـان» عمـلًا بطوليًـا بالفعـل؟ ولـو كانـت الضحيـة «أحمـد ماهـر» أو «النقـراشي» أو غيرهمـا، هـل كان سـيفعل الأمـر نفسـه؟

إنَّ جميـع الساسـة في تصـور «حسـين» ملوثـون، ضالـون، يُقـدّرون الإنجلـيز وينحنـون أمـام طلابهـم، وحـتى المليـك الـكاره للإنجلـيز، هـو في حقيقـة الأمـر مجـرد شـخص خاضـع وذليـل أمـام إرادة السـفير الإنجلـيزي الـذي يتدخـل في حياتـه نفسـها دون أن يشـعره ذلـك بـشيء

من الخجل. أي مليك تافه هذا؟ وأية شرذمة جاهلة تتبعه دون وعي؟ سأل نفسه، مُجيبًا أنَّ الأوضاع المقلوبة في بعض الأحيان تفيد، وإلا لما خلَّص عُنقه من حبل عشماوي.

أشعل سيجارة، واستعاد نص الخطاب الذي كتبه للصحفي إحسان لينشره في مجلة روزاليوسف وقال فيه إنَّه قرر التطوع للقتال في فلسطين أمام عصابات الصهيونية واهبًا حياته لنصرة الشعب الفلسطيني العربي.

تذكر «حسين» لوم «سناء» الموجع، وردها القاسي عليه، وفكَّر أنَّها أنثى قبل أي شيء، ترغب في الاستقرار، وتحلم بالبيت السعيد، والزوج العصري. هي فتاة رقيقة نعم، لكنَّها لا تنظر لمجتمع محيط، ولا تهتم بوطن مسلوب. إن «نجيب» سيكون مناسبًا لها، بهدوئه واتزانه وانفتاحه على الحياة، وبثقافته ومرحه وحُبه للفنون. أما مَن تختارهم الأقدار ليغيروا التاريخ ويبدلوا مسارات الأمم فلا حظَّ لها في مثلهم، ولهؤلاء - بلا شك - نوعية خاصة من النساء، تتحمل الشدائد، ولا تعبأ بالمحن، وتؤمن بالفداء والتضحية. قال لنفسه إنَّه لا يحنق عليها، ولا يغار من «نجيب» فكلاهما خُلق لغير النضال، وهذا قدرهما.

فكَّر في «أنور السادات» وشعر أنَّه يُخفي عنه أمورًا كثيرة، متصورًا أنَّه لا يمكن أن يكون ما جرى في القضية مُجرد صُدفة. أن يُسرق ملف القضية، ويُطلق النار على الشاهد الرئيس، ويُتهم «إبراهيم إمام» بالتلفيق، ثُم يُسمح للمتهمين بزيارة الأطباء ليهرب بسهولة ويُسر قبل أيام من النطق بالحُكم، ثُم يجد يد المُساعدة تمتد إليه من داخل البوليس السياسي نفسه، وبعيدًا عن إرادة ثعلبه الداهية «إبراهيم إمام». رنا عبر قُمرة صغيرة بمخزن الحقائب لليل البحر المُظلم، مُتذكرًا ما قاله له اليوزباشي «محمود موسى» بأنَّ أحد رجال الأمن في العقبة سيلتقيه وسيصاحبه حتى عمّان، وهُناك سيرتب

نقلـه إلى الحـدود السـورية بعـد أن يمنحـه هويـة جديـدة.

ليلتـان قضاهمـا مُسـتيقظًا بـلا صُحبـة سـوى السـجائر والذكريـات، حـتى سـمع صفـارات الرسـو، وجلبـة انتهـاء الرحلـة. التحـف بالصمـت حـين فُتـح مخـزن البضائـع كحقيبـة سـفر انتظـارًا لـيـد المُسـاعدة، ثُـم شـعر بالطمأنينـة عندمـا سـمع صوتًـا في الظـلام يُهنئـه بسـلامة الوصـول. صافحـه رجـل قصـير القامـة قـدم لـه نفسـه باسـم مـروان، ودعـاه أن يتبعـه بهـدوء، فسـارا معًـا عـبر ممـرات ضيقـة خـارج القاعـة الرئيسـية بالمحطـة، واجتازاهـا بعـد تعرجـات يمينًـا ويسـارًا حـتى وصـلا إلى دائـرة الجمـارك حيـث منحـه هُنـاك أوراق هويـة وعلبـتي سـجائر وتذكـرة قطـار ومفتـاح شـقة وورقـة مدوّنًـا فيهـا أحـد العناويـن في عمّـان. نظـر لاسـمه الجديـد فوجـده «حسـين الـراوي»، فحمـد اللـه أن أبقـوا لـه «حُسـين» حـتى لا يضطـر عـلى طمـس ماضيـه ومحـو ذاكرتـه. سـأل رفيقه مُسـتفسرًا:

ـ وماذا بعد؟

قال «مروان»:

ـ سـتذهب إلى العنـوان المـدوّن أمامـك، وسـتعيش كلاجـئ فلسـطيني مـن خـان يونـس حـتى ينسـاك المطـاردون أو يتوقـف البحـث عنـك مثلمـا اتفقـت مـع «محمـود بـك مـوسى». وهُنـا، فـإن مُهمـتي انتهـت، لكـن نصيحـتي الوحيـدة لـك هـي أنـك في بلادنـا تسـتطيع دائمًـا الفـرار مـتى أردت ذلـك، مـا دمـت قـادرًا عـلى أن تدفـع.

شـكره «حسـين»، ومـضى ليبـدأ حيـاة جديـدة كغريـب فـرّ مـن مذابـح اليهـود في أرض فلسـطين.

***

عمّان بلا قلب. لا أصدقاء ولا رفاق يُخففون وحشة المنفى وكآبة العُزلة. عبر التليفون طمأن أمه بوصوله إلى بر أمان بعيدًا عن مُلاحقات البوليس والخونة وصائدي المُكافآت. علِم منها أنَّ ثمنه لدى الحكومة ارتفع لـ10 آلاف جنيه بعد أن صدرت الأحكام مُخففة على جميع المُتهمين. كان نصيبه حُكمًا غيابيًا بعشر سنوات مع الشغل، بينما كان نصيب «محمود مراد» و«محمود الجوهري» و«عمر أبو يعلى» و«سيد خميس» خمس سنوات، وحُكم على «مدحت» و«سعيد» و«محجوب» بثلاث سنوات فقط، بينما أفلت «السادات» و«محمد إبراهيم كامل» و«نجيب» تمامًا من أي عقوبة.

قالت له أمه إنَّ عليه متى استقر في مكان ما أن يُخبرها بعنوانه حتى يتسنى لها أن تُرسل له ما يكفيه من أموال. وأخبرته أنَّ والده فخور به، وأنَّه يُكرر في كُل مجلس أن «حسين» يشبهه تمامًا عندما كان صبيًا. لقد منحوه يوم هروبه نحو ألف جنيه مصري وصُرة من الجنيهات الذهب التي ربطها في تجويفين صغيرين بكعبي حذائه.

جلس «حسين» على أحد المقاهي وأمامه حزمة من الصُحف مُستهلكًا ساعات الصباح في مُطالعة العناوين ومُتابعة آخر أخبار الهُدنة مُلاحظًا استمرار تدفق الأسلحة نحو العصابات اليهودية في تل أبيب وحيفا والفالوجة. كان الجنرال «جلوب باشا» هو قائد الجيش الأردني يُصرح بأن قواته أحرزت انتصارات مُذهلة على العدو، بينما كانت حكايات المقاهي تُكرر أنَّ الجيش الذي يقوده ضباط إنجليز ينسحب من أي موقع يتوقع فيه نشوب معارك حقيقية حتى أنه ترك كثيرا من المواقع الحيوية دون حراسة لتسقط في أيدي اليهود تباعًا. سمع «حسين» من رواد المقاهي حكاية ما جرى في قرية دير ياسين، عندما هاجمت مجموعة من المقاتلين اليهود القرية فجرًا للاستيلاء عليها واتخاذها نقطة انطلاق لقطع الطريق على جيش الفدائيين العرب، وفوجئ المهاجمون برصاص ينهمر عليهم من

أحد بيوت القرية ليصرع 4 من مقاتليهم، فما كان منهم سوى أن حشدوا أكبر قدر من القوات المُنظمة، وحاصروا القرية من مختلف الجهات، ثُم ذبحوا نصف رجالها أمام ذويهم، واغتصبوا عددًا من الفتيات قبل أن يذبحوهنَّ في مشاهد بثت الرعب والفزع في قلوب الجميع، حتى أن صحفيًا أمريكيًا كان يُتابع الحرب كتب أنَّ ما جرى في دير ياسين من وحشية يُمثل عارًا على البشرية كُلها.

شعر «حسين» بالجزع الشديد وهو يستمع لحوار بين فلسطينيين جلسا على المقهى مفاده أنَّ الجيوش العربية المُحاربة تشارك في الحرب استعراضًا فقط، وأنه لا يوجد قتال حقيقي إلا بين عصابات اليهود والفدائيين المتطوعين الذين يقودهم الضابط المصري أحمد عبدالعزيز. قال في نفسه ساخرًا: كيف يكون «النقراشي باشا» جادًا في قتال اليهود، وهو يُكرر كُل يوم دعوات الانبطاح والتزلف للإنجليز؟ وكيف يقاتل الجيش الأردني الصهيونيين وجميع قادته من ضباط الإنجليز؟ ثُم كيف تجتمع ست دول عربية لتحشد معًا أقل من ربع عدد المقاتلين اليهود؟ وخلص إلى أن ما يجري مُجرد تمثيلية مثل ما يصدر من ساسة العار في مصر المحروسة.

لو كانت الأردن بلاده لما نام ليلة واحدة وذلك الملك المتوج بأمر بريطانيا والمُدعي أنَّه عبدٌ لله قابع على عرشه. شعر بكراهية شديدة تجاه تلك العينين الطافحتين بالمكر والخديعة في صورة الملك بالجريدة، ليقول لنفسه إنَّ الخونة دائمًا يتشابهون في نظراتهم، لكنه عاد وتذكر أنَّ عيني «النحاس باشا» تبثان نظرات مختلفة. قرأ خبرًا حول زيارة الملك للقدس بعد سقوطها في أيدي القوات الأردنية وتحته كُتب باللون الأسود «جلالة الملك عبدالله ابن البيت النبوي الشريف». ضحك «حسين» مُستنكرًا، وهو يتذكر حملة مُشابهة نشرتها الصُحف والمجلات المصرية قبل عام زعمت فيها أنَّ نقابة الأشراف أثبتت انتساب الملك «فاروق» لسلالة النبي محمد. كُلهم

كاذبـون، مُحتالـون، ويتاجـرون بـكُل شيء. الديـن والأخـلاق ومصلحـة الوطـن، أمـا الأبطـال الحقيقيـون فمنفيـون، ومطـاردون، وممنوعـون مـن الخُـبـ. هكـذا فكّـر وهـو يُدخّـن سـجائره بنهـم شـديد مُفكـرًا في ضرورة مواصلـة النضـال بـلا هـوادة.

سـمع صوتًـا أمامـه، فـأزاح الجريـدة ليجـد أمامـه شـابًا طويـلًا بملابـس عسـكرية يسـأله في بـرود عـن اسـمه. واصـل رسـم اللامُبـالاة ناظـرًا نحـو جريدتـه دون أن ينبـس محـاولًا قـراءة مـا يـدور بـرأس الرجـل الـذي كـرر سـؤاله مـرة أخـرى قبـل أن يُخبـره بأنّـه مـن نقطـة الأمـن العمومـي بعمّـان وأن السـيد «الليـث» مفتـش الأمـن يطلبـه. مـدَّ «حسـين» يـده ببضعـة وريقـات ماليـة وضعهـا في جيـب العسـكري، ثُـم سـأله:

ــ ماذا يريد؟

ــ إجراء طبيعي للاستفسار عن اللاجئين. أنت تعرف ظروف الحرب.

ــ نعم. اجلس.

قالهـا «حسـين» الـذي اشـتَم رائحـة الخطـر، وتذكّـر كيـف نصحـه مُسـتقبله في العقبـة، بـأن يدفـع مقابـل الأمـان. هُنـا كُل شيء لـه ثمـن: المعلومـة، والخـبر، والطريـق. مـدَّ يـده في جيبـه، وأخـرج جنيهًـا ذهبيًـا وضعـه أمـام العسـكري سـائلًا إيـاه:

ــ هل أستطيع أن أثق فيك؟

حملـق العسـكري في الجنيـه الذهـبي مشـدوهًا، ونظـر يمينًـا ويسـارًا قبـل أن يـرُد بحـزم:

ــ بالطبع.

أشعل «حسين» سيجارة جديدة، نفثَ منها في الهواء، وسأل مُكررًا:

ــ إذن قُل لي بصراحة. لماذا يريدني السيد الليث مفتش الأمن؟

فكّر العسكري قليلًا، وعاود النظر حوله ثُم قال:

ــ لقـد سـألني عنـك وتحريـت سريعًـا وعلمـت أنّـك لاجـئ مـن خـان

يونس، لكنّه يظن أنّك تشبه أحد المصريين المطلوبين في القاهرة، والمرصود لهم مكافأة سخية، لذا فإنّه يأمل أن يُسلّمك للسلطات المصرية ويقبض الجائزة.

مدّ العسكري يده نحو الجنيه الذهبي، لكن كف «حسين» أمسكت بها قبل أن يقول وعيناه تلتمعان بالغضب:

ــ اسمع. أنا الشخص الذي يبحث عنه رئيسك. ستأخذ هذه القطعة ومثلها ثلاث قطع إن أخرجتني من بلادكم.

ــ إلى أين؟

سأل العسكري، فأجاب «حسين» قائلًا:

ــ سوريا الُحرة.

ابتسم العسكري، وقال:

ــ ليست حُرة تمامًا كما تتصور. لكن لا عليك. السفر إلى هُناك سهل للغاية، جهّز نفسك، وسأشغل عنك مفتش الأمن حتى تُغادر.

ــ اتفقنا.

***

ثلاث ليال قضاها «حسين» في فندق الإخوة بالمارجة بعد وصوله إلى العاصمة دمشق، تلك المُفعمة بالحركة، الصاخبة بالحديث، قريبة الشبه بالقاهرة بأزقّتها ومبانيها وسمتها الشرقي الأصيل. بعد ذلك وجد دون جُهد شقة صغيرة بحي الصالحية ذي البنايات القديمة، والقُبب الحمراء، والبوابات المملوكية. شعر «حسين» سريعًا بالألفة في الشقة التي احتضنته بعد رحلة هروب جبري فرّ فيها من عمّان بمساعدة شرطيين. قال لنفسه إنّ الشرطة التي تمسك هي ذاتها التي

تُقلت وتُهرب.

أحسّ الشاب المُطارد أنّ دمشق أقرب لقلبه من عمّان، وفكر أنّ تلك الجُدران تضُم حنقًا وغِلًا ضد الاستعمار ودُعاة الاستسلام، وهؤلاء الناس يمتلكون كبرياءً وأنفة تجاه كُل مستغرب. وذلك المسجد المجاور لمسكنه يضم رفات الشيخ الصوفي محيي الدين بن عربي الذي يذوب دراويش مصر في حُبه. زار «حسين» حي السيدة زينب، وقرأ الفاتحة لها في المقام الكبير المُقام لها مُندهشًا كيف يجد ضريحًا لها وللحسين في قلب العاصمة السورية مثلما هو الحال في القاهرة.

ومن مقهى لمقهى، ومن بار لآخر استعذب «حسين» اللهجة السورية، وشعر خلال أسابيع قليلة بأنه قادر على التأقلم معها والتحدث بها، وهو ما قاله له عم نظيم المصري صاحب المقهى الكبير بالمارجة، الذي صار ملاذًا مُحببًا للاجئ الفلسطيني المُزيف.

وذات صباح كان «حسين» يجلس بالمقهى عندما اقترب منه رجل أنيق يحمل حقيبة صغيرة مُقدمًا نفسه بأنّه صحفي مصري اسمه يوسف عباس. كان من الواضح أنّ الصحفي المُتطفل يحاول مقارنة هيئة وملامح «حسين» على صورة لديه في سجل الذاكرة رغم وجود شارب كث انزرع بالوجه المُستقبل لنظرات الشك. كانت الضحكة المُجلجلة واللهجة الشامية التي حرص «حسين» على الحديث بها تدفع الصحفي إلى التراجع عن تصور الشبه مع قاتل «أمين عثمان». إنّ آخر مشاهدة لـ«حسين توفيق» في مصر كانت يوم هروبه من مسكنه وهو بصحبة ضابط الشرطة المُكلف بحراسته، وبعدها لم يعلم أحد أين اختفى، حيث ردّد البعض أنّه ذهب إلى الصعيد حيث أخفاه بعض أقاربه، بينما زعم آخرون أنّه صعد إلى جبال الصحراء مع المطاريد من المجرمين وقطاع الطريق، وادّعى آخرون أنّ أفراد بتنظيمه السري قتلوه وأخفوا جثته ليتحول إلى أسطورة.

حاول الصحفي فتح باب للحوار مع «حسين توفيق» حول قضايا الاغتيالات في مصر، فقال له إنه كان شاهد عيان على اغتيال القاضي «أحمد الخازندار» عندما كان خارجًا من المحكمة وفي يديه أوراق قضية، فأطلق عليه اثنان من الشباب النار. ركز الصحفي كلامه إلى مُحدِّثه بأن ذلك كان بعد أسابيع قليلة من الحادث المأساوي لاغتيال أمين باشا عثمان. وردَّ «حسين» مُكررًا حكايات سمعها في عمّان عن مذابح اليهود في فلسطين وضرورة توحد كُل الشعوب العربية لإنقاذها من توحش الصهيونية. ظلّ الصحفي يُحملِق في مُحدثه، ويكرر بأنَّ حوادث العُنف في مصر اتسعت وتكررت بعد اغتيال «أحمد باشا ماهر» أمام البرلمان، بينما ظلَّ «حسين» يحكي مآسي اقتلاع الأرض من أصحابها في فلسطين ومنحها لليهود تحت حماية المستعمر البريطاني.

بعد ساعات من الكرّ والفرّ لم يجد الصحفي بُدًّا من المغادرة، بعد أن يئس في إيجاد خيط واحد يربط اللاجئ الفلسطيني بـ«حسين توفيق» سوى الشبه. دقائق لم تمض على اللقاء حتى وجد «حسين» كفًّا تربِّت على كتفه في مودة، ليُبصر خلفها رجلًا طويلًا أسمر ذا جبهة عريضة وعينين جاحظتين يقول له:

ـ أحسنت يا أستاذ. أنت دائمًا حاذق.

بلع «حسين» ريقه، مُتفرسًا في المصري الآخر الذي يسعى للإيقاع به، فابتسم وردَّد بلهجة شامية بأنَّ الحرب في فلسطين لم تترك سوى الآلام والحكايا.

ابتسم الواقف، ثُم سحب كُرسيًا وجلس، وهمس:

ـ لا داعي لذلك. حسين أنا أعرفك جيدًا. لا تخف. هُنا أنت في أمان.

ـ أنا فعلًا حسين، لكن أنا من خان يونس ومن عائلة الراوي.

هزّ الرجل رأسه وغمز بعينه اليُمنى وكرر الهمس:

ـ حسين توفيق من مصر.

ثُم قال مُقدمًا نفسه:

ـ أنا عبدالقادر عامر. هل سمعت عني؟

سكت «حسين» محاولًا استلهام ذاكرته دون جدوى، ففكَّر أنَّ عيون المُخبرين وصائدي المكافآت تتبعه من العقبة إلى عمّان ومن عمّان إلى دمشق. تذكّر أنَّ ما لديه من مال قارب على النفاد، وأنّه لن يصبح قادرًا على دفع المزيد من الرشاوى لهؤلاء المُتطفلين.

نادى «عبدالقادر» النادل وطلب قهوة ثانية، وقال:

ـ هل سمعت عن حوادث تفجيرات الإسكندرية؟

هزَّ «حسين» رأسه بالإيجاب، فقال «عبدالقادر»:

ـ أنا المُتهم الأول فيها، لقد اضطررت للهرب، أنا واثنان من زملائي في العام الماضي، ونحن نعيش هُنا بقليل من المال الذي يُرسله لنا أخي الأكبر.

تذكر «حسين» أنّه قرأ أخبارًا عن القضية وهو في السجن، ثُم رنَّت برأسه كلمات لـ«أنور السادات» بأنَّ هناك مجموعات عديدة تُحارب وتقاوم الإنجليز. شعر بالطمأنينة تفيض من عيني جليسه، الذي صار أكثر ودًا وهو يتحدث بصراحة شديدة مُقرًا أنَّهم يبحثون عن قائد، قوي، وصلب، وماكر.

قال «عبدالقادر»:

ـ اسمع يا حسين. أنا وزميلاي مُصطفى كمال ومحمد المرصفاوي هربنا بحرًا إلى سوريا، وحاولنا الانضمام لجيش الإنقاذ الذي يُحارب في فلسطين، لكنَّ عيون المُخابرات هُنا تتبعنا، وقد حذرونا مرارًا من أنَّ المشاركة في أي عمل ستدفعهم لترحيلنا إلى مصر.

أذَّن أذان الظهر بصوتٍ جميل عذب أثار الذكرى في نفس حسين، مُسترجعًا ليالي صيد الجنود في شوارع القاهرة، ولقاءات جروبي،

واجتماعـات حجـرة عثمـان الجنايـني، وقُبـلات ميمـي المحمومـة عـلى كورنيـش النيـل. طـاف برأسـه وجـه السـادات وهـو يتحـدث عـن الفـداء، وعـين إبراهيـم إمـام وهـي تُخفـي خُبثًـا وخداعًـا، وطربـوش النحـاس وهـو يتراقـص فـوق رأسـه عندمـا وقـف غاضبًـا يُـدلي بشـهادته في قضيـة أمـين عثمـان.

نظر بامتنان إلى «عبدالقادر» وسأله:

ــ لِـم تـراني مُناسـبًا لقيـادة مجموعتكـم رغـم أنّـك أدرى مـني بمَـن معـك؟

ردّ «عبدالقادر» بنظرة طمأنة وقال سريعًا:

ــ أنـت اسـم وتاريـخ وعمـل حقيقـي. لقـد كُنـا نتابـع قضيتـك بتعاطـف ومحبـة، وأنـت والسـادات كُنتمـا لنـا القـدوة. هـل تعـرف. سـيفرح مصطفى ومحمـد بشـدة لـو علمـا أنـني وجدتـك هُنـا في سـوريا. سـنضم أعضـاء جُـددا ونوجـه نضالنـا ضـد الصهاينـة. هُـم أشـد خطـرًا عـلى الأمـة.

شـعر «حسـين» أنّـه وُلـد مـن جديـد. أبـصر سـلالم المجـد تقـترب مـن حذائـه، وشـاهد «أنـور السـادات» يبتسـم مُشـجعًا. قـال:

ــ القـدر يرسـم لنـا الطريـق. سـنُحقق هُنـا مـا لـم نُحققـه في القاهـرة والإسـكندرية.

تابعـا صـوت الراديـو يُذيـع أُغنيـة لأسـمهان وهـي تشـدو «فـرّق مـا بينـا ليـه الزمـان. دا العمـر كلـه بعـدك هـوان»، قبـل أن يسـأل «عبدالقـادر» «حسـين» عـن مـكان سـكنه، فأشـار إلى آخـر الشـارع قائـلًا:

ــ هُنا.

ـ إذن. هيا بنا. اعزمني على الشاي عندك في البيت.

قاما سعيدين، بعد أن دفع «حسين» الحساب.

***

عقـدوا الاجتمـاع الأول يـوم مظاهـرات دمشـق الكُـبرى المُطالبـة بإنصـاف الفقـراء، الـتي وصلـت لحـد إشـعال النـيران في مبـاني البلديـة في كثـير مـن أحيـاء العاصمـة الخـضراء. كان النـاس مُسـتنفرين ضـد حُكومـة شـكري القوتـلي بسـبب غـلاء الأسـعار، وعـدم وجـود وظائـف لجيـش مـن الشـباب الآمـل في حيـاة هانئـة بعـد سـنوات مـن الكفـاح لنيـل الاسـتقلال. في مـنزل «حسـين» البسـيط بحـي الصالحيـة جلسـوا معـا عـلى مائـدة مُسـتطيلة يرتشـفون الشـاي الأسـود ويُدخنـون السـجائر اللـف، راسـمين طريـق نضالهـم القـادم. كان «عبدالقادرعامـر» يبـدو رغـم قـوة تأثـيره في زميليـه مُحبـذًا وضـع كُل شيء تحـت تـصرف «حسـين»، رُبمـا تقديـرًا لكونـه ذا إسـهامات عظيمـة في مجـال القتـل والعمـل الـسري، فضـلا عـن إيمانـه التـام بـأنّ أي عمـل فـدائي يسـتلزم تمويـلًا، وأن الوحيـد القـادر عـلى تدبـير المـال هـو «حسـين» ابـن العائلـة الثريـة، الـتي مازالـت تُرسـل لـه كُل شـهر أمـوالًا كافيـة للعيـش دون عمـل. أمـا «مصطفـى كمـال» فبـدا رغـم ملامحـه الصارمـة قليـل الـكلام، أقـرب للخجـل، وظهـر «محمـد المرصفـاوي» كرجـل بوهيمـي سـاخر يعشـق المُتـع الحسـية ويُبالـغ في مُديـح الخمـر والنسـاء.

لقـد رأوا حُسـين مُغامـرًا فريـدًا، بـاردًا إلى أقـسى درجـة، لا يكـترث لـدم، ولا يشـعر بخـوف، لـذا فقـد اعتـبروه جديـرًا بتـولي القيـادة بعـد أن سـجنتهم البطالـة النضاليـة وملّـوا مـن حالـة الـلا حركـة.

حملّـق «حسـين» في وجـوه الثلاثـة المُسـتمعين لـه، ليتذكـر مجموعتـه الأولى المكونـة مـن «سـعيد» و«مدحـت» و«سـيد» و«جـول»، وقـال:

ـــ إنّ أكـبر خطـر يواجـه بلادنـا اليـوم هـو خطـر الصهيونيـة، وهـي العـدو الأول لنـا جميعًـا، لـذا فـإنّ علينـا أن نُحـدد أهدافنـا بوضـوح في إرهـاب وقتـل اليهـود في أي مـكان، إلى جانـب تصفيـة كُل مَـن ينـادي بالسـلام والتسـوية مـع الصهاينـة، وإلحـاق الأذى بـأي مؤسسـة أو جهـة أجنبيـة تسـاند دولـة إسرائيـل.

ـ مُتفقون.

قالها «عبدالقادر»، فواصل «حسين»:

ـ سنرصد ما يجري حولنا، وسنبحث عن الخونة والجواسيس ونتصدّى لهم تاركين لجيش الإنقاذ مهمة القتال المباشر.

بدت من «محمد» نظرات استفهام قال على إثرها:

ـ أهم شيء السلاح. كيف سُندبّر المال لشراء السلاح؟

ـ لا عليك. أنا كفيل به.

أجاب «حسين» ببرود، وكأنهم يتوقعون الإجابة فهزوا رؤوسهم في تسليم.

واصل «حسين» شرح الأهداف قبل أن يسمع طرقًا خفيفًا على الباب انخلعت له قلوب المُجتمعين، لكنَّه طمأنهم، ثُم قام بهدوئه المُعتاد ليفتح الباب قليلًا ليسمح لوجهه فقط بالخروج. وجد «حسين» أمامه فتاة طويلة الشعر، كثيفة الحاجبين، لها عينان زرقاوان تفيضان عذوبة، ترتدي تنورة قصيرة سوداء فوق قميص لبني رقيق بأزرار كُحلية. بدا خداها متوردين خجلًا لتزداد جمالًا على جمال، مما دفع هرمونات الذكورة في داخله أن تنتفض بعد خمول دام شهورًا، حملق فيها مستفسرًا، قبل أن تنطق في رقة:

ـ آسفة على إزعاجك. والدتي مُصابة بنوبة قلبية ووالدي في بيروت وليس معي أحد. هل يُمكن أن تساعدني في نقلها إلى المُستشفى.

هزَّ رأسه في اهتمام، ورمى ضيوفه بنظرة طمأنة ثُم قال لها:

ـ طبعًا طبعًا.

أغلق الباب على أفراد تنظيمه الجديد، وجرى معها ليدخل الشقة المُقابلة، حيث وجد سيدة ضئيلة الجسد تجلس على كنبة صغيرة بوسط الصالة، وإلى جوارها فتاة أخرى قمحية البشرة ترتدي جلبابا بُني اللون وتحتضن كفها بقلق ظاهر.

ـ الأستاذ جارنا الجديد، يُريد أن يطمئن عليكِ.

قالـت الفتـاة لأمهـا، الـتي ردَّت بنظـرة اسـتجداء نحـو وجـه الغريـب، قبـل أن يصيـح:

ـ ألف سلامة عليك يا خالة. ستكونين بخير.

حملهـا بشـعور طـاغٍ بالقـوة والصلابـة، وهبـط السـلالم في بُـطء وإلى جـواره ذات القميـص اللبـني. سـارا معًـا عـبر الزقـاق ليسـمعها تُشـير إلى مستشـفى صغـير آخـر الشـارع. كـررت الفتـاة أسـفها لحامـل أمهـا الشـهم، بينمـا رددت الأم الدعـاء لـه بصـوتٍ مُتقطـع حـتى وصلـوا جميعًـا، حيـث وضـع «حسـين» حملـه فـوق أحـد الأسرَّة ثُـم انتظـر خارج الغرفـة بعـد أن وصل الطبيـب. تذكـر اجتماعـه المُنقطـع، لكنَّـه قـال في نفسـه إن نـصرة النسـاء واجـب قومـي، وأن الشـهامة لصيقـة بالمناضلـين. ثُـم تذكَّـر رقـة الفتـاة وجمالهـا، فقـال أيضًـا إنَّ الجمـال دائمًـا يسـتحق كُل تقديـر.

خرجت الفتاة بعد دقائق لتشكُره. قالت:

ـ لقد طمأننا الدكتور. شُكرًا على نبلك.

ابتسم مُبحرًا كملاح عظيم في عينيها:

ـ لا شُكر على واجب.

ثُم مدَّ يده مُصافحًا، وهو يقول:

ـ تحت أمرك.

منحته ابتسامة امتنان وهي تُكرر الشكر قائلة:

ـ شُكرًا مرة أخرى يا أستاذ...

ـ حسين.

كررت:

ـ شـكرا يـا أسـتاذ حسـين. أنـا سُـعاد، وأخـتي الـتي في البيـت اسـمها

فاطمة.

ـ تشرَّفنا.

لاحظت أنَّ يدها مُختبئة بين أصابعه، فسحبتها باضطراب، وسألته:

ـ هل أنت مصري؟

ابتسم وسأل:

ـ ألا أبدو فلسطينيًا؟

هزَّت رأسها بالنفي، فقال:

ـ إذن أنا مصري.

ودَّعته بابتسامة، وشعر باعتزاز غريب، وهو يعود مرة أخرى إلى شقته ليجد ضيوفه مُنهمكين في التدخين والثرثرة. وقف «عبدالقادر» فور دخوله من الباب، واقترب منه ثُم احتضنه في محبة وقال:

ـ أنت شهم جدًا يا حسين. نحنُ محظوظون أننا وجدناك.

***

«أخي العزيز «حسين»..

أشتاق إليك بشدة. أشعر بأنني وحيد، مُنعزل، غريب عن أقاربي وأصدقائي وجيراني. كثيرون في الجامعة يتحاشونني بعد أن حصلت على البراءة، وخرجت منصورًا من قضية «أمين عُثمان». لا عليك. أخبرني أنت: كيف حالك؟ ما أخبارك؟ وماذا تفعل؟ وهل أنت في مأمن من البوليس السياسي وأذرعه الطويلة؟ لقد كانت المحنة صعبة علينا جميعًا، لكن عناية الله كانت دائمًا ترعانا وإلا لما صدرت الأحكام مخفَّفة بهذا الشكل.

علمت من طنط «سميرة» أنَّك مُستقر، وأنَّ ظروفك تتحسن بعد

التأقلم مع المُحيطين بك. أنا واثق من ذلك. أنت مخلوق استثنائي، قادرعلى فك طلاسم الناس، والتعايش مع الآخرين، واستيعاب الناس بسرعة، وهي صفات لا أزال أرى أنها مؤهلة لقيادة البلدان. إنّني أتصور أنك مُنخرط في أعمال نضال جديدة، ضد أعداء جُدد، وخونة آخرين، وكُل أملي أن أكون إلى جوارك مساندًا ومُعضدًا ومُعينًا.

أعيش فترة اكتئاب طارئ بعد دخول مُعظم الرفاق إلى السجن، حتى أنّه لم يبق لي سوى «نجيب» المُنصرف عن الكفاح، الرافض للعمل السري، لذا فإنني أقضي ساعات طويلة في قراءة التاريخ ومُتابعة سير الأبطال والزعماء في العالم.

في الأسبوع الماضي تلقيت عرضًا من زميل بكلية الحقوق للانضمام إلى جماعة الإخوان، وزاد الإغراء عندما فاتحني مُباشرة في أن أصبح عضوًا في الجهاز الخاص. بالطبع، رفضت بشدة، ذلك لأنني لا أرى في جماعة الإخوان سوى مجموعة من البُلهاء العميان الذين يسيرون دون تفكير خلف رجُل مهووس يُتاجر بالدين اسمه حسن البنا. لقد عرفت أنّ الجهاز الخاص للجماعة يحاول عسكرة أعضائه والتغلغل في الجيش، لكن أنا على ثقة أنّه سيفشل بسبب استهجان الناس لأي ربط بين الدين والسياسة، وهذا هو سر مباركة الناس لقرار حل الجماعة الذي أصدره النقراشي بعد القبض على عدد كبير من أعضاء الجهاز. لقد كان أعضاء ذلك الجهاز من السذاجة لدرجة أنّهم أعادوا استثمار أفكارنا وخططنا وكرروها بنفس الشكل، حتى ظن البعض أنّ التفجيرات التي قاموا بها مؤخرًا ضد بعض المُنشآت والمصالح اليهودية من تنفيذنا. هل تتصور أنّ أحد الصحفيين نقل لي أنّ الضابط «إبراهيم إمام» قال لأحدهم لولا أنّه مُتأكد أنّ حسين توفيق خارج البلاد لتصور أنّه وراء الحوادث الأخيرة. إنّ هذا يُشعرني بالفخر، ويؤكد لي كم كُنا مؤثرين فيمَن حولنا.

الحياة السياسية في مصر مازالت أقرب لبار كرياكو، فالسادة الزُعماء

الأفاضـل غائبـون عـن الوعـي ومـازال بعضهـم يتحـدث عـن اليهـود المصريـين باعتبارهـم مواطنـين صالحـين. يرفـع «النقراشي» باشـا شـعار التفـاوض السـلمي، ويُهـدد الوفـد بإعـلان الجهـاد، ويخطُـب رئيسـه كُل يـوم مُطالبًـا بالجـلاء، وبـاقي الأحـزاب تتفـرج وتنـاور لتكسـب رضـا الملـك أو الإنجلـيز أو كلاهمـا معًـا. ومُعظـم الشـباب في وادٍ آخـر، يكـررون أفكارنـا وكلماتنـا حـول الكفـاح المسـلح، والمقاومـة بالـدم، ويعتبرونـك مثـالًا عظيمًـا للفـداء.

ستسـألني عـن «أنـور السـادات». لا علـم لي بمـا يفعـل الآن، فبعـد براءتنـا غـاب تمامًـا عـن الظهـور، لكنـني علمـت مـن صديـق خـاص أنَّـه يعمـل بالتجـارة، لكـنَّ هنـاك أقاويـل عـن علاقتـه بتنظيـم الحـرس الحديـدي التابـع للسراي، وهـو تنظيـم فـدائي جديـد دبّـر عـدة عمليـات لاغتيـال ضبـاط إنجليـز، وحـاول اغتيـال «مصطفى باشـا النحـاس» مرتـين وفشـل. وفي اعتقـادي فـإنَّ «السـادات» رجُـل مُحنّـك، صعـب الفهـم، وأتصـور أنَّـه يعـرف طريقـه جيـدًا، وهـو الأقـدر عـلى قـراءة مـا يُحيـط بنـا.

أنـت تعـرف أنـني أعشـق هـذه الأجـواء، وأحـب المغامـرات، وعـلى استعداد تـام للتضحيـة في سـبيل الوطـن، لكنـني عاهـدت والـدي العزيز بعـد بـراءتي ألا أشـارك في أي عمـل فـدائي حـتى أتخـرج في الجامعـة، وأتصـور أنـني مُرغـم عـلى ذلـك، خاصـة مـا دمـت أنـت بعيـدًا، فـلا السـادات ولا الإخـوان ولا غيرهـم أسـتطيع التأقلـم معهـم.

زرت زُملاءنـا في السـجن، وآلمـني أن أجـد «محمـود مُـراد» بتلـك الحالـة الغريبـة مـن الانكسـار. إنَّـه مُحبـط وموجـوع بشـدة رغـم تأكيـدات البعـض بـأنَّ أمـرًا ملكيًـا سـيصدر بالعفـو عـن المحبوسـين في القضيـة. قال لي «محمـود مُـراد» إنَّـه يُريـد أن يُهاجـر مـن مـصر فـور خروجـه، وهو يتصـور أنَّ البلـد لـم يعُـد مُناسـبًا لطموحاتـه. أمـا سـيد فهـو الأكـثر سخرية ممـا جـرى، ومـازال قـادرًا عـلى ترديـد النـكات وتقليـد الزُعمـاء،

والأدهــى أنَّــه يُقلــد الآن الســادات باعتبــاره خطيبًــا مفوهًــا. «ســعيد» و«مدحــت» و«محجــوب» و«عُمر» كمـا هُـم أقويـاء وسُـعداء بالسـجن، ويسـألون عـن أخبـارك كُلمـا سـنح لهـم لقـاء والدتـك.

أثـق أنَّـا سـنلتقي بـإذن اللـه، وأنَّ الأمـور سـتتغير، وسيُصبح الأبطـال في مكانهـم الطبيعـي، عندمـا نـدوس معًـا بأحذيتنـا عـلى جثـث الخونـة والعمـلاء.

دمت طيبًا وآمنًا ليوم لقاء عسى أن يكون قريبًا.

أخوك

محمد إبراهيم كامل.

القاهرة في ديسمبر 1948».

طـوى «حسـين» الخطـاب، مُسـتبشرًا بـكلام ابـن خالتـه ورفيقـه في الكفـاح قبـل أن يسـمع طرقًـا هادئًـا عـلى بـاب الشـقة. قـام مُطفئًـا سـيجارته العشريـن في منفضـدة بلوريـة ترقُـد فـوق الطاولـة، وفتـح البـاب ليجـد كهـلًا قصـير القامـة يرتـدي حُلَّـة داكنـة، وفـوق عينيـه نظارتـان سـميكتان. حملّـق في وجـه الطـارق ليلمـح حُمـرة مُشـابهة لحُمـرة الفتـاة الـتي اسـتغاثت بـه قبـل أيـام لنقـل أمهـا إلى المستشـفى، فقـدّر أنَّـه والدهـا.

ـ مساء الخير يا بُني.

لا يحـب مناداتـه بصيغـة الابـن، لكنَّـه رسـم الابتسـامة المُعتـادة وردّ التحيـة، قبـل أن يسـتأذن الرجـل في الدخـول، فسـمح لـه.

قال الرجل بعد أن جلس:

ـــ أنـا شـاكر الحميـدي جـارك في الشـقة المُقابلـة، وجئـت أشـكرك عـلى المسـاعدة في نقـل أم سُـعاد إلى المُستشـفى.

ـ لا شُكرعلى واجب أستاذ شاكر.

عرض عليه سيجارة وهو يسأل:

ـ كيف حالها الآن؟

ـ بخير وسلام. أنا أعمل في السكة الحديد العمومية، لذا فإنني أتغيب في بعض الأحيان لأكثر من يوم، وكما ترى فإنه لا يوجد في البيت سوى نسوة، لأن ابني مُجنّد في الجيش وهو ضمن الفرقة المُرسلة إلى فلسطين.

ـ عظيم. هذا شرف لي.

قالها «حسين» وهو يحافظ على ابتسامة الترحيب، ثُم مد قداحته ليُشعل للرجل سيجارته، التي سعل منها ثُم قال:

ـ إنَّ زوجتي أصرت أن أدعوك على الغداء غدًا عندنا في البيت، هل يسمح وقتك بذلك؟

فكر حسين قليلًا قبل أن يُجيب:

ـ بالطبع يسمح.

وتذكر موعدًا ضربه لـ«عبدالقادر» في أحد مقاهي سوق الحميدية، فقال:

ـ أوووه. تذكرت موعدًا في الغد بوسط المدينة.

عقد الضيف حاجبيه وقال مُستنكرًا:

ـ غدًا في وسط المدينة. هذا خطر يا بُني. أنت ترى المُظاهرات في الشوارع، والناس غاضبون بعد استقالة حكومة مردم، وأنت مهما كُنت غريبا، والصالح ألا تخرُج حتى تهدأ الأمور.

ـ لكنني على موعد مُهم مع صديق.

قاطعه الرجل:

ـ أرجوك أن تتصل به لتدعوه ليُشرفنا. أصدقاؤك هُم أصدقاؤنا.

فكَّر قليلًا ثُم هزَّ رأسه موافقًا، وسأل الرجل:

ـ ماذا تتوقع أن يحدُث حال استمرار غضب الناس؟

اعتدل الرجل للخلف مُعتزًا باعتباره أهلًا للرأي، وقال:

ـــ اسمع يا بُني. الناس في بلادنا تبحث عن الأمن والاستقرار، لذا فإنَّهم يُحبون حُسني الزعيم، الذي نشر قواته في شرق البلاد وعرضها. وأعتقد أنَّه سيُمسك بالسُلطة، لأنَّه الأقوى.

ثُم قال بحكمة الواعظ:

ـ السُلطة تذهب دائمًا للأقوياء وليس للأتقياء.

ابتسم «حسين» للمقولة وردَّدها في خياله.

***

كانت المائدة عامرة بأشهى المأكولات السورية، وحولها جلس «حسين» و«عبدالقادر» و«الحاج شاكر الحميدي» وزوجته وابنتاه. شعر «حسين» بالأُلفة والرضا مُستعيدًا التفاف عائلته حول مائدة الغداء أيام الجُمع، حين كان والده حريصًا على الجلوس مع أسرته. سرت في شرايينه غبطة تذوق الطعام البيتي بعد شهور طويلة من سدِّ الجوع بما تيسر من طعام المطاعم والفنادق والأكلات الجاهزة، واشتم رائحة أمه الحنون في الأبخرة المُتصاعدة من الدواجن المشوية، والخضروات الساخنة. قرأت عيناه ملامح اهتمام على وجه «سُعاد» كُلما رنا نحو عينيها الساحرتين. شعر بالإثارة وهو يرمق ضفيرتها الطويلة حالكة السواد، وهي تتدلى خلف ظهرها المُعتدل، ثُم نظر بتلصص نحو شقيقتها الصُغرى فلاحظ سكون ملامحها وتركُز نظرتها نحو الأرض، بينما كان وجه «عم شاكر» مُتهللًا ومُنبسطًا وهو يحكي عن مشاغبات ابنه الوحيد.

قالت الأم إنَّها تُحب المصريين وتأمل أن يطيل الله عُمرها كي تفلح يومًا في زيارة القاهرة ورؤية نهر النيل والأهرامات.

بدا عبدالقادر ساكنًا كعادته عندما فاجأه سؤال الأم عن عملهما

ليحمر وجهه شاعرًا بارتباك شديد لم يطل حيث بدده قول «حسين»:

ـ نحن نعمل بالتجارة.

هزَّ الرجل رأسه، وبدا أنَّه غير مُقتنع بذلك، فقال:

ـ الأجواء الحالية في مصر وسوريا لا تصلح للتجارة.

وأضاف وهو ينظر نحو ابنته الكُبرى:

ـ ظروف الحرب في فلسطين، وأعمال الشغب الجارية هُنا دفعت سُعاد أن تترك التعليم، مُكتفية بالوصول لأولى ثانوي. أما فاطمة فقد قررت من البداية أن تتفرغ لمهنة الخياطة، إنها ماهرة للغاية.

ـ عظيم.

قالها «حسين» رامقًا «سُعاد» بنظرة استكشاف.

بدت «سُعاد» مُبتسمة، رائقة المزاج، وهي ترُد نظرات حسين الفاحصة. قالت في سرّها إن الشاب المصري يبدو خجولًا، ونبيلًا، وميسور الحال. أما صاحبه فأشد خجلًا منه، لكنّهما يخفيان وراءهما الكثير.

قال صاحب البيت موجهًا حديثه إلى «حسين»:

ـ كما قلت لك أستاذ حسين. لن تهدأ الأمور في دمشق إلا إذا تولى حُسني الزعيم السُلطة بشكل مباشر. لا تُصدق أن تشكيل خالد العظم للحكومة سيُهدئ من حالة الغضب العارم بين الناس.

ـ لكنّه أعلن أن أحد أولوياته تحرير فلسطين.

قالها «عبدالقادر» باهتمام، فردَّ «شاكر» ساخرًا:

ـ كُلهم يدّعون ذلك ليسكت الناس عن فسادهم وفشلهم.

وافقه «حسين» قائلًا:

ـ صحيح الكُل يُتاجر بفلسطين.

ـ سينصرُنا الله على اليهود.

تمتمت «سُعاد»، فرمقتها أمها بنظرة عتاب، ثُم سألت «حسين»:

ـ قُل يا بُني: أين تسكن في مصر؟

ـ في القاهرة.

ثُم أشار لصاحبه قائلًا:

ـ وعبدالقادر من الاسكندرية.

وعلا صوت شاكر قليلًا:

ـ أنتم لا تأكلون.

ـ لا، لقد أكلنا أكثر من المُعتاد. نحن نقول في القاهرة «دايمًا عامر».

شكراه، وقاموا ليجلسوا معًا في غرفة الصالون بينما غابت النسوة لإعداد الشاي والحلويات، وانتهز ربُّ البيت الفرصة ليقول لضيفيه:

ـ اسمعا. أنا أعرف أنكما لا تعملان بالتجارة، لكن يبدو أيضا أنكما أولاد ناس. بالتأكيد لستما لصين أو مُجرمين.

استغربا، فواصل قائلًا:

ـ الواضح والمؤكد أنكما هاربان سياسيًا أو أتيتما هُنا للتطوع للحرب في فلسطين.

أشعل «حسين» سيجارة وبدا عقله يدور بأفكار شتى، قبل أن يهزّ رأسه مُكررًا:

ـ صحيح عم شاكر. أنت رجل صالح.

انبسطت ملامح الرجل قليلًا وسأل:

ـ هل تأمناني على سركما؟

تبادل «حسين» وصاحبه النظر قبل أن يُقرر «حسين» بهدوء أن يقُص على الرجل حكايته كهارب من مطاردة المُحتلين والخونة، ثُم قرر أنَّ «عبدالقادر» مثله تمامًا، لكنه كان يُجاهد في الإسكندرية. نظر

الرجل نحوهما بامتنان، ثُم قبّلهما بحنوٍ قائلًا:

ـ أنا أعرف ذلك.

استغرب «حسين» وسأل:

ـ كيف عرفت؟

ـ قرأت عن قضيتك بالأهرام، ومُنذ سكنت هُنا انتابني الشك، وقد رأيت يومًا أحد المُخبرين يسير وراءك، فعلمت أنّك الهارب في قضية أمين عُثمان.

ـ يااااه. أنا تحت المُراقبة؟

ـ بالطبع. لكن. لا عليك. كُلنا تحت المُراقبة، والمُخابرات هُنا تُتابع برضا كُل مَن يُجاهد ضد الاستعمار أو إسرائيل.

وأخذ الرجل من ابنته صينية الشاي وأطباق الحلويات، ثُم قال لـ«حسين»:

ـ يا بُني أريد أن تعتبرني مثل والدك تمامًا. لقد كُنت في شبابي أحد المُجاهدين ضد الاحتلال الفرنسي، وبعد التحرير تفرّغت لأسرتي.

ـ سنواصل العمل الفدائي، لكنّ هذه المرة ضد إسرائيل.

قالها «حسين» وهو يُمسك بكوب الشاي، قبل أن يستمع لحكايات شتى حول بطولات الرجل في العمل الفدائي قبل سنوات.

***

«السياسة تُفسد الأمن». قالها لنفسه وهو يُعيد قراءة ملف طالب الطب البيطري أحمد عبدالمجيد. حدّق الضابط «إبراهيم إمام» في الملف المُتخم بالأوراق الموضوع أمامه، وهو يسترجع نجاحاته في حلّ الألغاز وقراءة وجوه القتلة مُبكرًا. تذكّر «حسين توفيق»

وصُحبتـه، وقـال لنفســه إنَّ مُهمتـه انتهـت عنـد تقديمـه للمحاكمـة، لكـن تدخـل الملـك ورجالـه والتنظيمـات السريـة الموالـيـة لـه سـاعده عـلى الهـرب مـن وجـه العدالـة. إنَّـه عـلى يقـين مـن ضلـوع زميلـه اليوزبـاشي «محمـود مـوسى» في تهريـب الولـد الخطـير. نظـر مـرة أُخـرى لملـف «أحمـد عبدالمجيـد»، وقـال في سرّه: هـذه المـرة أفلـت الجـاني قبـل ارتكابـه الجريمـة بفضـل سـذاجة أكـبر رأس في هـذا البلـد بعـد الملـك، ثـم بهـدوء وبـدمٍ بـارد حطّـم ذلـك الـرأس.

«كُنـت دائمًـا عـلى صـواب، وكانـوا عـلى خطـأ» قالهـا «إبراهيـم إمـام» لـ«عبدالرحمـن عمّـار» وكيـل وزارة الداخليـة عندمـا سـأله كيـف تمكّـن طالـب صغـير مـن الوصـول لـوزارة الداخليـة، وإطـلاق الرصـاص عـلى رئيـس الـوزراء ليُلحقـه بصديـق عمـره «أحمـد باشـا ماهـر». قبـل الحـادث بثلاثـة أيـام بالضبـط، عـرض الضابـط الثعلـب عـلى رئيـس الـوزراء تفاصيـل مؤامـرة قـال إنَّ عـددا مـن شـباب الإخـوان يدّبرونهـا لاغتيالـه وكان عـلى رأس المُتآمريـن الطالـب «أحمـد عبدالمجيـد»، لكـنَّ «النقـراشي باشـا» هـوّن مـن الأمـر، ورفـض إصـدار أمـر باعتقـال أحمـد عبدالمجيـد، وقـال لإمـام ناصحًـا:

ــ هـؤلاء الأولاد مازالـوا صُغـارًا.. طلبـة. حاول أن تسـتوعبهم يـا إبراهيم لا تعتقلهم.

قـدره. قالهـا أكـثر مـن صديـق مُعلقًـا عـلى الحكايـة، لكـن الضابـط المُخـضرم الـذي قفـزت بـه كفاءتـه بُسرعـة مـن يوزبـاشي إلى بكبـاشي، ثـم قائمقـام، كان يعـي أن الصُغـار أكـثر خطـرًا مـن الكبـار، وأنَّ استيعاب الطلبـة الساعين نحـو الـدم مُستحيل. إنَّـه مؤمـن أنَّ الساسـة لا يفهمـون في الأمـن، وأنَّهـم بعيـدون كُل البُعـد عـن فهـم أدمغـة القتلـة والمُجرمـين. لقـد حقـق مـن قبـل عـشرات القضايـا، وتابـع كيـف تحـوَّل شـاب مهـووس مثـل «حسـين توفيـق» مـن قاتـل إلى رمـز، ومـن مُجـرم إلى بطـل. فكَّـر أنَّ الإرهـاب تجـاوز كُل حـدوده، تـارة تحـت لافتـة الوطنيـة

ومقاومة الإنجليز، وتارة أخرى تحت لافتة نصرة الإسلام. مُنذ قتلوا «أحمد باشا ماهر» أمام البرلمان والعُنف يطغى ودوارق الدم لا تكف عن تلطيخ المشهد، فبعده قُتل أمين عثمان، ثُم قُتل القاضي «أحمد الخازندار»، وتوالت عمليات التفجير ليتم نسف سينما مترو، ثُم شركة الإعلانات الشرقية، ومحلات بنزايون، وحارة اليهود، وغيرها، كما قُتل «سليم زكي» حكمدار القاهرة نفسه بُقنبلة في وسط القاهرة.

وهاهُم طلبة الإخوان يُكملون المشهد بقتل رئيس الوزراء بواسطة طالب لم يتجاوز الواحدة والعشرين ارتدى بذلة ضابط شُرطة ودخل إلى وزارة الداخلية ليُطلق أربع رصاصات على ظهر الرجل. قال «إبراهيم إمام» لنفسه إنَّ عدد التنظيمات المُسلحة في مصر يزيد على عدد الأحزاب، وما دام الكبير يؤمن بسياسة التصفية ويُنشئ الميليشيات السرية الموالية له، فإنَّ الحركات والتنظيمات الأخرى ستحذو حذوه، وما الإخوان منهم ببعيد. ورنا بذاكرته لسنوات مضت كان يخرُج فيها طلبة الإخوان مُنددين بالوفد وبُدعاة الديمقراطية لإرضاء الملك، متوقعًا انقضاء شهر العسل قريبًا بعد أن طال الخطر أقرب المُقربين من الملك نفسه.

فكّر كثيرًا وهو يُراجع تقريرًا وضعه «إبراهيم باشا عبدالهادي» حول الإجراءات الأمنية الموصى بها لكبح جماح الجهاز الخاص للإخوان، ثُم لفتت نظره عبارة مدوّنة من ضابط البوليس السياسي الموالي للسراي «محمود موسى»، التي أوصت باعتقال كُل أنصار «حسن البنا» والمُحيطين به، وتركه وحيدًا. قلّب «إبراهيم إمام» الورقة أمامه وقال وهو يُمصمص شفتيه «سيُقتلونه بكُل تأكيد. يا له من ساذج». نظر إلى ساعته فوجدها تجاوزت الحادية عشرة، وقرر أنَّ عليه المُغادرة، فهو في حاجة للراحة، ومضى إلى بيته في برود اللا مُهتم.

***

رسم «حسين» خطة العملية الأولى. اشترى الأدوات والأسلحة وجهّز المسرح كما اعتاد في القاهرة. سيكون يوم السبت مُناسبًا لوأد أي أنفاس تستعر في ذلك المعبد القديم بالحي الغربي من العاصمة السورية، والذي يعود للقرن الأول بعد ميلاد المسيح. كان مشهد تجمع العائلات اليهودية أمام المعبد الكبير في حي جوبر مُستفزًا لـ«حسين» وزملائه مثلما كان مُستفزًا للسوريين أنفسهم الذين دبُّروا أكثر من واقعة اعتداء على محلات ومُنشآت يهودية. في الصباح سيدفع «مُصطفى كمال» عربة توت مُحمّلة بالقنابل ليمُر أمام المعبد، وسيرابط «عبدالقادرعامر» فوق سطح إحدى البنايات العالية المجاورة ليطلق رصاصه نحو العربة لتنفجر، في الوقت الذي سيقف فيه حسين أمام بوابة المعبد لقنص كُل هارب من رواد المعبد بعد حدوث الانفجار. أما «محمد» فستكون مُهمته تأمين هروب «حسين» بعد قتل أكبر عدد من الزوار اليهود.

في الصباح غادر «حسين « حاملًا مُسدسه الجديد الذي اشتراه من أحد تُجار دمشق ووصل إلى المقهى المُجاور للمعبد لينتظر بهدوء موعد التنفيذ. طلب شايًا وأشعل سيجارة ولاحت على وجهه ابتسامة رضا، وهو يتذكر القُبلة المطبوعة على خدّه من جارته «سُعاد» التي أصرت أن تغسل له ملابسه. فكّر كم هي رقيقة بلهجتها الشامية، وصوتها الهادئ، وعينيها الناعستين. قال لنفسه إنَّها نموذج جميل للفتاة الصلبة، الجريئة التي تقف أمام الأزمات غير عابئة أو خائفة. لقد كان صديقه «عبدالقادر» مُصيبًا عندما أخبره بأنَّ هذه الفتاة تُحبه، مُدللًا على ما يقول بأنَّ عينيها لم تُفارق طلعته مُذ جلسا معًا على مائدة الطعام قبل أسبوعين، وفيما بعد أخبرته هي بنفسها أنَّها مُعجبة بأناقته وشخصيته، قبل أن تؤكد ذلك بالأمس عندما طبعت قُبلة على وجهه. فكر أنَّها أرق وأجمل وألطف من «سناء» و«ميمي» وفتيات جروبي والنادي والعائلات المصرية المُتكلفة.

رشـف شـايه، مُحفـزًا عقـارب السـاعة عـلى التحـرك ليحـين الموعـد المُحـدد في الثانيـة ظهـرا. تذكَّـر مـا قالـه الليلـة الفائتـة لزملائـه بـأنْ قتـل اليهـود هـو أفضـل انتقـام يُمكـن الـرد بـه عـلى المذابـح الداميـة لعصاباتهـم في فلسـطين. السـكوت جريمـة، والصفـح عـار سـيُلاحقنا إلى الأبـد. هكـذا قـال لأصحابـه وهـو يرسـم لهـم خطـة التنفيـذ. عـرض عليـه «عبدالقـادر» التعـاون مـع أي مـن المجموعـات السـورية المُسـلحة لتنفيـذ العمليـة في إشـارة منـه لتعرفـه عـلى أفـراد بتنظيـم يحمـل اسـم «كتيبـة الفـداء» تمكـن مـن ذبـح 20 يهوديًـا في حلـب، لكنَّـه أبى مؤكـدًا أنَّ المجموعـة يجـب أن تبقـى مصريـة خالصـة، حـتى يُصبـح لهـا شـأنها عندمـا تعـود إلى مـصر.

سـمع حـوارًا دائـرًا بـين رجلـين يجلسـان عـلى المقهـى حـول سـيطرة حُسـني الزعيـم عـلى مقاليـد الأمـور في البـلاد. «إنَّـه كُل شيء الآن، ولا أحـد يتحـرك دون إذنـه، ولـم يبـق أمامـه سـوى الإعـلان رسـميًا عـن رئاسـته لسـوريا»، قـال أحـد الرجلـين. فكَّـر «حسـين» في كلام جـاره «شـاكر الحميـدي» حـول علـم المُخابـرات بوجـوده وتحركاتـه، وصمتهـا عليـه باعتبـاره يُنفـذ مطالـب ورغبـات الشـارع السـوري في الانتقـام مـن الصهاينـة المُعتديـن. لاحـظ باعـة جائلـين يمـرون أمامـه وتذكـر شـوارع وسـط القاهـرة بصخبهـا وحيويتهـا وفكَّـر أنَّـه لا يشـعر بالغُربـة في دمشـق قريبـة الشـبه بالقاهـرة.

نظـر في سـاعته فوجدهـا تقـترب مـن الثانيـة، فقام مُغـادرًا بعـد أن دفع الحسـاب، ووقـف بمدخـل أحـد البيـوت المُقابلـة للبـاب الرئيـس للمعبـد مُنتظـرًا حـدوث الانفجـار، في الوقـت الـذي لمـح فيـه «مُصطفـى كمـال» يسـير بسُرعـة تـاركًا خلفـه عربـة التـوت. انتظـر دقائـق متوقعًـا أن تُصيـب رصاصـات «عبدالقـادر» القنابـل المُخبـأة بالعربـة لتنفجـر مُعلنـة بـدء معركـة المعبـد اليهـودي، لكـنَّ أملـه خـاب عندمـا فوجـئ بصـبي صغـير مـن المـارة في العـاشرة مـن عمـره يقـترب مـن العربـة ليلتقـط بكفـه بعـض

التـوت الموضـوع في عُلبـة مـن الصفيـح ليُخبئـه في جيبـه، وشـعر بالخـوف أن يظـل الصـبي واقفًـا لفـترة لسرقـة التـوت. قـال لنفسـه إنَّ «عبدالقـادر» قـد يتراجـع عـن إطـلاق الرصـاص عـلى العربـة خوفًـا عـلى الصـبي، وهـو مـا يُهـدد بفشـل العمليـة بالكامـل. مـرّت الدقائـق بطيئـة مُزعجـة دون انفجـار وقـدّر أن اسـتمرار وقـوف الصـبي يُهـدد بكشـف العربـة الـتي تركهـا صاحبهـا واختفـى عـن الأنظـار. فكـر للحظـات قبـل أن يتخـذ قـراره، وقـام عـلى الفـور بتجـاوز بوابـة المعبـد اليهـودي بسرعـة دفعـت الحـارس الواقـف أن يصيـح بـه طالبًـا التوقـف، لكنّـه واصـل طريقـه ببرود مُعتـاد، ولـم تمُـر لحظـات حـتى سـمع دوي انفجـار كبـير رُجـت الأرض عـلى إثـره، وجـرى النـاس يمينًـا ويسـارًا في حالـة فـزع شـديد، بينمـا غطـى الدُخـان سـماء حـرم المعبـد لتسـود حالـة مـن الفـوضى العامـة. أخـرج مُسدسـه ليُبـصر «عبدالقـادر» و«محمـد المرصفـاوي» إلى جـواره يُطلقـان رصاصهمـا عـلى الأجسـاد الهاربـة. ولـم تمُـر لحظـات أخـرى حـتى لمـح ثلاثـة شـباب مُلثمـين يقفـون داخـل حـرم المعبـد ويُطلقـون رصاصهـم عـلى الـرواد مـن الرجـال والنسـاء، فواصـل قنـص الهاربـين، حـتى فرغـت خزنتـه، ثُـم أخـرج مُسدسًـا آخـر، ليصطـاد بـه كهـلًا سـمينًا خـرج مفزوعًا، ثُـمَّ لاحـت أمامـه سـيدة عجـوز هدّهـا الوهـن، وبـدت هدفًـا سـهلًا في ظـلّ الدُخـان المُتصاعـد، فضغـط عـلى الزنـاد مُقـررًا أن زمـن التفرقـة بـين النسـاء والرجـال انتهـى، وأنَّ إسرائيـل تُجنّـد النسـاء اليهوديـات، لتسـقط بـلا حـراك.

بـدأ الانسـحاب رويـدًا وهـو يسـتعذب أزيـز الرصـاص، مُسـتمتعًا بصرخـات الهلـع مـن رواد المعبـد مـن اليهـود، شـاعرًا أنّـه يسـتمع لسـيمفونية رائعـة لبيتهوفـن. مـا أجمـل السـماء المُغطـاة بدُخـان الانفجـارات. قالهـا لنفسـه قبـل أن يعـود إلى بيتـه بـذات الخُطـى البـاردة دون مُطـارد أو تابـع.

***

في الصباح تصدَّر خبر انفجار المعبد اليهودي صُحف دمشق. اكتشف «حسين» ورفاقه أنَّ حصيلة العملية بلغت 12 قتيلًا من بينهم امرأتان وطفل صغير وأكثر من ثلاثين مُصابًا. التقوا في ضريح صلاح الدين الأيوبي إلى جوار المسجد الأموي يتحدثون عن نتائج العملية. سأل «حسين» زُملاءه عن أولئك المُلثمين الذين وقفوا إلى جوارهم يُطلقون معهم الرصاص لكنَّه لم يتلق إجابة شافية. لا أحد يعرفهم، ولا يعرف كيف جاءوا، ولا من أين، والغريب أنَّهم لم يحاولوا التعرض لهم بتاتًا خلال العملية أو بعدها.

قال «عبدالقادر» بنبرة صدق حاول فيها تحليل ما جرى:

ــ إنَّ هُناك مجموعات أخرى عديدة محسوبة على الفدائيين السوريين والفلسطينيين تعمل بشكل سري في قتل اليهود والأجانب وتتواجد في عدة مُدن سورية، وإحدى هذه المجموعات تُسمى كتيبة الفداء، وأنا شخصيًا أعرف اثنين من أعضائها يقطنان في المارجة.

رفع «حسين» كفيه مُظهرًا قراءة الفاتحة داخل الضريح، قبل أن يقول بغضب:

ــ لا يُمكن أن تكون مُصادفة. لو سلمنا أنَّ هؤلاء الذين وقفوا معنا يُطلقون الرصاص يحملون نفس أفكارنا ويعملون مثلنا على ضرب اليهود في كُل مكان، فكيف لهم أن يعرفوا بتوقيت المُهمة؟ هل أنتم متأكدون أنَّ أحدًا لم يُحدِّث أي شخص حول ما سيتم تنفيذه؟

ثُم نظر إلى «عبدالقادر» سائلًا:

ــ ألم تقترح أن نتشارك في العملية مع كتيبة الفداء التي تتحدث عنها؟

همس «عبدالقادر» قائلًا:

ــ أُقسم بالله العظيم أنَّ توقيت المهمة لم يخرُج إلى أي شخص في أي تنظيم، وما اقترحته قبل العملية من التعاون مع كتيبة الفداء

كان مُجـرد اقـتراح، ونسـيته تمامًـا عندمـا رفضـت أنـت.

نظر «مصطفى كمال» إلى «عبدالقادر»، وقال:

ـ أتمنى ألا أكون مُتهمًا بإفشاء سر العملية.

ـ وأنا كذلك.

ردَّد «محمد المرصفاوي» ليُعلق «عبدالقادر» سريعًا:

ـ يا رفقاء أنا على ثقة تامة منكما.

ونظر إلى «حسين» وقال:

ـ مصطفى ومحمـد لا يكذبـان أبـدًا. أتصـور أنَّ المجموعـة التي شـاركتنا العمليـة كانـت تُراقـب المعبـد اليهـودي مُنـذ فـترة، ثُـم انتهـزت فرصـة هجومنـا عليـه لينتهـز المراقبـون الفرصـة ويقاتلـوا إلى جوارنـا، وليـس أدلّ عـلى ذلـك مـن كوننـا انسـحبنا بهـدوء دون أي كلام مـن هـؤلاء، بـل أعتقـد أنَّهـم مهَّـدوا لنـا طريـق الخـروج مـن هُنـاك.

خرجـوا ليجلسـوا معًـا عـلى أحـد المقاهـي، أشـعلوا سـجائرهم قبـل أن يتركهـم «محمـد» لـشراء ساندوتشـات شـاورمة، ليعـود إليهـم شـاحبًا وفي يديـه إحـدى الصُحـف الفرنسـية. بـدا الامتعـاض مطبوعًـا عـلى وجهـه قبـل أن يرفـع الصحيفـة أمـام «حسـين» قائـلًا:

ـ تصـوروا. لقـد مـات صـبي صغـير كان يمُـرّ خـارج المعبـد مـن جـراء الانفجـار. هـذه الصحيفـة نـشرت صورتـه.

ثُم قال:

ـ هو طالب بالإعدادي اسمه إلياس حسان، وهو ليس يهوديًا.

ـ مُسلم؟

سأل «مصطفى»، فأجاب «محمد» قائلًا:

ـ نعم.

هز «حسين» رأسه وقال:

ـــ هـذا الولـد لـص. كان يـسرق التوت، وتسـبب في تأخـير موعـد العملية لعـدة دقائق.

ـ نعم.

قالها «عبدالقادر»، وأضاف:

ـــ ترددت كثـيرًا قبـل إطـلاق الرصـاص بسـببه، لكـن في النهايـة كان لابـد مـن حسـم الأمـر.

فـكّ «حسـين» لفـة الطعـام ليتنـاول ساندوتشًـا قبـل أن يقـول موجهًـا حديثـه إلى «محمـد»:

ـــ اسـمع يـا محمـد. في بعـض الأحيـان، تضعـك الظـروف في مواقـف صعبـة، لا تختارهـا لكنّهـا تُفـرض عليـك فرضًـا. ومـا حـدث للصـبي حرامي التـوت وارد التكـرار في عمليـات أخـرى، ولابـد مـن عـدم الالتفـات لأي شيء يُهـدد بفشـل العمليـة أو سـقوط مُنفذيهـا.

ثُم قال بثقة الخبير:

ـــ في عمليـات بطوليـة عديـدة فقـد الفدائيـون أرواحهـم بسـبب النُبـل الزائـد والشـهامة.

هزّ «محمد» رأسه تسليمًا، وقال «عبدالقادر»:

ـ أوافقك الرأي.

ـ وأنا أيضًا.

قالها «مصطفى كمال»، وهو يلتهم ساندوتش الشاورمة الساخن.

***

فتح «حسين» باب شقته بعد أن عاد من احتفال بنجاح العملية في أحد البارات القديمة بصُحبة «عبدالقادر»، والذي أخبره بنبأ اغتيال الشيخ «حسن البنا» في القاهرة. دلف إلى الداخل مُستعيدًا قول صاحبه بأنَّ فلول الإخوان في سوريا يقولون إنَّ الشيخ البنا قُتل بواسطة أحد الأجهزة السرية التي يُديرها الملك فاروق، وفكّر للحظات أنَّه ربما نفذَ عملية اغتيال «أمين عُثمان» لصالح الملك دون أن يدري. حدّث نفسه بأن قتل زعيم الإخوان المُسلمين بهذا الشكل يؤكد أنَّه لا أمان للملك أو رجاله أو المُتصلين بالسراي، وأنه ربما يُضحي بأي شخص في سبيل تحقيق آماله. أضاء نور الصالة فلاحظ مظروفًا تم دفعه من تحت الباب، فسارع لفضِّه متوجسًّا خيفة. قرأ خطابًا بدون توقيع من مناضل عربي إلى المناضل «حسين توفيق» يُثمّن بطولته وشجاعته ويُحيي فيه إقدامه على الانتقام لدماء الفلسطينيين في دير ياسين. وقال مُرسل الخطاب إنَّ طريق العملية القادمة مرسوم بعناية، وأنَّه يترك تحديد موعد التنفيذ له، موضحًا أنَّ هُناك جاسوسا بريطانيا يقطُن في الناحية الشرقية من جبل قاسيون في منزل فخم، واسمه سترلينج، يعمل مراسلًا لجريدة «التايمز». وذكر الخطاب أنَّ الرجل يستيقظ في السابعة صباحًا ويذهب إلى مكتب الجريدة في الثامنة ويظلُّ مُتنقلًا بينه وبين الهيئات الحكومية والسفارة البريطانية حتى السادسة مساء حيث يعود إلى البيت. أضاف الخطاب أنَّه لا يوجد لدى الجاسوس أي حُراس، وكُل مَن يعيشون معه هُم سائق وخادمة وسُفرجي، وأنَّ لديه بُندقية سريعة الطلقات في منزله، فضلا عن مُسدسات متنوعة.

واعتبر «حسين» الخطاب دليلا على صحة استنتاج «عبدالقادر» بشأن وجود تنظيم مُشابه ومُقارب في التوجهات، لكنَّه شعر بالحيرة عن السبب الذي دفع ذلك التنظيم إلى إهداء المعلومات حول سترلينج له بدلًا من القيام مباشرة بالاغتيال مباشرة.

في الصباح وعلى مقهى الصالحية الأكبر جلس «حسين» مع «عبدالقادر» يُناقش مكاسب العملية الجديدة، مؤكدًا أنَّ الهجوم على الجاسوس البريطاني سيحقق ردعًا للمخابرات البريطانية، وسيُسعد الشارع الرافض للتدخل الأجنبي في شئون البلاد، وسيوفر للتنظيم أسلحة عديدة ومتطورة يمتلكها سترلينج. إنَّهم في حاجة أيضًا للمال، ومثل هذا البيت سيكون غنيًا بالذهب والأموال اللازمة لتمويل المزيد من العمليات. ودعا «حسين» صديقه إلى أن يحاول التحقق من صحة المعلومات الخاصة بالصحفي البريطاني وفي حال ثبوتها، سيتم التنفيذ في أقرب وقت ممكن.

في اليوم ذاته لم يرفض «حسين» طلب «سُعاد» أن يصحبها في نُزهة نحو حديقة الحيوانات، ليتلقى سيلًا من الأسئلة الساذجة عن أهله، ووالدته، ومدرسته، وأصدقائه، وملابس الفتيات في القاهرة، والمطاعم والمتنزهات. سألته إن كان أحب، فروى لها قصصًا عديدة عن مغامرات وهمية، ونساء جميلات، وأحلام طوتها الغُربة، وأماني خنقها القلق.

ــ ما آمالك؟

ردّ بأنّه موجوع بتحرير الشعوب العربية من الحُكام الخونة، والمُحتلين.

قالت له:

ــ ألا تخاف؟

صارحها بما يشعر به، وكان مُحقًا بأنه لم يخف قط. قال إنّه كان مُنذ الصغر يشعر بأنه مُختلف، لا تستهويه لعب الأطفال الساذجة، ولا يخاف من حكايات الغول الخارق للطبيعة، يُنكر وجود العفاريت، ولا يأبه بتهديد الكبار له. دار بخلده أنه أقسى مما تتصور، وقال لنفسه دون أن يُطلعها على ذلك أن الشفقة كلمة لم يحملها تجاه إنسان. إنّه صلب كالصخر، بارد كالثلج، خاوٍ من أي مشاعر حُب إلا

للأوطان والأبطال.

لامست كفه يدها الدافئة ليتسلل شعور صارخ بالإثارة نحو جسده، مُتذكرًا أنه ما لامس أنثى مُذ فارق بجسده بلده الأم. فكَّر أنَّ الأبطال والزعماء التاريخيين في حاجة لكبت أحاسيسهم ومحو ملامح الضعف الإنساني عن أجسادهم. سحب يده ببرود، وسأل فتاته في استعلاء عن حقيقة مشاعرها تجاهه. بدت مُرتبكة وهي تتلعثم مؤكدة أنَّه أول رجُل في حياتها تخرج إلى جواره. قالت له إنَّ شعورًا مُتعاظمًا بالأمان ينتابها كُلما وقفت إلى جواره. أفضت إليه بأنَّها تشعر بالحياة تبتسم كُلما نظرت نحو وجهه، إنَّه رجُل كما ينبغي للرجولة أن تكون، فيه سمات الشهامة، وكبرياء القوة، وصرامة الشُّجعان. امتن لمديحها وسألها في برود:

ـ هل تتزوجينني؟

بدون تردد أجابت:

ـ طبعًا.

مرَّت الأيام رتيبة في انتظار رد «عبدالقادر» قبل أن يُقرر بصحة المعلومات حول عنوان مُراسل التايمز. في الليلة الموعودة، كسر «عبدالقادر» نافذة سترلينج ليدلف «حسين» ومن معه إلى غرفة النوم الهادئة، لم يُبد الصحفي المُتهم بالتجسس أي مقاومة، إذ طعنه «حسين» بسكين حاد في جانبه الأيمن، قبل أن يُفتش دولابه بحثًا عن الأسلحة والأموال، دون طائل. نضح الدم غزيرًا فوق الفراش، وغادر «حسين» وزُملاؤه بعد أن أحسوا بالقلق بعد سماع صوت سيارات قادمة.

***

فاتـح «حسـين»، «شـاكر الحميـدي» في طلـب ابنتـه للـزواج، فلـم تُفاجئـه ابتسـامته ولا ردّه السريـع بمُعانقتـه وتقبيلـه، وكأنّ الرجـل ينتظـر أمرًا كهـذا، فيمـا أطلقـت الأم زغاريـد قالـت إنهـا تعلمتهـا مـن مشـاهدة الأفـلام المصريـة. بكـت «سُـعاد» فرحًـا وهـي ترنـو لكـف والدهـا محتضنـة كـف «حسـين» يقـرآن معًـا الفاتحـة، مُحدديـن الجُمعـة الأولى مـن شـهر مـارس موعـدًا للـزواج.

سُر «عبدالقـادر» بالنبـأ، وقـال لـ«حسـين» إنّ إقدامـه عـلى الـزواج في الشـام يعـني بأنّـه يُخطـط للاسـتقرار فيهـا وتأسـيس أسرة بهـا. وأخـبره بأنّـه علـم أنّ مُراسـل التايمـز لـم يمُـت، وأنّـه قـرر مُغـادرة البـلاد لعـدم شـعوره بالأمـن، في الوقـت الـذي ألمـح فيـه «عبدالقـادر» لـضرورة التريـث والحـذر في تنفيـذ عمليـات جديـدة لأن هُنـاك اختراقـا واضحـا لعملياتهـم. شـعر «حسـين» بـضرورة التشـاور مـع كتيبـة الفـداء للتأكـد إن كانـت عـلى علـم بعملياتـه أم لا، والتعـرف عـلى كيفيـة كشـف الاختراق لمجموعتـه، وبالفعـل «رتـب عبدالقـادر» لقـاءً بـين «حسـين» وطالـب سـوري بالجامعـة الأمريكيـة اسـمه «هـاني الهنـدي» في أحـد المطاعـم النائيـة بأطـراف العاصمـة. كان «هـاني» طويـل القامـة، أبيـض البـشرة، مُسترسـل الشـعر، هـادئ الملامـح، كثـير التلفُـت، رخيـم الصـوت، وهـو مـا جـدّد في ذهـن «حسـين» لقـاءه الأول بـ«أنـور السـادات». سـأله «حسـين» عمـا فعلـه تنظيمـه فأجـاب بـأنّ مـا فعلتـه كتيبـة الفـداء يبقـى سرًا مـن أسرارهـا لا يجـوز الحديـث عنـه، ثُـم أضـاف إنّـه لـولا معرفتـه بـ«عبدالقـادر عامـر» مـا وافـق عـلى لقائـه خاصـة أنّـه يعـرف جيـدًا أنّـه مرصـود مـن أجهـزة الأمـن. بـدا «هـاني» مُدققًـا في وجـه «حسـين»، مُسـتقرئًا لـه قبـل أن يسـتمع منـه لملخـص عملياتـه في دمشـق. ابتسـم «هـاني» ابتسـامة سـاخرة قبـل أن يصـدم «حسـين» بقولـه:

ـ لقد كُنت من البداية أعمل في خدمة الأمن السوري.

ـ الأمن؟

سأل «حسين»، مُستنكرًا، فأجاب «هاني» بهدوء:

ـ نعم. الأمن. وتحديدا في خدمة مدير الأمن العام حُسني الزعيم.

انعقد حاجبا «حسين»، فواصل مُحدِّثه شارحًا:

ـ حُسني الزعيم من أذكى ضباط الجيش السوري، وهو رجل عمل مع الأتراك، والفرنسيين، وحارب في الحربين، وحقق أموالًا طائلة، وله أتباع ومُخبرون في كل مكان، وهو من أولئك الذين يُنفِّذون عملياتهم بأيدي غيرهم، وقد استفاد بقوة من حادث الاعتداء على المعبد اليهودي بنشر قواته في جوبر، واستفاد أيضا من حادث الاعتداء على الصحفي البريطاني ستيرلينج لأنه كان أحد الذين يفضحون أفعاله وعملياته القذرة، لذا فقد قدمت له خدمة عظيمة بما فعلت.

انزعج «حسين» وقال:

ـ هل يعني ذلك أنَّ رجال حُسني الزعيم هُم مَن قاتلوا إلى جوارنا يوم المعبد.

ابتسم «هاني الهندي» ابتسامة ثقة وقال:

ـ نعم، هم بلا شك. واضح أنَّه كان يُراقب تحركاتك مُنذ دخلت دمشق، وسينقلب عليك إن شعر أنك خارج سيطرته. رُبما تنفجر قُنبلة تحت منزلك فتكون نهايتك، أو يدُس عليك مَن يقنصك عن بُعد، أو يُلقي القبض عليك اشتباهًا ويُسلمك لشرطة بلادك أو أي شيء آخر.

صمت سائلًا نفسه إن كان موعودًا بالاستغلاليين القادرين على توجيهه عن بُعد، واعتبر نفسه ساذجًا بين ثعالب وذئاب. سأل طالبًا النصيحة، فقال له «هاني»:

ـ لا تُفكر بمجابهته أو تحديه. هو أصعب من أن يتحول إلى هدف. إنَّه شخص ماكر وحريص وواسع النفوذ. أفضل شيء أن تحاول مُلاطفته. قدِّم له نفسك باعتبارك صديقا، وابحث عن نقاط التقاء

مـع توجهاتـه. امنحـه شـعورًا بالثقـة إن كُنـت ترغـب في اسـتمرار العمـل بسـوريا، وأتصـور أنّـه يمكـن عقـد اتفـاق معـه.

مزيـد مـن الخـوض في الوحـل. مـا لأحـلام البطولـة والنضـال تتحطـم عـلى صخـور الانتهازيـين؟ «محمـود مـوسى» سـاعدك لأنّـك قتلـت غريـم الملـك، و«السـادات» بـنى مجـده وشـهرته عـلى مغامراتـك وخـرج مـن القضيـة كالشـعر مـن العجـين.

ـ وفلسطين؟

سأل «حسين» بحماس، فقال «هاني»:

ـ سـتواصل عملـك مـا دمـت بعيـدًا عـن مصالحـه. سـيُخبرك بأنّـه يُدعمـك ويؤيـدك، لكـن في حقيقـة الأمـر فـإنّ الأمـر لا يعنيـه كثـيرًا.

ـ شُكرًا على النصيحة.

غـادر «حسـين» مُسرعًـا بعـد أن أخفـى مُسدسـه في بنطالـه. لـم يُهـدر وقتًـا، إذ أوقـف تاكسـيًا وطلـب منـه أن يوصلـه لمركـز الأمـن العـام في قلـب العاصمـة. طـرق البـاب، ففتـح أحـد الحـرس المُتجهمـين الـذي سأله بغلظـة عمـا يُريـد، فقـدّم نفسـه بهويتـه الفلسـطينية مُطالبا بلقاء العقيـد «حُسـني الزعيـم»، مُكـررًا أنّ لديـه معلومـات مهمـة جـدًا يجـب عرضهـا عليـه. سـلّمهم مُسدسـه بعـد عمليـة تفتيـش دقيقـة، ودخـل إلى غُرفـة صغـيرة ظـلّ فيهـا ثـلاث سـاعات اسـتجاب خلالهـا أحـد الحـراس لنداءاتـه المُتكـررة لتقديـم المـاء لـه، قبـل أن يدخـل إليـه رجـل ضخـم الجُثـة ليعيـد تفتيشـه مـرة ثانيـة، ثُـم قـاده إلى بهـو مُتسـع مؤثـث بأثـاث فخيـم، ومـزدان بصـور طبيعيـة لقلعـة حلـب وسـور دمشـق القديـم والمسـجد الأمـوي. نظـر أمامـه فوجـد رجـلا أبيض سـمينا مُتسـع العينـين، يحمـل ابتسـامة بـاردة، ولـه عينـان صاحيتـان، فوجـئ بـه يمـد يـده بالمُصافحـة.

ـ أهلا وسهلًا أخ حسين.

قالها بصوتٍ أجش، ضاغطًا بيدٍ قوية على كف «حسين»، الذي ابتسم وجلس مُضطربًا.

ـ أنا لاجئ مصري ولست فلسطينيًا.

هزَّ حُسني الزعيم رأسه وقال:

ـ نعم. أعرف ذلك.

ـ أنا المُتهم الهارب في قضية قتل أمين عثمان.

ـ هاااا. عظيم. كان هذا الرجل من أعدى أعداء الملك. لقد أحسنت بما فعلت.

احتفظ «حسين» ببروده وقال:

ـ أطمع في رعايتك وتأمينك.

ـ لك ذلك. نحن نعلم بوجودك، ومع ذلك لم يتعرض لك أحد.

غمز الرجل بطرف عينٍ سائلًا:

ـ قُل لي لماذا قتلت أمين عُثمان؟

ـ لأنه خائن.

ـ تمام.

ـ الساسة مُخادعون وليس سوى رجال الحرب من أبطال.

ـ صحيح.

ـ أنا أمقتهم وآمل أن تنجح في إيقاف مهازل الأفاقين من رجال الأحزاب ونواب البرلمان وتُعيد لهذا البلد أمنه وقوته، خاصة أنَّه أول حائط صد ضد الصهيونية.

ـ سأفعل إن شاء الله. الشباب هُم الأمل، وسأعمل لهم من أجل سوريا عظيمة قوية ومُتقدمة.

ـ عندي معلومات عن صحفي بريطاني أظن أنَّه جاسوس على بلادكم.

ـ هاااااااااا، لقد أحسنت صُنعًا.

ـ لقد حاولت إنقاذ البلاد من شره، لكن...

ـ لا عليك. لقد خرج خائفًا يترقب.. ها ها ها. قُل لي يا حسين: ماذا تشرب؟

ابتسم «حسين» قليلًا قبل أن يقول:

ـ قهوة.

أخرج الرجل سيجارًا غليظًا منحه لحسين الذي سارع بإشعاله، مُنصتًا للرجل:

ـ وصلت رسالتك يا حسين. لا تخش شيئًا. امض وسنؤمنك. لكن لا تأخذ مُسدسك من الحارس. لا سلاح لك بعد اليوم.

هزَّ «حسين» رأسه، فكرر الرجل:

ـ مفهوم؟

ـ مفهوم.

وخرج مذهولًا من سطوة الرجل وقوة شخصيته.

■■■

اسم على مُسمى. خُلق ليحكُم. مع الخطر عاش، مُقدّرًا أنَّ المُغامرين ينالون ما يحلمون به، وأنَّ الخائفين لا يصنعون مجدًا. عبر بسيارته غير المسقوفة صفوف جُنوده المُحاصرين لقصر الرئاسة، رافعًا يمينه بالتحية، كبطل أُسطوري، مُنطلقًا نحو ممر قَاعة الاستقبال ليُبلغ سيده السابق، والرئيس كسير الأجنحة شُكري القوتلي نبأ عزله. تذكر «حُسني الزعيم» ما تعلمه في الجيش الفرنسي الذي وصل فيه لرُتبة العقيد بأنَّ مَن يملك القوة يملك كُل شيء ومَن

يعرف اللحظة المواتية للتحرك يكسب المعارك. كان كُل أمله أن يحكُم سوريا، أرض الكرز والمُشمش، ساحرة الألباب، وحصن بني أمية، بيت الثقافات ومُلتقى العقائد والأفكار والمواهب. قال يومًا لوالده الذي كان مُفتيًا دينيًا إنَّ السلطة هي أجمل ما في الوجود، لكن والده كان فظًا وهو يُقرر أنَّها تقود إلى التهلُكة، مما دفعه للرد عليه بأنه على استعداد أن يقتل بشرط أن يحكم سوريا ولو ليوم واحد. لم تُحبطه نظرات الانكسار والخضوع البادية من عيني «شكري القوتلي» الذي كان يهز رأسه خوفًا وهو يستمع لبيان الانقلاب، وتذكر أنَّه لم يجبُن يومًا أو ينكسر حتى في أقسى المحن التي واجهها في حياته سواء مُعتقلًا من خلال البريطانيين في الحرب العالمية الأولى، أو مُعتقلًا من جانب الفرنسيين في الحرب الثانية.

أمر «حُسني الزعيم» بسجن رئيس الجمهورية، ورئيس الوزراء في مُستشفى المُزة، كما قام باعتقال كبار الضباط الموالين لهما، فضلًا عن الصحفيين المُنتمين لحركات اليسار والقوميين. كما قام بالقبض على «ميشيل عفلق» مُنظّر حزب البعث العربي وبدأ حملة تشويه وملاحقة واسعة للمسئولين الحكوميين واحدًا وراء الآخر، قبل أن يُعلن حلَّ البرلمان رسميًا. في الوقت نفسه نظَّم من خلال عملاء للمخابرات مُظاهرات عارمة جابت شوارع دمشق للمُطالبة بترشحه لرئاسة الجمهورية وتعطيل العمل بالدستور، وإعلان حظر التجوال.

كان السوريون حائرين بين الخوف والأمل، يُقدمون قدمًا ويؤخرون أخرى، ولا يدرون إن كان ما جرى خيرًا أم شرًا. البعض مثل هاني الهندي كان واضحًا بأنَّ ما جرى هو انقلاب من ديكتاتور صغير على ديكتاتور أكبر منه، بينما كان «شاكر الحميدي» يرى أنَّ سوريا في حاجة لرجل قوي قبل أي شيء، وأنَّ الصرامة ضرورية لبناء دولة قوية، وتحقيق نتائج طيبة.

في تلك الأجواء تزوَّج «حسين» في حفل بهيج ضم عددا محدودا

مـن الأصدقـاء وأقـارب العـروس، الـتي بـدت كالبـدر يـوم اكتمالـه. اسـتغلّ «حسـين» أمـوالًا بعثتهـا إليـه والدتـه في شراء أثـاث حديـث حرصـت «سُـعاد» أن تختـاره بنفسـها، بينمـا أهـدت إليهـا والدتهـا ملاءات أسرّة وشراشـف ملونـة وملابـس نـوم رجـالي وحريمـي، ومزهريـات، وعـددا مـن قواريـر العطـر. حـرص «عبدالقـادر» عـلى المشـاركة في جميـع الأمـور ليظهـر بمثابـة الشـقيق لحسـين، مُهديًـا إيـاه أكيـاس سُـكر وشـايا أسـود، أمـا «محمـد» و«مصطفـى» فقـد دخـلا إلى الحفـل ومعهمـا عـدد لا بـأس بـه مـن صناديـق الويسـكي الفاخـر، وعُلـب السـجائر الكِنـت. جلـس المدعـوون في شـقة «شـاكر الحميـدي» الـتي تزينـت باللمبـات والـورود، وغـنَّى أحـد المُطربـين أغنيـة «يـا أم العبايـة» لسـهام رفقـي، ثُـم غـنَّى بعـد ذلـك أغنيـة محمـد عبدالوهـاب «ولمـا قالـوا لي غايـب». طبخـت السـيدة أم «سُـعاد» صينيـة مكمـورة وملوخيـة وعـددا لا بـأس بـه مـن المحـاشي ثُـم قدمـت للمدعويـن بقـلاوة وكُنافـة نابلسـية اسـتطابها أصدقـاء حسـين. في نهايـة الحفـل دخـل هـاني الهنـدي ببذلـة سـوداء أنيقـة يحمـل بوكيهًـا مـن الـورد، ثُـم قـدَّم للعريـس ولاعـة مـن الفضـة منحوتـا عليهـا رسـم لقلعـة حلـب.

عندمـا اختـلى بزوجتـه نهـل «حسـين» مـن سـحرها مؤكـدا أنَّ عطشـه للنسـاء لا آخـر لـه، وقوتـه بـلا حـدود، حـتى سـمت «سـعاد» بروحهـا ومشـاعرها فـوق السـحاب، لتُكـرر القـول لـه أكـثر مـن مـرة بأنَّـه أجمـل شيء حـدث لهـا في حياتهـا. قالـت إنَّ سـبعة عـشر عامـا مـن الحيـاة لـم تعـرف فيهـا سـعادة كمـا عرفتهـا بزواجهـا، وأنَّهـا تشـعر أنَّ اللـه يُكافئهـا بحنانـه ودفئـه وإخلاصـه.

مـرّت الأيـام الأولى للـزواج هانئـة وسـعيدة رغـم انقبـاض ألـمَّ بالنـاس تخوفًـا مـن إرهاصـات الانقـلاب العسـكري لـ«حُسـني الزعيـم»، الـذي بـات أكـثر حـدَّة في التعامـل مـع خصومـه. كانـت الشـوارع تزخـر بلافتـات التأيـيـد الـتي أعدَّهـا تُجـار وأعيـان الشـام للرجـل، كمـا كانـت الصُحـف

مُمتلئة بقصائد المديح ومقالات التفخيم، حتى أنَّ «هاني الهندي» قرأ بكل غيظ على «حسين» في إحدى زياراته له قصيدة مديح في الرجل للشاعر إلياس طرابيه تقول: «بشخصك ساد العرب وافتخر القطر/ فقدرك فينا لا يعادله قدر./ بلغت مقامًا دونه الشمس رفعة/ ومنزلة عن مثلها قصر البدر». أما «حسين» فكان لا يعبأ كثيرًا بأفاعيل الرجل، فكل ما كان يهمه هو الشعور بالأمان والاستقرار، خاصة عندما أبلغته زوجته بحملها.

***

ركبت أحلامها قبل الطائرة. كانت تنتظر بشوق شديد اليوم الذي تحتضن فيه صغيرها بدفء وحنان وراحة بال. كانت تراه صغيرًا رغم أنَّ عمره اقترب من الخامسة والعشرين. مازال «حسين» في عينيها الوليد الزاحف الذي يتحرك كثيرًا، وينظر باستغراب لكُل مَن يُناديه، مازال الطفل الشقي المُعتز بأبناء بلده، الكاره لتكبر وغطرسة الأتراك، يلعب مع أقرانه فيختار دور الفلاح لا السيد، وينتصر له من ظُلم يراه مغموسًا فيه. مازالت تراه الصبي الخجول المُعتزل للرقص والرافض للهو، والباحث عن دور حقيقي يخدم به بلاده، حتى لو كان ذلك الدور يحمل خطرًا على حياته.

زارت السيدة «سميرة» ابنها المسجون «سعيد»، فسألها عن «حسين»، وزارتها ابنة خالتها، فسألتها عن حُسين، وقابلت في النادي إحدى الفتيات اللاتي تعرفنَّ به فسألتها عن «حُسين»، وكانت كُلما رأت «محمد إبرهيم كامل» يسألها كأنها تراه كُل يوم، تُحادثه، وتحتضنه، وتشعر بأمومتها تجاهه. قبل أيام قال لها زوجها إنه يشعُر باعتلال صحته، وأنَّه يخشى أن يموت قبل أن يطمئن على حال «حسين»، وأنَّه لولا علمه بأن خصومه في الوزارة يتتبعون حركته لسافر إلى

دمشق لرؤيته. دعاها أن تُسافر سرًا إلى هُناك لتلتقي به، وتمكث معه شهرًا أو اثنين لتطمئن على أحواله وتطمئنه.

سجائر عدة قتلتها خلال رحلة الطائرة من القاهرة إلى دمشق تنفيسًا عن أشواق مُستعرة للقاء صغيرها، الذي مهما كبُر سيبقى صغيرًا. فتحت الورقة المُدون بها العُنوان لتُعيد قراءتها مرة واثنتين، وهي تستمع لصوت الطيار مُخبرًا السادة الرُكاب بقرب الهبوط. فكَّرت في رباطة جأش «سعيد» المحبوس بالسجن، وقالت إنَّ «حسين» المُطارد أكثر صلابة، وأنَّ من حقها أن تفخر بابنيها الرجلين. تذكرت أنَّ عائلتها في تركيا ضربت المثل في القوة والصلابة وتحدي الخطر، وخمَّنت أنَّ السمات الموروثة في العائلة تظهر بوضوح في «حسين» و«سعيد».

خرجت من المطار بسرعة بسبب قلة أعداد المسافرين، لتستقل تاكسيًا أعطته عنوان ابنها في الصالحية وطلبت توصيلها إليه. فكَّرت في وقع المُفاجأة على وجه «حُسين»، وتصورت أن يحملها ويدور بها فرحًا، أو يحتضن كفها لاثمًا، أو يبكي من شدة الفرح، ثُم تذكرت أنه قليلًا ما يبكي، بل نادرًا أو مُستحيلًا، وقالت لنفسها أنَّها لم تضبُطه يومًا يذرف دمعة. سألت السائق عن الأحوال في سوريا فرمقها بنظرة توجس قبل أن يرُد قائلًا:

ـ ستعود سوريا مملكة قريبًا بإذن الله.

استغربت كلامه فسألت:

ـ كيف؟

ـ إنَّهم يتحدثون عن تتويج حُسني الزعيم ملكًا.

مصمصت شفتيها، وشعرت أنَّ الرجل يسخر من الأحوال، ولاذت بالصمت.

كانت الشوارع مُزدانة بلافتات من القماش تحمل عبارات التأييد للزعيم المحبوب من الناس، مع صور لا حصر لها ملصقة على

معظم الحوانيت. لاحظ السائق نظراتها المُستغربة فقال:

ــ الناس حزانى على سوء الأحوال وغلاء الأسعار، وهزيمة العرب في فلسطين، وحسني الزعيم قبض على نصف السياسيين وأودعهم السجن، ومع ذلك فالجميع يؤيده ويُهلل له.

ــ تصورت أنّ الحال لديكم أفضل من القاهرة.

مصمص شفتيه وقال:

ــ لديكم ملك شاب، وزُعماء طيبون، لو كان لدينا رجل مثل النحاس باشا لما وصل بنا الحال لما نحن فيه.

هزّت رأسها وتمتمت:

ــ الجميع لا يعجبه حاله، ولو كُنت لدينا للعنت كُل شيء.

وصل الصالحية، الحي القديم مُبهر بعمائره ومآذنه العُثمانية. أوقف السيارة إلى جانب ضريح محيي الدين بن عربي ليسأل عن البناية رقم 334، ثُم تحرّك مُجددا بضعة أمتار قبل أن يتوقف تمامًا ويهبط ليحمل حقيبة السيدة ذات الشال الأسود. سألت «سميرة» طفلًا صغيرًا يقف أمام البناية عن «حسين المصري»، فأشار إلى الدور الثاني قائلًا:

ــ هُنا. عم حسين.

صعدت «سميرة» لتطرُق الباب طرقات خفيفة رغم بحار الشوق المتلاطمة في قلبها مُنذ تسعة شهور من الغياب. انتظرت لحظات، ثُم طرقت الباب مرة أخرى دون مُجيب، ثُم لامت نفسها أنّها لم تتصل بحسين لتُخبره بوصولها. وقفت حائرة قبل أن تُقرر أن تطرق باب الشقة المقابلة لتفتح لها سيدة نحيلة، بدت شبه ناعسة، لكنّها رمقتها بتركيز شديد، قبل أن تحتضنها بشدة.

ــ أنت أم حُسين؟

سألت سيدة الشقة المقابلة، فأجابت «سميرة» مُبتسمة:

ـ نعم. كيف عرفتِ؟

ـ الدم واحد، ونفس لون الشعر.

ـ شكرًا لك.

ابتسمت أم «سُعاد»، ودعت الضيفة للدخول إلى الصالون لحين عودة «حسين»، ولم تكد قدما «سميرة» تخطو قليلًا داخل الشقة حتى شهقت عندما لمحت صورة ابنها وإلى جواره عروس بفستان الزفاف مُعلقة على الجدار المواجه للباب.

جلست مُستغربة، وشعرت بالدم يغلي في رأسها. كيف فعلها؟ تزوَّج دون إذن؟ ومن أين؟ من دمشق؟

انتشلها من دهشتها صوت أم «سُعاد» تقول:

ـ هذه سُعاد. ابنتي. تزوجت حسين الشهر الماضي، وهُما الآن عند الطبيب.

ثُم قالت بسعادة حقيقية:

ـ إنَّها حامل، ستُنجب لك أول حفيد إن شاء الله.

صدمتان مُتتاليتان. اختطاف مُفاجئ. حُضن جديد. امرأة أخرى تقتنصه. ستجعله أبًا. طفل يحمل طفلًا. ستسحبه بعيدًا بعيدًا مُستغلة ظروف الهروب ليبتعد عن أمه الحنون.

ـ ماذا تشربين؟

ردَّت باشمئزاز:

ـ لا شيء. سأُدخن.

ومضت تستمع بحنق مكتوم لحكايات السيدة عن ابنتها والمحبة الغامرة التي يغمرون بها ابنها، وواصلت التدخين بعصبية زائدة مُنتظرة قدوم الولد المُنفلت.

***

ـ لا أستسيغ طعامكم ولولا الجوع ما ذُقته.

قالت السيدة «سميرة» لـ«سُعاد» على مائدة الغداء بمشاركة «حسين» الذي لم يتفاجأ كثيرًا بزيارة أمه. قبل ساعات لم تنجح الأم في منع حُضنها من احتواء ابنها رغم غضبها من زواجه دون إذن، واكتفت بمنح الزوجة نظرة استعلاء. قُبلات مُتتالية منحتها السيدة لابنها فور رؤيته داخلًا برفقة امرأته قبل أن تصر على أن ينام تلك الليلة إلى جوارها حتى الصباح لتحرم الزوجة من شريكها في الفراش.

قالت «سُعاد» التي بدت مُزدهرة الوجه:

ـ حسين اعتاد أن يأكل من يدي، وصار لا يتناول غداءً دون زعتر.

عقدت «سميرة» حاجبيها، وبدا وجهها مُتجهمًا وهي ترُد:

ـ عندما يعود إلى مصر سينسى الزعتر وسيرجع لأكلات بلده.

ابتسمت «سُعاد» في برود قبل أن تقول:

ـ نحن نقول عندنا إن بلد المرء هي مَن فيها امرأته.

ردَّت «سميرة» في عصبية:

ـ هاااا... ونحن عندنا نقول إنَّ المرأة تتبع الرجل إلى أي مكان، ووطنها هو ما يختاره هو وطنًا له.

وأضافت في فخر:

ـ أنا في الأصل تُركية، لكن بعد أن تزوجت توفيق باشا صرت مثله مصرية.

ضحك «حسين» بصوتٍ عال، ونظر إلى أمه سائلًا:

ـ هل حصل الوالد على الباشوية؟

ردَّت بغيظ:

ـ هو على وشك ذلك، ثُم لا تتحدث عن والدك إلا بكُل احترام.

ـ حاضر.

مدَّت «سُعاد» يدها بقطعة دجاج قائلة:

ـ جربي يا خالة أكلي.

هزَّت «سميرة» رأسها، وقالت:

ـ شبعت.

ثُمَّ قامت من المائدة، وجلست على الأريكة، ونظرت إلى «سُعاد» وقالت آمرة:

ـ اعملي لي شايًا.

جلس «حسين» إلى جوار أمه يسألها عن أحوال القاهرة، والأصدقاء، والأقارب، والنادي، وابن خالته «إبراهيم كامل»، و«سعيد» و«مدحت» و«محمود مراد» و«سيد» وباقي المحبوسين. أنبأته أنَّ المُحامي بِشْر والده بأنَّ قرارًا ملكيًا من مولانا سيصدر بالعفو عن المُدانين في القضية، وسيسقط الحُكم الصادر بالحبس ضده ليعود إلى أرض مصر مرة أخرى. قالت له إنَّ مُستقبله محفوظ في إدارة أملاكها الزراعية المُمتدة في محافظتي الشرقية، والبحيرة، وأنَّه سيكون رجل أعمال ناجحًا.

وأخبرته أمه أيضًا أنَّه صار عقب هروبه فتى أحلام مُعظم فتيات العائلات الراقية، حتى أنَّها قرأت في إحدى المجلات أنَّ كثيرات منهُن يُخبِئن صوره تحت مخداتهن. أسعده النبأ وشعر بالراحة أنَّ «سُعاد» غابت في المطبخ لإعداد الشاي. ثُم سأل أمه هامسًا:

ـ هل سمعت أخبارًا عن ميمي؟

حاولت التذكُر، ثُم أخرجت سجائرها يُشعل لها «حسين» واحدة، قبل أن تسأل:

ـ ميمي. مَن؟

لاحظ «حسين» قدوم زوجته، فهمس ثانية:

ــ ميمي صديقة إحسان. ألا تذكرينها؟ فتاة النادي التي كانت أمها صديقة خالتي.

ــ آه. آه. عرفتها. لقد أنجبت ولدًا. هي مُتزوجة الآن من البكباشي محمود موسى.

ـ ياااه.

ــ نعم لقد زار والدك ليطمئن على أحوالك بعد صدور الحُكم، وكان لطيفًا.

مُفاجأة. قالها في سرّه، قبل أن يُشعل سيجارة استغراب، لتواصل أمه الثرثرة في موضوعات شتى لم تدخل رأسه، والذي كان مشغولًا بتساؤلات جمة حول قانون الصدفة الذي يحكم كثيرا من الأمور حوله.

في الأيام التالية كرّرت أمه عبارات اللمز والمُكايدة «لسُعاد» التي بدت صبورة أكثر مما توقّع، والتزمت الصمت. في إحدى المرات قالت لها إنّ المصريين لا يحبون النساء النحيفات، وفي مرة أخرى قالت إنّ خفة دم المصريات أكثر جاذبية للرجل من أي جمال، ومرة ثالثة حكت قصصًا وهمية عن صراع فتيات حي المعادي الراقي على «حسين». كانت «سُعاد» تبتسم وتهز رأسها دون رد مُنتظرة أن يتكلم زوجها لوضع حد للهجة التجريح التي تتحدث بها حماتها، لكنّه لم يفعل، ورغم ذلك تظاهرت «سُعاد» أمام والديها بالسعادة لزيارة حماتها لهما، حتى انقضى شهران كاملان، امتلأ فيهما جسد «حسين» قليلًا، بينما انتفخ بطنها، وجهزت السيدة «سميرة» حقيبتها للمُغادرة.

***

ازدادت الأوضاع توترًا مع بدء حركة اعتقالات شملت كثيرًا من القوميين العرب، في الوقت الذي وصلت فيه الأنباء عن هروب عدد كبير من أعضاء جماعة الإخوان المسلمين من مصر إلى سوريا بعد ضربات قاصمة تعرضت لها الجماعة. وعلى إثر شائعات حول اعتزام «حُسني الزعيم» تسليم حقول النفط السورية لإحدى الشركات الأمريكية الكبرى، وقبوله عمولات من شركات ومؤسسات غربية، دعت كتيبة الفداء العربي إلى اجتماع شامل يضُم جميع الفصائل والتنظيمات العاملة ضد المصالح الصهيونية والغربية، واختارت أحد البيوت القديمة في مدينة حمص مكانًا للاجتماع.

كان «حسين» ممثلًا للمجموعة المصرية قد فوجئ بوجود مجموعة أخرى من مصر يقودها ضابط جيش سابق تابع للإخوان يُدعى «مُصطفى راغب» حاضرًا معه، بينما حضرت مجموعة سورية بقيادة شاب وسيم يُدعى «جهاد ضاحي»، وأخرى بقيادة صديقه السابق «هاني الهندي»، ومجموعة فلسطينية يُمثلها رجل كث اللحية يُدعى «أبا عدنان».

عرض «هاني» ضرورة استكمال عمليات الاعتداء على منشآت يهودية في اللاذقية وحمص وبيروت، مُحبذًا فكرة الابتعاد قليلًا عن العاصمة، حتى لا يُثير ذلك «حسني الزعيم» ويعتبره موجهًا ضده شخصيًا، فيما طرحت المجموعة الفلسطينية ضرورة تنفيذ عمليات اغتيال ضد الساسة والمسئولين العرب الذين تقاعسوا عن نجدة فلسطين خاصة الملك عبدالله ملك الأردن، ونوري السعيد رئيس الحكومة العراقية. ورأى «مُصطفى راغب» أنَّ الإخوان في مصر نفذوا اغتيال النقراشي باشا باعتباره مسئولًا عن ضياع فلسطين، ودفعوا أغلى ثمن وهو حياة «حسن البنا» المرشد العام للجماعة، فضلًا عن تشريد وملاحقة أعضاء الجهاز فردًا فردًا، وهو ما يعني أنَّه ينبغي على باقي كتائب الفداء العربي تنفيذ عمليات اغتيال شبيهة ضد الساسة

العـرب.

ـ قدرُنا أن نحيا وسط حشود من الخونة.

قالهـا «حسـين توفيـق»، وهـو يقـرأ عـلى وجـوه زملائـه تعبيرات مُحرضة ضـد جميـع الساسـة العرب.

ـ لقد باعوا فلسطين دون مقابل.

ردَّ «جهاد ضاحي» ساخرًا، ليُضيف «هاني الهندي» قائلًا:

ـ إنَّ علينـا الـضرب بشـكل قـاسٍ وُمُتكـرر كُل المصالح اليهوديـة والغربية حولنا.

وفـرد «هـاني» خريطـة للقُطـر السـوري واللبنـاني أمامـه، ليُحـدد عليهـا أماكـن الأهـداف المُقـررة في المُـدن السـورية واللبنانيـة، موزعًـا المهـام عـلى كُل مجموعـة مـن المجموعـات المكونـة لكتائـب الفـداء العـربي.

ولاحـظ «حسـين» عـدم تكليفـه بـأي عمليـات فاسـتفسر غاضبًـا، فقـال لـه «هـاني»:

ـ إنَّ نطـاق مجموعتـك هـو دمشـق، ومـن غـير الصـواب اسـتفزاز حُسني الزعيـم خاصـة بعـد مـا فعلـه مـع القوميـين، ولا تنـس مـا فعلـه مـع انطـوان سـعادة، والـذي سـلمه بـدمٍ بـارد إلى الأمـن اللبنـاني ليقومـوا بإعدامـه.

ثُم أضاف قائلًا:

ـ لا تتصـور أنَّ الزعيـم يعبـأ بأحـد، هـو خائـن، والخائـن يبيـع كُل مَـن حولـه في سـبيل اسـتقرار نظامـه.

ـ لكن أنا قادر على تنفيذ عمليات دون لفت نظره أو استفزازه.

قالها «حسين»، وملامح الضيق تعتري وجهه، فأجاب «هاني»:

ـ مـا نعرفـه تمامًـا مـن مصادرنـا أنَّ مخابـرات الزعيـم تضـع جميـع اللاجئـين والفدائيـين تحـت الرقابـة المُشـددة، وقـد نقـل لنا ضابط شـهم اسـمه العقيـد أديـب الشيشـكلي معلومـات حـول قـرب اسـتهداف بعـض

مقرات الكتائب الفدائية لتقوم بتهريب أعضائها خارج البلاد سريعًا.

ـــ أليس من المُمكن أن تكون تلك الفعلة مُجرد خدعة من الزعيم نفسه؟

سأل «حسين» ببرود، فقال «هاني»:

ـــ مُستحيل. هذا ضابط حارب في فلسطين، وهو أحد ضباط كثيرين حول الزعيم يشعرون باستياء من خيانته لانطوان سعادة، وقبوله عمولات من الغرب، ودعوته لمُهادنة إسرائيل.

هزَّ «حسين» رأسه تسليمًا قبل أن يقول:

ـ كُل ما تقوله يدفعني في ناحية واحدة لا بديل عنها.

ـ ما هي؟

سأل «مصطفى راغب» في فضول، فأجاب «حسين» قائلًا:

ـ القتل.

وأضاف:

ـ يجب أن نُسرع بتخليص الأمة من هذا الخائن.

ونظروا مُندهشين إلى الفدائي ذي القلب الميت، الذي طالما أدهشهم بجرأته. وربت «هاني» على كتفه وقال:

ـــ آمل أن تنجح أيُها الرفيق. لكن كُن حذرًا. حُسني الزعيم ليس أمين عُثمان.

***

توالت التفجيرات. تحوَّلت مدرسة الأليسانس ببيروت إلى أنقاض بعد تفجير سيارة نصف نقل إلى جوار أسوارها العالية. لم يمُت أحدٌ، غير أنَّ رياح الفزع طالت العائلات الأجنبية في العاصمة اللبُنانية. في

اليوم التالي أُلقت سيارة مُنطلقة بسرعة شديدة قُنبلتين على مقر القُنصلية البريطانية في اللاذقية لتصيب شظايها حارسين تابعين للأمن السوري، ثُم تم إلقاء قُنبلة شبيهة على مقر المفوضية الأمريكية ببيروت في اليوم نفسه، ثُم أُلقيت أُخرى على مقر الشرطة في طرطوس بعد يومين، قبل ساعات من انفجار مقر وكالة «غوث» للاجئين على الحدود السورية لتنشر الصُحف بيانًا منسوبًا لكتائب الفداء يُحذر منظمة الأمم المتحدة والحاضنة للوكالة من مشروع توطين الفلسطينيين في الدول العربية.

في تلك الأثناء كان غياب «حسين» عن المنزل يتكرر كُل مساء تحت دعاوى مُتابعة أعمال تجارية يقوم بها مع «عبدالقادر»، وكانت «سُعاد» على يقين بأنَّ زوجها يُكرر مغامراته الخطرة، مُحبذة الصمت عملًا بنصيحة أمها الطيبة. قالت لنفسها إنَّ الإصرار على التدخل في أعمال زوجها قد يدفعه دفعًا إلى الانفصال عنها خوفًا من إفساد مهامه. كانت تؤمن بأنَّ زوجها بطل حقيقي وأنَّه يُعرّض حياته للخطر من أجل حرية وكرامة العرب. في يومٍ ما سمعت والدها يتحدث مع زوجها هامسًا بأنَّ السلاح المطلوب موجود مع تاجر فلسطيني يقطُن في حي السيدة رقية، وعرفت وقتها أنَّ والدها يُساعد «حسين» بشكل سري في أعماله الفدائية، مُقدرة عظمة تلك الأعمال التي لا تعرف عنها شيئًا سوى أنَّها موجهة ضد اليهود والخونة.

قالت لنفسها إنَّه لولا أعمال «حسين» الفدائية لما سافر إلى دمشق، وما عرفته وما أحبته، واقترنت به. لقد ساءتها زيارة حماتها، ونظراتها المُشمئزة تجاهها، لكنَّها كانت على يقين بأنَّ تلك الزيارة مُجرد حدث عابر، وأنَّ زوجها لن يعود إلى القاهرة مرة أُخرى.

بدت «سُعاد» مُبتهجة بعودة شقيقها «عاصي» من الأسر بعد غياب عام كامل في حرب فلسطين. عوضها الولد الضاحك كثيرًا عن غياب «حسين» المُتكرر، حيث كان يقضي الساعات تلو الساعات إلى جوارها

حاكيًا عن قصص غرام زُملائه من الجنود، الذين لم يُحاربوا بشكل مُباشر نتيجة تمركزهم بعيدًا عن نطاق الاشتباكات. كان «عاصي» ساخرًا، ومُغرمًا بترديد النكات عن المصريين، وكان كثيرًا ما يقول لشقيقته بأنَّ «حسين» يشبه «جوبلز» وزير الدعاية لدى «هتلر». بدا «عاصي» بعينيه الخضراوين وشعره المُسترسل أشبه بمُمثلي الكوميديا الشوام، وهو يُقلد حركات وتعبيرات «حسين» ساخرًا من عصبيته البادية وجديته الدائمة. سأل «عاصي» شقيقته يومًا، وهو يضحك إن كان وجه «حسين» يحمرّ حال جلوسه معها وحيدين؟ وكان أكثر سُخرية، وهو يسأل في تبجح كيف حملت منه؟

وصارح «عاصي» شقيقته بأنَّ أفضل ما يتمناه هو الهجرة لأوروبا، مُقدرًا أنَّ البلد وما فيه لا يُبشر بمستقبل يحمل أي سعادة، وأنَّه يحلُم بأن يُصبح مُمثلًا على أحد المسارح الأوروبية، لذا فقد كان حافظًا عشرات النصوص المسرحية باللغة الفرنسية التي أجادها إجادة تامة. كانت تراه رغم أنَّ فارق العُمر بينهما لم يتجاوز العامين، ذا عقل حالم، بريء، وكانت تتمنى أن يُفكر بجدية في البحث عن أي عمل مُناسب ليُساعد والدها في مصروفات البيت بعد أن رسمت عجلات الشيخوخة آثارها على وجهه.

كانت «سُعاد» تنظر باهتمام أكبر إلى شقيقتها الصامتة كثيرًا، مُقدرة أن تركها للدراسة، ونحول جسدها، وقلة جمالها يُقلل من فرص زواجها، خاصة في ظل الظروف المُضطربة بالبلاد. قالت يومًا لـ«حسين» أنَّها غير قلقة على أحد من عائلتها سوى «فاطمة» التي تشعر بأنَّها تُخفي في داخلها تلالًا من الحُزن، وكان من الواضح أنَّ زوجها غائب عنها في عالم آخر تتلاطم فيه موجات التفكير في أفضل وسيلة لتخليص البلاد من خائنها الأعظم. لم يرُد كعادته، وواصل وضع تصورات قتل الرجل الأحوط في دمشق. قال لنفسه إنَّ «حُسني الزعيم» لم يعُد يمر بسيارة مكشوفة كما كان يفعل في الماضي،

وتذكـر كيـف ناقـش مـع «عبدالقـادر» و«مصطفـى» عـادات الرجـل وتحركاتـه، وخلصـوا إلى صعوبـة الوصـول إليـه أو اسـتهدافه بقُنبلـة أو رصـاص قنـاص مـن بعيـد، ثُـم تذكـر اقـتراح «مصطفـى» بـدس السـم للرجـل في بعـض زجاجـات الويسـكي المـوردة إلى القـصر الرئـاسي، لكـن «عبدالقـادر» اسـتبعد ذلـك بسـبب إجـراءات الكشـف والمتابعـة الـتي يقـوم بهـا حُـراس الزعيـم كل صبـاح. لقـد فكـروا في كُل سـيناريو لقتـل الرجـل، حـتى أنَّ ذهـن «حسـين» دفعـه إلى التفكـير في محاولـة مقابلتـه وقتلـه مُبـاشرة بـأي وسـيلة، لكنَّـه عـاد ورفـض أن يُضحـي بنفسـه مـن أجـل قتـل خائـن واحـد. فكَّـر «حسـين» بـأنَّ أمامـه طابـورا طويـلا مـن الخونـة، ولابـد أن يُخلـص العالـم العـربي منهـم، والقبـض عليـه مـرة أخـرى سيُنهي حلمـه في أوطـان حُـرة بـلا خونـة وتابعـين.

في تلـك الجلسـة استجابت أذنـاه لقـول زوجتـه بأنَّـه رجلهـم القـوي، وهـو القـادر عـلى فـك عُقـدة «فاطمـة»، وإيجـاد العريـس المُناسـب لهـا. فكـر سريعًـا في كلام «سُـعاد»، لتلمـع عينـاه ببريـق آخـاذ، وترتسـم ابتسـامة فخـر فـوق شـفتيه، قبـل أن يُقـرر في حسـم:

ــ أريـدك أن تسـألي أمـك إن كانـت فاطمـة تقبـل الـزواج مـن صديقـي عبدالقادرعامـر أم لا. أخبريهـا أنَّـه سيسـتأجر شـقة قريبـة مـن هُنـا، وسـيجهزها خـلال شـهرين، وهـو مـن أسرة ميسـورة تُرسـل لـه مـا يكفيـه تمامًـا.

غمـرت السـعادة قلـب «سُـعاد»، حـتى أنَّهـا أحسَّـت بتحـرك الجنـين ببطنهـا، كأنَّـه يرقـص فرحًـا. قبَّلـت «حسـين» فـوق شـفتيه وقالـت لـه:

ــ سأسـألها، وسـتوافق بـكل تأكيد.عبدالقـادر رجـل شـهم، ومُهـذَّب، ويكفينـا أنَّـه صديقـك.

ابتسـم في غـرور، وغـاب مـرة أخـرى في التفكـير في هدفـه الصعـب. حُسـني الزعيـم.

***

مُفاجـأة لـم ينتظرهـا الشـباب الغاضـب عـلى القائـد المُسـتبد. في ساعات قليلـة سـمع النـاس بنبـأ محـاصرة المُقـدم «سـامي الحنـاوي» لقـصر الرئاسـة، قبـل أن تُذيـع إذاعـة دمشـق بيانًـا مُقتضبًـا عـن خلـع رئيـس الجمهوريـة وإصـدار حُكـم سريـع بإعـدام «حُسـني الزعيـم» ورئيـس وزرائـه «مُحسـن الـبرازي» وتنفيـذه. كانـت الحكايـات قـد تناثـرت أنَّ «الزعيـم» قُتـل بواسـطة ضابطـين قوميـين كانـا مُكلفـين بالقبـض عليـه، ثُـم اضطـرت السُـلطات إلى القـول بالحكـم سريعًـا بإعدامـه حـتى تُجنبهمـا أي محاكمـة.

حـكى «هـاني الهنـدي» لـ«حسـين» وجمـع مـن الأصدقـاء اجتمعـوا في مقهـى بإحـدى ضواحـي العاصمـة أنَّ «حسـني الزعيـم» كان يقهقـه بصـوتٍ عـالٍ وهُـم يطلقـون عليـه الرصـاص، وأنَّـه نظـر إلى «مُحسـن الـبرازي» ووجـده يبـكي خوفًـا فـصرخ فيـه بـأن يهـدأ ليمـوت كرجـل لا كسـيدة.

ونـشرت الصُحـف نـص بيـان المجلـس الحـربي الـذي ذكـر أنَّ «حسـني الزعيـم» اتُهـم بتبديـد ثـروة البـلاد وانتهـاك حرمـة قوانينهـا وحريـة أبنائهـا، وأنَّ حكمـه اتسـم بالفـوضى والتعسـف، وأنَّ المجلـس الحـربي الأعـلى وبعـد محاكمـة عادلـة ثبـت لـه أنَّ «الزعيـم» مجـرم، فنفّـذ فيـه وفي رئيـس وزرائـه حكـم الإعـدام.

هلَّـل النـاس فرحًـا بسـقوط «الزعيـم»، وعلّق تُجارالأقمشـة والملبوسـات بسـوق الحميديـة لافتـات التأييـد للمقـدم سـامي الحنـاوي، فيمـا كتبـت الصُحـف عـن مخـازي الرئيـس الطاغيـة الـذي رحـل غـير مأسـوفٍ عليـه، وتـبرأ الشُـعراء مـن مدائحهـم السـابقة للرئيـس القتيـل، ذاكريـن أنَّهـا ولـدت تحـت سـيف الخـوف. وعـلى المقاهـي أطلـق النـاس في محاوراتهـم صفـات الخسَّـة والوضاعـة عـلى الرجـل المعـدوم، مؤكديـن أنَّـه نـال مـا يسـتحق، وأنَّ ربـك لا يظلـم أحـدًا.

عـرض «حسـين» عـلى «هـاني» اسـتئناف أنشـطة مجموعتـه، لكـنَّ «هاني»

رفض طالبًا منح السُلطة الجديدة الفرصة لتصحيح الأوضاع، مُشيرًا إلى أنَّ أحد القادة العسكريين الكبار وهو «أديب الشيشكلي» على علاقة ود مع الأحزاب القومية.

ـ من الضروري أن ننتظر قليلًا حتى لا يحسبوننا في الجانب المُضاد أو يظنوننا غاضبين على إعدام الزعيم.

قالها «هاني»، الذي كان من الواضح أنَّه الأكثر سيطرة على قادة الفصائل والتنظيمات العاملة في إطار مواجهة الصهيونية. وأضاف قائلًا:

ـ إنَّ الدكتور جورج حبش طلب منَّا وقف تنفيذ أي عمليات جديدة، والتركيز على العمل السياسي.

ـ سياسي؟

أجاب «حسين» ساخرًا، قبل أن يُقرر:

ـ إنَّ السياسيين هُم سبب نكبتنا.

وأضاف:

ـ إنَّ جورج حبش يحلُم بعيدًا عن الواقع.

ـ كُل النجاحات بدأت كأحلام.

ـ إنَّه يتصور أن الجماهير ستتحرك يومًا وستثور لتحقيق ما يُنادي به، وهذا أبعد ما يكون عن الواقع.

لم تلق كلمات «حسين» قبولًا لدى ممثلي التنظيمات المُجتمعة، مما دفعه للسكوت، والمُغادرة غاضبًا.

عاد «حسين» إلى أعضاء مجموعته، مُحبذا فكرة العودة للعمل السري بشكل مُنفرد وبدون تنسيق مع أحد. كان يرى أنَّ الوقت هو الأنسب لاستكمال الأعمال الفدائية، خاصة في ظل حالة الصراع على السُلطة في دمشق.

في غضون ثلاثة أيام حدد «حسين» الهدف، ورسم لزملائه خريطة

بالعمليـة الجديـدة، حيـث هاجمـت المجموعـة مركـزًا ثقافيًـا أمريكيًـا بالعاصمـة، وتـم إلقـاء قُنبلتـين داخـل المبـنى لتنفجـرا دون سـقوط أي ضحايا. فيما بعـد نجـح «حسـين» في اسـتقطاب شـاب فلسـطيني غامـض يُدعـى «نـوار» كان يعمـل مـع «هـاني الهنـدي»، ولـه علاقـة وثيقـة بصناعة الديناميـت مـن خـلال تحضـير النيتروجلسريـن في معمـل صغـير ببيته. كان «حسـين» يُريـد أن يُبرهـن لـ«هـاني الهنـدي» و«جهـاد ضاحـي» وقائدهما الروحـي «جـورج حبـش» أنَّـه قـادر عـلى العمـل دون مسـاندتهم.

ورغـم حالـة مـن القلـق انتابـت «سُـعاد» عندمـا اسـتمعت لحديـث بـين زوجهـا و«عبدالقـادر عامـر» عـن نجـاح عمليـة التفجـير، واتسـاع حالـة القلـق بـين الموظفـين الأمريكيـين في دمشـق، لكنَّهـا صمتـت تمامًـا، خاصـة عندمـا بـدأت عائلتهـا في إجـراء ترتيبـات زفـاف شـقيقتها «فاطمـة» إلى «عبدالقـادر». وقفـت «سُـعاد» إلى جـوار شـقيقتها مُسـاعدة، وناصحة، ورافضـة لاعتراضـات شـقيقها «عـاصي» غـير المُـبررة عـلى تلـك الزيجـة. كانـت تقـرأ بصيـص السـعادة عـلى وجـه «فاطمـة »، مثلمـا عرفتـه في وجهـي والديهـا. قالـت وقتهـا لشـقيقتها:

ـ إنَّ عـاصي دائمًـا لـه رأسـه وفكـره المُختلـف، ويكفـي أنَّـه لا يريـد العيـش في سـوريا، وليـس لنـا بعـد والدنـا مـن رجـال سـوى أزواجنـا.

في الوقـت نفسـه اعتـبر «حسـين» زواج «عبدالقـادر» مـن شـقيقة زوجتـه بمثابـة توطيـد لعلاقـة الـولاء المُبـاشر لـه. لقـد افتقـد بالحبـس والسـفر إخـوة مُخلصـين ورفقـاء أوفيـاء مثـل «محمـد إبراهيـم كامـل»، و«سـعيد»، و«مدحـت »، و«سيد»، و«محمـود مـراد»، وهـا هـو القـدر يُقـدِّم لـه البديـل في شـخص عبدالقـادر. لقـد كان يـراه نقيًـا حالمًـا، يحمـل ذات أفـكاره، ويؤمـن بـضرورة التغيـير بالقـوة، ويكـن كُل كراهيـة وعـداء للأجانـب ويعتبرهـم وراء كُل بـلاء ابتليـت بـه الأمـة.

ـ سأُسمي ابني باسمك، وستُسمي ابنك باسمي.

قالهـا لـ«عبدالقـادر» وهـو يحـصي الأيـام المُتبقيـة عـلى دخـول زوجتـه

مرحلة الوضع. كان يُفكر في ابنه القادم باعتباره امتدادا لنضاله ضد الخونة والمُخادعين، مُقررًا أنّه لن يُربيه مثلما تربى، بل سيُعلّمه الكفاح وسيزرع فيه الجرأة والإقدام. «لن تكون مُدللًا يا عزيزي. ستولد رجُلًا». قالها بصوتٍ هامس وهو يتحسّس بطن «سُعاد» المُتفخ.

***

دقّق الرجل النحيل ذو العينين المسحوبتين، المُحاصرتين بسُحب داكنة تكّونت بفضل النيكوتين والكحول والسهر الطويل، في ملف أحمر موضوع أمامه قبل أن يتصفّح في صمت أوراقه الصفراء. وقفت عيناه عند صورة شخصية كُتب تحتها اسم «حسين توفيق أحمد» ليستنطق تفاصيلها مُكررًا تجربته السابقة في توقع تصرفات الإنسان طبقًا لملامحه. كان «عبدالرحمن ناصر» الرجل الخطير، الذي يُدير أهم جهاز أمني في العاصمة السورية، يقول دائمًا إنّه قادر على رسم تحركات الناس، واستنباط سلوكهم الشخصي طبقًا لأوصافهم الشخصية، مُقررًا أنّ هناك نظرية في علم الإجرام تربُط تصرفات معينة بأوصاف شكلية. وكثيرًا ما ذكر «عبدالرحمن» لتلامذته من ضباط الاستخبارات أنّ القاتل إمّا أن يكون مُفرط الطول أو واضح القصر، وأنّ الرجل قاسي القلب له في الأغلب جبهة عريضة، وذقن صغير. وزاد على ذلك أنّ الإنسان الذي لا يعبأ بمشهد الدم وربما يُطرب له ويستعذبه، يعاني في الغالب من قصور ما في أحد حواسه مثل السمع أو النظر أو الكلام.

فكّر رجل المعلومات الأول في شخصية «حسين توفيق»، وأمامه تقرير بتحركاته ولقاءاته وأنشطته مُنذ دخل الأراضي السورية وحتى لحظة اطلاعه، وأعاد النظر في صورته المُلتقطة قبل أيام، ليخلُص

إلى أنَّـه شـخص مُناسـب لأعمـال الجهـاز غـير الرسـمية. رشـفَ رشـفات قليلـة مـن قنينـة ويسـكي أخرجهـا مـن أحـد أدراج مكتبـه الفخـم قبـل أن يطـرق البـاب أحـد حُراسـه ليُخـبره أنـه جلـب المدعـو «حسـين توفيـق»، وأنَّـه الآن ينتظـر في الخـارج.

ـ ماذا يفعل؟

ـ لا شيء. يجلس صامتًا.

ـ دعهُ ينتظر.

قالهـا وعـاد إلى أوراقـه، ثُـم قـال لنفسـه إنَّ السُـلطة لـم تسـتقر بعـد بانقـلاب «الحنـاوي»، وأنَّ الأيـام القادمـة ستشـهد صراعـات جديـدة خاصـة بـين مجموعـة الضبـاط الذيـن حاربـوا في فلسـطين، والذيـن يعتـبرون أنفسـهم الأحـق بالقيـادة. إنَّ «حسـين توفيـق» نمـوذج مثـالي لخـادم مُطيـع. مثـال جيـد لقاتـل مُحـترف، سـهل التوجيـه، والمُتابعة، لا يعـرف الخـوف، ولا ينتابـه القلـق، مُتبلّـد المشـاعر، مُنعـدم الأحاسـيس، يعشـق القتـل ويسـتمتع برؤيـة الأرواح وهـي تغـادر الحيـاة. عينـاه تشـعّان بريقًـا مُفزعًـا، وجبهتـه تُدلـل عـلى قسـوة قلـب لامُتناهيـة، أمـا فمُـه فيفيـض لامبـالاة غـير محـدودة. هـو الشـخص المُناسـب في التوقيت المُناسـب، لأنَّ كل مُتصـارع عليـه أن يسـتعرض أدواتـه اليـوم.

نظر إلى حارسه وسأله:

ـ هل طاوعك هذا المصري في المجيء سريعًا؟

هزَّ الحارس رأسه، فسأل رجل المُخابرات مرة أخرى:

ـ هل سألك عن وجهته، وعمَّن يُريده؟

ـ نعـم، وقلـت لـه إنَّ ذلـك ليـس مـن شـأنه، وأن عليـه أن يـأتي معـي دون كلمـة، ففعـل.

ـ عظيم. أدخله الآن.

وأخـرج قنينـة الويسـكي مـرة أخـرى ليدلـق بعضهـا في جوفـه، ثُـم تظاهر

بالنظر في أوراق الملف، عندما دلف «حسين» مُلقيًا السلام، ليشير له بيده ليجلس على أحد كُرسيين أمامه، قبل أن يقول لحارسه:

ـ لا داعي لأي إزعاج. لا أحد يدخُل علينا.

نظر رجل المخابرات المُخضرم لوجه «حسين»، مُراجعًا أوصاف «لومبروز» للشخص المُجرم، جبهة عريضة، أذنين كبيرين، شعر غير مُتناسق،عينين زائغتين، وأنف بارز، ثُم لاحظ رباطًا من الشاش حول كف «حسين» الضخم، فسأله مُبديًا القلق:

ـ قُل لي ما بك؟ ماذا أصاب يديك؟

ـ لا شيء. مجرد حادث بسيط.

رفع «عبدالرحمن» حاجبيه وقال:

ـ أي حادث؟

نظر «حسين» في عينيه وقال إنَّهما تُذكرانه بعيني «إبراهيم إمام». ليس كـ«حُسني الزعيم» في صرامته، هو مُجرد مُبتدئ في عالم الخوف. ابتسم قليلًا وهو يقول:

ـ صينية بطاطس. كانت أم عبدالقادر تُعدّ لي صينية بطاطس، وحملتها عنها فأحرقت كفي.

ـ يااااه. ألف سلامة عليك.

ثُم قال بنبرة غموض:

ـ كيف حالها؟

ـ مَن هي؟

ـ أم عبدالقادر.

هزَّ حسين رأسه وقال:

ـ هي بخير.

عاد رجل المُخابرات إلى النظر إلى الملف الموضوع أمامه، وفتحه

لتظهر صور عديدة لـ«حسين توفيق»، منها صور له في مصر، وصور في عمان، وصور في دمشق. التقطت أصابعه صورة «لحسين» ومعه «عبدالقادر» و«مصطفى صدقي» و«محمد المرصفاوي» جالسين على أحد المقاهي، وضعها أمام جليسه، وقال:

ـ لم تُنجب زوجتك بعد. لكنَّك ستُسمي ابنك القادم عبدالقادر حُبًا في صديقك.

كرر حسين هز رأسه، وهو يقول:

ـ هذا صحيح.

أخرج الرجل الذي يظُنّ نفسه دماغ السلطة الجديدة في دمشق عقب إسقاط «حُسني الزعيم» قنينة الويسكي ليرشف منها قليلًا قبل أن يقول لـ«حسين»:

ـ وهل تعرف السيدة أم عبدالقادر أنَّ عبدالقادر هذا مُجرم؟

ـ مُجرم؟

كررها «حسين» مُستغربًا، ثُم قال:

ـ عبدالقادر ليس مُجرمًا حضرة المُقدم. إنَّه بطل.

ـ بطل؟

ـ نعم بطل. ألم تقرأ ملفه؟

ثُم قال وابتسامة ناعمة تتراقص على شفتيه:

ـ أنا أعرف أنَّك تعرف عني كُل شيء. وتعلم يقينًا طبيعة المُهمة التي أصيبت فيها يدي. وأتوقع أنك تُلم بكُل شيء عني وعن زملائي، لأنَّك ببساطة ورثت ملفاتي الموجودة في خزائن حُسني الزعيم.

قام «عبدالرحمن» واقفًا، وصفَّق بيديه، ثُم وضع ذراعه على كتف «حسين»، وقال له:

ـ ياااه. لقد قصّرت عليّ الطريق. أنا أُقدّر التعامل مع الأبطال

العظـام أمثالـك. أنـت واضـح وصريـح، ولا تعـرف لفًـا أو دورانًـا.

ابتسم «حسين»، وقال:

ـ إنِّي أعلم مُنذ اليوم الأول لي هُنا أنَّكم تراقبونني.

وأخرج علبة سجائره، قائلًا:

ـ هل تأذن لي بالتدخين؟

ـ بالطبع بالطبع.

أشعل «حسين» سيجارته، وهو يقول:

ــ تصوَّر أيهـا الضابـط النبيـل أنَّ ضابطًـا مصريًّـا حرمـني مـن التدخـين وهـو يُحقـق معـي. قمـة التجـبر والوحشـية.

ـ ياه. لابد أنَّه شخص موتور، ليس لديه أخلاق.

نفثَ «حسين» دُخانه وقال:

ــ لا يـا حـضرة الضابـط لا تسـبه. إنـني أحبُّـه وأحترمـه. كان ذكيًّـا للغايـة، لكـنَ في النهايـة، فهنـاك ذكي وهنـاك أكـثر ذكاءً.

ربـت «عبدالرحمـن» عـلى كتِـف «حسـين»، ثـم عـاد مـرة أخـرى إلى مقعـده، قبـل أن يقـول:

ـ اسمع. أنت رجل عظيم. ويُشرفني أن تكون واحدًا من رجالي.

ـ أنا على استعداد للتعاون معك.

ـ عظيم.

ــ ستسـمح لنـا بعملياتنـا الفدائيـة ضـد إسرائيـل والخونـة وسـتجد منـا كُل مسـاعدة.

ــ طبعًـا. لكننـا يـا صديقـي سـنعمل ضـد الخونـة فقـط، أمـا إسرائيـل فسـنتركها للقـادة والزعمـاء والجيـوش الْمنظمـة.

ابتسم «حسين» وقال:

ـ إننا في حاجة للمال.

ـ بالطبع.

ـ والسلاح.

ـ هذا ضروري.

ودلق رجل المخابرات بقية قنينة الويسكي في فمه، وقال:

ـ سأوفر لكم كُل ما تحتاجونه. العملية القادمة ستكون في طرطوس. ضابط سابق من أتباع الخائن حسني الزعيم هرب واختبأ هُناك، ونُريد إعدامه. تصوَّر كان هذا الضابط هو حلقة الوصل بين الزعيم وإسرائيل، وظنَّ أنَّه يُمكنه أن يُفلت بما فعل.

ومد يدُه بملف للضابط المذكور وصورة شخصية له. مدَّ «حسين» يده ثُم هزَّ رأسه موافقًا.

***

سُرَّ «حسين» بعمله الجديد كقائد لخلية مُحصنة أمنيًا من جانب المُخابرات، ووجد هو وزُملاؤه أنفسهم في العودة لاحتراف الخطر، وقنص الأهداف المُتحركة، وزرع الفزع في القلوب، ورسم الهلع على الوجوه. رصاصة هُنا وأخرى هُناك يتبعها شعور طاغ بالبطولة يدفعهم دفعًا للسهر والغياب في نُعاس الكحول، ليرى كُل منهم نفسه فارسًا مغوارًا. كان «حسين» يعود كُل مرة لزوجته مُنتصب القامة كأحد قادة الحروب القروسطية، مُمارسًا حقوقه الزوجية في قوة واعتزاز وفخر.

وضعت زوجته، وهو في إحدى المُهمات خارج العاصمة، وعندما عاد شاهد ولدًا مُطابقًا في الشبه له، وفوجئ بحميه قد أسماه «خالد». فكَّر في وعده له«عبدالقادر»، فقرر أن يُغيِّر الاسم في بطاقة الميلاد بعد العودة إلى القاهرة. نظر في عيني ابنه وقال له «ستكون

رجـلًا صلبًـا»، وتذكـر والـده ونظرتـه المُشـفقة تجاهـه والـتي كان يكرههـا للغايـة. اشـترى لِعـب أطفـال عديـدة كان مـن بينهـا مُسـدس صغـير يـرُش مـاء، وهـو مـا أثـار حالـة مـن الضحـك لـدى «سُـعاد» الـتي كانـت في قمـة جبـل السـعادة بالمولـود الجديـد. كمـا كانـت سـعيدة أن تـرى «حسـين» ذا مـال وفـير في الفـترة الأخـيرة إذ تعـددت هدايـاه للبيـت، والزوجـة، والطفـل الصغـير.

في يـوم مـا صحـا النـاس عـلى موسـيقى عسـكرية في إذاعـة دمشـق، ليعرفـوا سريعًـا أنَّ انقلابًـا عسـكريًا جديـدًا قـد وقـع، وأنَّ ضابطًـا بـارزًا يُدعـى «أديـب الشيشـكلي» قبـض عـلى «سـامي الحنـاوي» وأجـبره عـلى التنـازل عـن الحكـم، وأصـدر قـرارًا بنفيـه إلى بـيروت. لـم يُفاجأ «حسـين» هـذه المـرة، وشـعر ببعـض التفـاؤل لعلمـه أنَّ المُنقلـب الجديـد عـلى صـلات جيـدة بكتائـب الفـداء والحـركات القوميـة، وهـو مـا قـد يمنـح النضـال ضـد الصهيونيـة دفعًـا للأمـام.

وردت الأخبـار مـن مـصر مُزعجـة خاصـة عندمـا عـرف «حسـين» بفـوز حـزب الوفـد في الانتخابـات الـتي جـرت باكتسـاح، وقيـام «مصطفـى النحـاس» بتشـكيل الحكومـة. ذلـك الداهيـة العجـوز مـازال قـادرًا عـلى الاسـتحواذ عـلى محبـة النـاس، والسـير معهـم في نفـس الطريـق مُدعيًـا أنَّـه يسـتمد منهـم القـوة. قالهـا لنفسـه، وهـو يُفكـر كيـف أفلـت الرجـل مـن مـوتٍ مُحقـق نتيجـة فـارق لا يتعـدى الثـواني الثلاثـة فقـط. هـو محظـوظ لاشـك في ذلـك، هكـذا حسـب، وهـو يشـعر بصعوبـة نجـاح جهـود أسرتـه للحصـول عـلى عفـو ملـكي في ظـل وجـود «النحـاس» والوفديـين عـلى رأس الحُكـم. لـن يغفـروا لـه أبـدًا. هكـذا كـرر وهـو يُفكّـر في أصدقـاء المـاضي الأوفيـاء. تذكـر «السـادات» واسـتغرب مـا عرفـه مـن «عبدالقـادر» حـول عودتـه إلى الجيـش مـرة أخـرى. كيـف عـاد المُحـرّض الأكـبر، والقاتـل في الظـل إلى عملـه في المؤسسـة العسـكرية؟ ألم يُحسـب يومًـا عـلى الألمـان؟ ألـم يعمـل مـع الإخـوان؟ ألـم يُتهـم بالعُنـف

والإرهاب؟ ألم يُفجّر ويُطلق النار ويستحل الدماء؟ لِم تمت تبرئته الآن، بينما صار هو طريدًا للعدالة، صيدًا سهلًا للمُستغلين من رجال المُخابرات وميليشيات الحركات السياسية في كل مكان؟

جلس «حسين» ليلعب الشطرنج مع حميه، عندما حكى له الرجل في هدوء الزاهد أنَّه مُصاب بمرض خطير قد يُنهي حياته خلال شهور قليلة، وأنَّه يُحمّله مسئولية مُراعاة «أم سعاد» ، والاهتمام بها وبابنتيها، وأن يكون لهم بمثابة الراعي، خاصة بعد سفر «عاصي» إلى لبنان للعمل هُناك لفترة حتى يتمكن من إتمام حلمه بالهجرة إلى الخارج. قال «شاكر الحميدي» لصهره إنَّه ترك لابنه مُكافأة نهاية الخدمة، بينما أوصى بشقته لابنتيه سُعاد وفاطمة. لم يشعر الرجل بجزع صهره مما حكاه كأنَّه يُحدث نفسه، وسمعه بعد فترة يقول في برود غريب:

ـ كِش ملك.

كان «حسين» وقتها يُفكر في أمر مُختلف، فقد رنّت في أذنيه كلمات المُقدم «عبدالرحمن ناصر» له قبل أيام بضرورة التخلُّص من «أديب الشيشكلي». لقد حكى رجل المخابرات لـه«حسين» كيف خدع هذا الرجل الأحزاب الوطنية والقومية، وادعى المُشاركة في حرب فلسطين، بينما لم يُطلق رصاصة واحدة، واستهدفت مشاركته الحصول على أكبر كم من الأسلحة لتخزينها لصالحه واستخدامها وقت الحاجة. واستغرب «حسين» حكايات سردها مُحدثه عن اتفاقات لـه«الشيشكلي» مع بعض الساسة خاصة بعد أن أعاد «هاشم الأتاسي» رئيسًا شكليًا للجمهورية، بهدف عمل صلح مع إسرائيل.

«لقد حقق الرجل ما يريد مرحليًا وهو الوصول لمنصب رئيس الأركان وسيصبح خلال شهور قليلة الحاكم الأوحد لسوريا، ووقتها سيأمرني بالقبض عليك وعلى أصحابك المُناضلين ليُسلمكم للمخابرات البريطانية التي تطلب رؤوسكم». كررها «عبدالرحمن» على مسامع

«حسين» حتى بات يُرددها مع نفسه.

ـ للأسف مات الملك.

قالها «شاكر الحميدي»، وهو يُمسك بأصابع مُرتعشة ملكه الخشبي، بينما سرح دماغ «حسين» في خطة اغتيال أديب الشيشكلي.

***

قال «حسين» وهو يشرح تفصيليًا على خريطة ورقية رسمها له «عبدالرحمن ناصر» أخطر وأهم عملية مُنذ لامست قدمه أرض الشام:

ـ سنقتل الطاغية. سنأكله غداءً قبل أن يتعشى بنا جميعًا. غدًا في المساء سيمُر الهدف من ميدان المارجة للاجتماع في مجلس الحكماء مع «أكرم الحوراني». سيتكون موكبه من ثلاث سيارات جيب في كُل منها أربعة جنود، فضلًا عن سيارته الكاديلاك. ستكون هناك سيارة حراسة في المقدمة وواحدة على اليمين وواحدة على اليسار. فور دخول الموكب إلى الميدان وقبيل التوقف بثانيتين سيُلقي نوار الفلسطيني قُنبلته على سيارة المُقدمة، بينما سيكون «مصطفى كمال» و«المرصفاوي» خلف الموكب ليلقيا قنبلتين على السيارتين المجاورتين، في اللحظة نفسها سأخرج أنا و«عبدالقادر» من العمارة المجاورة لمجلس الحُكماء لنطلق النار على الرجل فور انفجار القنابل. بعد إصابة الهدف سننسحب بهدوء نحو مبنى الفنادق الجديدة لنقفز من سطحه إلى المبنى المجاور، وهُناك سنُغيّر ملابسنا ونرتدي ملابس الشرطة لنبدو كباحثين عن القتلة، وستقلنا بعد ذلك سيارة عسكرية خاصة بعيدًا عن الموقع.

كانوا خمسة يتحلقون حول مائدة مُستديرة بشقة صغيرة استأجرها

«حسين» قبل شهور لتُصبح مقرًا لاجتماعاتهم. بدا «عبدالقادر عامر» مُقتنعًا بجدارة الخطة التي وضعها «حسين» أو وُضعت له. كان على يقين بأنَّ هُناك جهة ما أو حركة قوية وراء عمليات «حسين» ومكافآته السخية، لكنَّه رضي ألا يسأل ما دامت تلك العمليات تُحقق طموحاته في الفداء والمُغامرة، فضلا عن استقراره في دمشق وحياته الهانئة بعد الزواج من «فاطمة». وشعر «مصطفى كمال» بميل شديد نحو أعمال القتل وإطلاق الرصاص، مُكررًا فكرة عبثية الحياة الطبيعية، وضرورة العيش مع الأخطار. أما «محمد المرصفاوي»، فكان لا يُفكر إلا في الحصول على أموال وفيرة تكفيه شراء صناديق من الخمور المُتنوعة واستئجار أجساد الفاتنات من المومسات. وجاء انضمام «نوار» الفلسطيني إلى المجموعة نكاية في مجموعة «هاني الهندي» التي مالت إلى السلمية بأوامر من «جورج حبش».

قلب «حسين» كرتونة من الأسلحة المتنوعة فوق الطاولة، وقال لزملائه:

ـ سيكون مع كُل واحد منا مُسدسان محشوان في جيبيه، وثالث مربوط في ساقه وستوضع القنابل في حقيبة صغيرة يتم تعليقها فوق الكتف.

وأضاف:

ـ ساعة الصفر هي الواحدة ظُهرًا، حيث سنتحرك إلى مواقعنا وسنبقى فيها مُختبئين حتى السابعة مساء موعد وصول الهدف.

ـ ماذا نفعل لو تأخر وصوله أو ألغي اجتماعه؟

سأل «مصطفى» في اهتمام، فردَّ «حسين» قائلًا:

ـ لا تقلق. لو تأخر سننتظره، أما إذا ألغي الاجتماع وهذا احتمال مُستبعد، فسنضع له خطة أخرى.

نظر «حسين» مرة أخرى إلى أفراد جماعته واحدا تلو الآخر، وعلا

صوته قليلًا وهو يقول:

ـــ خذوا بالكم. لو خرج أكرم الحوراني لاستقبال رئيس الأركان، علينا قتله هو الآخر، ووقتها ستتضاعف المُكافأة. ستصبحون جميعًا أثرياء إلى الأبد.

وتفحصهم بنظرات سريعة قبل أن يسأل مرة أخيرة:

ـ هل لدى أحد أي سؤال؟

هزُّوا رؤوسهم، وانصرفوا، فعاد «حسين» إلى البيت ليجد امرأته تُهدهد طفلها وهي تبكي، فاستفسر مُتظاهرا بالاهتمام، فأجابت بأنَّ حرارة الطفل مرتفعة مُنذ الصباح، وتشعر بالخوف الشديد عليه. طمأنها مُقبلًا، وأخبرها بأنَّ كل الأطفال يمرون بحالات مرض مشابهة، قبل أن يتركها ليجلس وحيدًا في شرفة بيته يُدخن في هدوء. كان يُفكر في العملية القادمة التي قيل له إنْ دولًا كُبرى في المنطقة يهمها نجاحها، وأنَّه سينال ما لم ينله شخص من تكريم، خاصة أنَّه سيُنقذ العرب من عار جديد سيلحقه بهم الضابط الطاغية. تخيَّل «حسين» جسد رئيس الأركان وهو يتراقص تحت زخات الرصاص المُنهمر، ثُم يسقط صريعًا لتسقي دماؤه أرض الميدان الأشهر بالمدينة القديمة. مرّ بخاطره مشهد «أمين عُثمان»، وهو يهوي على الأرض بعد أن غرس في جسده عدة رصاصات قاتلة. ابتسم، وهو يفكّر كيف تهرب الروح مُفارقة جسدًا يُحاول حبسها! ما أجملها مُهمة، تلك الموكولة لملك الموت، أن يسحب نفسًا من عالم الأكاذيب ليُلقي بها عارية في عالم الحقيقة. تصوَّر لو مات هو، لو اختاره القدر هدفًا بدلًا من صيده، لو تلقفه الملاك الحازم لينقله من مكان إلى لا مكان، ومن زمان إلى ما لا يعرف. لو رفرفت روحه مُفارقة، وعاصية لإرادته. لو أخطأ هدفه وأصابته أيدي الأوغاد الأشرار. ساعتها ستبكي «سُعاد»، رُبما أكثر من الآن، وسيكبُر ابنه مُدللًا رخوًا ناعمًا كما النساء، ضعيفًا مثل «عاصي»، ورُبما جبانًا مثل «نجيب». سيقف أمام ضحاياه دون

محـام. سيقتصون منـه. ستلعنه كُتب التاريـخ، وسيشـوهون أعمالـه.

طـرد وساوسـه، وقـام ليغسـل وجهـه ويُغـيّر ملابسـه، ويتمـدد عـلى الفـراش بعـد أن منـح ابنـه قُبلـة نـادرة، دفعـت زوجتـه للدهشـة.

***

في مقـرّ الشركـة العربيـة للتجـارة بحـي المارجـة جلـس «حسـين» و«عبدالقـادر» يتابعـان إجـراءات تحويـل بضائـع لمـصر عـبر البحـر. كانـا قـد ادعيـا أنهمـا تاجـران يرغبـان في بحـث تفاصيـل نقـل عـشرات الصناديـق مـن الأقمشـة والمنسـوجات إلى مينـاء الإسـكندرية، واسـتهلكا وقتًـا طويـلًا في أسـئلة بـلا مغـزى سـوى إطالـة الوقـت، حـتى موعـد اقـتراب سـاعة الصفـر. اسـتئذنا بعـد مشـاورات طويلـة وظـلا عـدة دقائـق يُدخنـان عـلى السـلالم انتظـارا لصـوت الانفجـار موعـدا لبـدء العمليـة. تجـاوزت عقـارب السـاعة الموعـد المُحـدد، ولـم يجـرِ أي شيء، ممـا دفـع «حسـين» للخـروج إلى الشـارع، مُقتنعًـا أن سـوء الحـظ كثـيرًا مـا يُفلـت منـه ضحايـاه. نظـر خلفـه فوجـد «عبدالقـادر» قلقًـا وهـو يخطـو خـارج المبـنى، فرفـع كتفيـه بعلامـة عـدم معرفـة مـا دفـع «أديـب الشيشـكلي» إلى إلغـاء موعـده. سـار «حسـين» بضـع خطـوات إلى جـوار مجلـس الحُكمـاء ليتبعـه «عبدالقـادر» في تسـليم، لكـن لـم تمـض نصـف دقيقـة حـتى ظهـرت سـيارات الموكـب بادئـة عـلى غـير المُعتـاد بالسـيارة المُقلـة للهـدف، والـتي توقفـت سريعًـا ليهبـط منهـا بضعـة جنـود مُدججـين بالبنـادق صانعـين دائـرة شـبه مُكتملـة، ثـم ترجّـل قائدهـم عابـرًا بخطـوات سريعـة نحـو المبـنى، ممـا دفـع «حسـين» للالتصـاق سريعًـا بحائـط المبـنى، قبـل أن تتقابـل عينـاه مـع عيـنى أحـد الحـراس المُتحفزيـن ليقـرأ فيهمـا الاسـتعداد التـام. رمـى «حسـين» بعينيـه إلى زميلـه سـائلًا عمـا أعـاق بقيـة الأفـراد عـن القيـام بمهامهـم، ثـم غمـزه غمـزًا فهمـه

«عبدالقادر» فاتخذ موضع الاستعداد، ليبدآ معًا في اللحظة ذاتها إطلاق ذخيرة أربعة مسدسات نحو «أديب الشيشكلي» الذي توقف مكانه غير عابئ بالرصاص، مُثبتًا لنفسه قبلهم أنّه ذو قلب ميت. عشرات الرصاصات انهمرت على موقع وقوف الهدف، قبل أن يبدأ حُراسه في الرد بعصبية وتوتر مما أصاب القنّاصين بالارتباك، وتقهقرا رويدًا وظنَّ «حسين» أنَّ بضع رصاصات أصابت هدفه وحارسه الشخصي. جريا بظهريهما نحو مبنى الفنادق، لكنّهما فوجئا أن بابه مُغلق من الداخل بإحكام، فواصلا الركض نحو المبنى المجاور، لكنّه كان مُغلقًا كذلك، فتابعا الهرب والرصاص يُدوي فوقهما ليؤكد إصرار الحرس على الإيقاع بهما.

من حائط إلى آخر تنقلا، وبحث «حسين» عن شقٍ في الأرض أو سلمًا إلى السماء دون فائدة، في الوقت الذي سمع فيه عُواء مكتومًا خلفه عرف منه أنَّ «عبدالقادر» أُصيب. نظر إليه فرآه رافعًا ذراعيه لأعلى في وضع الاستسلام، فأيقن أنّه مهما فرّ فسيصلون إليه، وتذكر يوم القبض عليه بعد ساعات من قتل «أمين عُثمان». فكّر للحظات، قبل أن يُقرر أنّه ليس من الحكمة مواصلة الركض، ليُلقي بمُسدسيه على الأرض، ويهبط على ركبتيه رافعًا يديه مثل زميله.

قُيّدا، وضُربا، وصُبت عليهما الشتائم، واقتيدا نحو إحدى سيارات الحراسة لتنطلق بهما بسرعة جنونية مرّت خلالها عبر شوارع عديدة، ثُم توقفت أمام حاجز عدة دقائق قبل أن تنطلق مرة أخرى في طريق خارج العاصمة، في الوقت الذي سمع فيه «حسين» أنين صاحبه، ثُم بُكاءه، فالتفت إليه مُعاتبًا بنظراته ليرى يُسراه تكتم دمًا مُتدفقا من جانبه الأيمن. هزّ رأسه وقال لنفسه: إنّها الخيانة.

وقفت السيارة فجأة ليجد «حسين» مَن يلف عصابة حول عينيه، ثُم يدفعه لأسفل، فسقط على الأرض، لكنه تماسك ووقف مرة أخرى ومضى أمام يد تدفعه بقوة، حتى وجد نفسه في غرفة مُظلمة،

أيقـن أنّهـا إحـدى زنزانـات رئيـس الأركان المتطلـع إلى الحُكـم. رفعـوا العصابـة ليشـعر بألـم حـاد في عينيـه أعـاد لذهنـه آلام مـا بعـد عمليـة إصـلاح الشـبكية. تذكـر مـا سـمعه مـن حميـه يومًـا عـن كيفيـة تعامـل العسـكريين مـع بعضهمـا بعضـا. هُـم لا يعرفـون الرحمـة. رصاصـات سريعـة يتلـذذون بإطلاقهـا نحـو ضحاياهـم، ورُبمـا شـاهدوا خصومهـم يتعذبـون أمامهـم طلبًـا للمـوت الرحيـم فأبـوا. لقـد قتلـوا «حُسـني الزعيـم» بـدمٍ بـارد، قبـل أن يدوسـوا جُثتـه بالأحذيـة يـوم غـدروا بـه، ثُـم قتلـوا «سـامي الحنـاوي» بعـد أيـام قليلـة مـن نفيـه لبـيروت دون أي مُـبرر سـوى الانتقـام. وهـا هـو «الشيشـكلي» ينجـو مـن رصـاص كاد أن يمحـو طموحاتـه نحـو الانفـراد بالسُـلطة.

فكّـر «حسـين» إن كان عليـه أن يحـكي كُل شيء عـن رجـل المُخابـرات، الـذي حرّضـه ورسـم لـه الطريـق، ودفـع، ومـوّل، وطمأنـه بالسـلامة مـا دام حيًـا. قـال إنـه سـيكون إلى جـواره دائمًـا، ولـن يسـمح لأحـد بايذائـه، وصـدّق «حسـين» لأنّـه كان يُريـد أن يُصـدق، أو لأنّـه كان في حاجـة لمـال وفـير، بـل لأنّـه كان في حاجـة لرصـاص يُطلـق، ودمٍ يسـيل، وروحٍ تُزهـق. هـل يعلـم «عبدالرحمـن نـاصر» أيـن هـو الآن؟ وهـل سـينقذه بالفعـل؟ أم يكـون هـو الـذي وشى بـه؟ لكـن لِـمَ؟ لـو أراد القضـاء عليـه لفعـل ببسـاطة وبـدون مثـل هـذه الأفـلام السـاذجة.

قـال لنفسـه، إنّـه أقـوى مـن الخـوف، وأصلـب مـن التوتـر، وأشـدّ مـن أي تعذيـب. جلـس عـلى ركبتيـه، واضعًـا وجهـه بـين كفيـه، مُغمضًـا عينـين احمرتـا مـن أثـر الضربـات ودُخـان الرصـاص، لينـام. رأى «ميمـي» تُقبّلـه باهتمـام وهـي تُصارحـه بأنّهـا لا تشـعر بـأي نشـوة مـع زوجهـا الضابـط. قالـت هامسـة بميوعـة: «إنّـه يرتعـش كُلمـا نظـر نحـو نهـداي». احتضنتـه «سـناء»، وهـي دامعـة العينـين، لتطلـب منـه أن يُسـامحها. أوضحـت كـم كانـت عـلى خطـأ عندمـا فضّلـت عليـه «نجيـب» قـارئ الكُتـب وعاشـق الأفـلام: «إنّـي أريـد رجـلًا قويًـا مثلـك. رجـلًا حقيقيًـا».

سمع «سعيد» يُناديه بصوتٍ عالٍ: كم أفتقدك يا مُعلمي. اشتمت جيوبه الأنفية عطر «سُعاد» الهادئ، وشعر بجلدها الأبيض يُلامس جلده. كانت كما عرفها دومًا طائعة، ساكنة، توافقه على أي فعل، وتلتمس له ألف عُذر.

فتحت له ذاكرته نافذة على شوارع نظيفة هادئة، وعساكر لهم بشرة بيضاء يسيرون بأفخاذ عارية، وطلبة أشقياء يلقون عليهم الطوب ثُم يختبئون خلف أشجار سامقة. شاهد وجه أبيه مُحمَّرًا وهو يُتابع مشهد إطلاق الرصاص على قاضي دُنشواي بسعادة غامرة، ثُم رآه باردًا بعد أن غمرته راحة المنصب وأسكتته سكينة النفوذ. أطلَّت أمه بسمتها المُتعالي وملامحها التُركية لتقول له إنَّه باشا لأنَّ والده باشا وخاله باشا وجده باشا وأنَّه لا يجب ألا يلعب مع «سيد» قريب «عثمان الجنايني».

ــ قُم.

أيقظه صوت ارتطام الباب الحديدي بجدار الزنزانة ليجد ماردًا مُخيفًا يرتدي ملابس عسكرية يأمره بالسير أمامه، ليقوده عبر دهليز مُعتم إلى حجرة مكتب فخم شديدة الشبه بتلك التي التقى فيها حُسني الزعيم في العام الماضي. دُفع داخل الغرفة ليجد هدفه جالسًا ببذلة عسكرية مُزدانة بالنياشين وفوق رأسه بيريه لائق برجل حرب. وقف «حسين» صامتًا وهو لا يكاد يُصدق أنه واقف أمام الرجل الذي بات يحلُم بقتله. كان ذا وجه نحيل تماما مثل «إبراهيم إمام»، وكانت عيناه تشعان بريقًا غامضًا. سأله بجدية:

ــ هاااا. لحساب مَن تعمل؟

صمت كثيرًا، وفكَّر في مُحرِّضه، لكنَّه خشي أن يخلع ثوب البطولة أمام زُملائه، وتذكر قول رجل المخابرات بأنَّه آمن. استجمع شجاعته، وقال بعد أن رسم على وجهه ملامح الثائر:

ــ لصالح فلسطين.

ـ فلسطيييييييين.

كررها رئيس الاركان ساخرًا، قبل أن يصرُخ قائلًا:

ـــ وهـل هُنـاك مـن أعطـى فلسـطين مثـلي؟ لقـد حاربـت، بينمـا كان القـادة يتصارعـون عـلى الحُكـم، ومـن أجلهـا خلعـت حُسـني الزعيـم، ثُـم مـن أجلهـا خلعـت الحنـاوي.

وخبّط بيمينه على المكتب، وواصل:

ـــ أي مجنـون أنـت لتتصـور أنـني مـع أعـداء فلسـطين. لقـد غامـرت بحيـاتي مـن أجلهـا وسـأجعل سـوريا كُلهـا تنتفـض ضـد الصهاينـة لنطردهـم مـرة أخـرى.

نظر رئيس الأركان بغيظ شديد إلى «حسين»، وقال له:

ـــ اسـمع أيهـا المعتـوه. لقـد أصبـت حـارسي المُخلـص برصاصـة في الـرأس، وهـو الآن في المستشـفى العسـكري يعالـج. لـو مـات، سـأقتلك بيـدي هـذه، ولـو لـم يمُـت سـأجعله يقتُلـك بمسدسـه. هـل تفهـم؟ في الحالتـين أنـت ميـت تتنفـس أنفاسـك الأخـيرة.

وأشار للحارس ليأخذه من أمامه.

***

مـن القاهـرة إلى دمشـق قطـع رحلتـه بالطائـرة في سـاعتين ليـؤدّي واجبـه في الترافـع عـن «حسـين توفيـق» بعـد اتفاقـه مـع والـده عـلى ذلـك نظـير أتعـاب ألفـي جنيـه. كان «أحمـد الناحـي» المُحامـي أحـد الذيـن شـاركوا في انـتزاع رقـاب قتلـة أمـين عُثمـان مـن قبضـة عشـماوي بعـد أن قـدّم إلى المحكمـة شـهادات طبيـة تفيـد عـدم مسـئولية «حسـين» عـن أفعالـه نتيجـة اضطـراب نفـسي يُعـاني منـه.

قال له «توفيق بك»:

ــــ إنَّ مُهمتـك أن تُفلـت حسـين مـن الإعـدام مثلمـا فعلـت في السـابق. أنـت أفضـل مَـن يقـوم بذلـك.

ذهـب إلى المحكمـة العُليـا بدمشـق طالبًـا الإذن بالترافـع، قبـل أن يبعـث أحـد أصدقائـه مـن المحامـين السـوريين لجلـب أوراق القضيـة. كانـت القضيـة قـد حوّلـت للنيابـة العسـكرية الـتي أثبتـت اعـتراف «حسـين توفيـق» بإطلاقـه الرصـاص عـلى رئيـس الأركان أثنـاء هبوطـه مـن سـيارته ممـا تسـبب في إصابـة حارسـه الشـخصي بإصابـات خطـيرة. وقـرأ المُحامـي اعـتراف عبدالقادرعامـر بمشـاركته في محاولـة الاغتيـال اعتقـادًا منهمـا أنَّ رئيـس الأركان يسـعى لعمـل صلـح مـع الدولـة الصهيونيـة، فضـلا عـن اعـتراف «مصطفـى كمـال» باعتزامـه المشـاركة في العمليـة، إلا أنَّـه قُبـض عليـه قبـل سـاعة مـن تحركـه نحـو موقـع التنفيـذ. أمـا «محمـد المرصفـاوي» فأنكـر تمامًـا أي صلـة لـه بالعمليـة، بـل إنَّـه أنكـر أن يتـورط صديقـاه «حسـين توفيـق» و«عبدالقادرعامـر» في إطـلاق رصـاص عـلى أديـب الشيشـكلي لأنهمـا يعرفـان وطنيتـه، ثُـم أنكـر «المرصفـاوي» معرفتـه بـ«نـوار» الفلسـطيني الـذي كان واضحًـا أنـه مَـن وشى بهـم جميعًـا.

قـدَّم المُحامـي طلبًـا للاجتمـاع برئيـس الأركان قبـل الترافـع في القضيـة، خاصـة أنَّـه يعلـم أنَّ القضـاء العسـكري بـات وحاسـم ويرفـض ألاعيـب المحامـين وحيلهـم. قـال إنَّ إقنـاع الرجـل بعـدم سـلامة المُتهـم الأول كفيـل باسـتدرار عطفـه، وهـو مـا قـد ينجـح معـه في الحصـول عـلى عفـو عنـه أو سـجن مؤبـد. فوجـئ «أحمـد الناحـي» بسرعـة تحديـد الموعـد ليجلـس أمـام رجـل مهيـب، تبـدو عليـه الحكمـة رغـم بعـض العصبيـة الباديـة عـلى ملامحـه. في البدايـة حـاول المُحامـي كسـب ود الرجـل فقـال لـه:

ــــ تهانينـا عـلى الثـورة ضـد الحنـاوي. آمـل أن تجـد البـلاد في ظـل قيادتكـم الاسـتقرار والرفعـة.

لكنَّ «أديب الشيشكلي» ردَّ سريعًا:

ـ لا ثـورة ولا شيء. إنَّـه انقـلاب عسـكري، ثُـم أنـا لسـت القائـد كمـا تـرى. هنـاك رئيـس جمهوريـة.

ـ تمام. لكنَّك كُل شيء.

ـ ادخـل في الموضـوع أيهـا المُحامـي الكبـير. أنـا لا أسـتطيع مجـاراة المصريـين في الحـوار. أنتـم ماهـرون في كُل شيء، وأنـا رجـل عسـكري لا أعـرف اللـف والـدوران.

ابتسم المُحامي، وقال للقائد:

ـ إنَّ مـصر دولـة كبـيرة في المنطقـة، ومـن الـضروري لأي سُـلطة في دمشـق أن تعمـل عـلى تحسـين علاقاتهـا مـع...

قاطعه الرجل سائلًا:

ـ هل أنت مبعوث جلالة الملك فاروق؟

هزَّ المُحامي رأسه نافيًا، فكرَّر مُحدِّثه:

ـ هـل أنـت مـوكل مـن السـيد مُصطفـى باشـا النحـاس للتحـدث باسـم الحكومـة المصريـة؟

هزَّ المُحامي رأسه مرة أخرى، فصاح «الشيشكلي»:

ـ إذن ادخل في الموضوع سريعًا.

ـ حسين توفيق.

ـ ما له؟

ـ إنَّه ولد مريض نفسيًا وهذه شهادات طبية تؤكد....

قاطعتـه إشـارة مـن كـف الرجـل، ورنَّ جرسًـا أمامـه ليطلـب مـن الحـارس أن يجلـس أمـام أحمـد الناحـي ثُـم قـال:

ـ هل ترى أذنه؟

وأشار إلى بقايا أذن مبتورة، فوق جرح مازال واضحًا، قبل أن يضيف:

ــ هــذا رجــل مــن أخلــص رجــالي. أطــار الولــد المريــض الــذي تدافــع عنــه أذنــه فلــم يعُــد يســمع ســوى بواحــدة. ولــولا ســتر اللــه لقــضى نحبه.

هــزَّ المُحامــي رأســه اقتناعًــا، قبــل أن يعــود الهــدوء إلى وجــه رئيــس الأركان ليســأله عمــا يــشرب، ثُــم قــال لــه في أدب جــم:

ــ أنــا أقــدر موقفــك أيهــا المحامــي القديــر. أنــت تــؤدي واجبــك. لكــن، صدِّقــني، لقــد قــررت المحكمــة بالأمــس أن يكــون حكمهــا بإعــدام حســين وزميلــه الآخــر. أمــا الولــدان الآخــران فســيتم ســجنهما عــشر ســنوات.

باتت خيبة الأمل مرسومة على وجه المحامي، الذي قال:

ــ هل لي أن أسألك سؤالا؟

ــ تفضل.

ــ لِمَ قبلت لقائي وأنت تعرف أنني سأتحدث إليك في هذا الموضوع؟

ابتسم «أديب الشيشكلي» قليلا قبل أن يقول:

ــ لقــد انتظــرت أن تُقنعــني بــأن حســين توفيــق لا يســتحق المــوت. لكــن هــذا لــم يحــدُث.

شكره المُحامــي بدبلوماســية قائــلًا لنفســه إنَّ الرجــل يريــد أن يؤكــد لــه أنَّ الأبــواب لــم توصــد بعد.غــادر مُفكــرًا، ليلتقــي «سُــعاد» في منزلهــا، ناقــلًا لهــا رســالة مــن «حســين» بــأنْ تأخــذ وليدهــا وتســافر إلى القاهــرة. كانــت ذابلــة العينــين، وبــدا وجههــا شــاحبًا مــن طــول الســهر والبــكاء حُزنــا عــلى والدهــا الــذي رحــل بعــد ثلاثــة أيــام مــن ســقوط زوجهــا في أيــدي الشرطــة العســكرية، فضــلًا عــن رفــض الســلطات العســكرية رؤيتهــا لـ«حســين»، والــذي تظــن أنّــه صــار قريبًــا مــن نهايتــه. قالــت للمُحامــي:

ــ مــا الــذي يدفعــني لــترك الشــام؟ والــدي رحــل، لتبقــى أمــي وشــقيقتي وحدهمــا. وزوجــي ينتظــر الإعــدام في أي لحظــة. ســأبقى هُنــا.

انهمــرت دموعهــا لترســم خطــين أســمرين عــلى خديهــا الجميلــين. نظــر لهــا المحامــي بعطــف قبــل أن يقــول:

ـ أنتِ حُرة بالطبع. لكني أرى أنَّه ليس لك دخل الآن، ومعاش والدك بسيط جداء وهو بالكاد يكفي احتياجات أمك. وشقيقتك هي الأخرى بلا عائل. وأفضل اختيار في تصوري هو القدوم معي إلى القاهرة. هُناك ستجدين كُل ما تحتاجينه ويحتاجه ابنك. هُناك ستجدين التربية المناسبة لخالد، والعائلة الأصيلة، والبيت الكبير. فكّري جيدا يا بنتي. وجودك هُنا بلا فائدة. وسنحاول الضغط سياسيًا للإفراج عن حسين.

لم ترُد، وشكرته دامعة، ثم ودّعته، وهي تُفكِّر في الانتقال إلى القاهرة.

***

وصلته الرسالة واضحة: لا تقلق. صدر الحُكم بإعدامه، فاستعاد مشهد خروج الروح من أناس وقّع شهادات النهاية لهم. كانوا حينئذ يرتجفون، وتجحظ عيونهم، ويُرددون حوارًا هامسًا مع لا أحد. أما هو فلم يشعر بأي خوف، لم تهتز لديه شعرة واحدة، ولم يخفق قلبه هلعًا انتظارًا لإنهاء حياته. كان يشعر بالسكون التام، واللامبالاة المُعتادة، وهدوء الأعصاب الغريب.

ظلَّ «حسين» في محبسه يرتدي بذلة الإعدام، وإلى جواره عبدالقادر ببذلة شبيهة، وقد ربط ذراعه نحو عُنقه، تأثرًا بإصابته بالرصاص يوم الحادث. علما ببراءة «مصطفى كمال» و«محمد المرصفاوي» وترحيلهما إلى القاهرة قبل ساعات من علمهما بالحُكم الذي تُلي غيابيًا.

مرّت الأيام دون عد، واختفى المُحامي تماما بعد أن انتهى إلى لا جدوى من نقض الحُكم باعتباره عسكريًا باتًا، حتى فوجئ «حسين» ذات مساء باستدعائه إلى غرفة مُدير السجن العسكري ليتركه المدير

مع رجل المُخابرات المُخضرم «عبدالرحمن ناصر». استعاد السجين حيويته، وفتح الأمل نوافذه مرة أخرى على قلبه، عندما قال له الرجل إنَّه يُقدر ثباته وصلابته، وأنَّه لن يُعدم وسيبقى طي النسيان حتى يأذن الله له بالخروج. أخبره الرجل أيضًا أنَّه بعث بمبلغ من المال لزوجته، قبل أن تُسافر إلى القاهرة بصُحبة ابنها، وأنَّه فعل الأمر نفسه مع زوجة «عبدالقادر». حكى الرجل سريعًا أنَّ أكبر خطأ ارتكبه «حسين» هو ثقته الزائدة في «نوار» الفلسطيني الذي كان يعمل لحساب جماعة أخرى على صلة ود بـ«أديب الشيشكلي» نفسه. أخبره «عبدالرحمن» أنَّ القاهرة تشهد زخمًا شديدًا بعد أعمال شغب عديدة تم خلالها حرق المنشآت العامة والمباني الأجنبية، وتم إقالة الحكومة بعد تحميلها المسئولية. سأل حسين مُحدثه عن الوقت المتوقع لبقائه في السجن، فردَّ «عبدالرحمن» بأنَّه رهين بقاء «الشيشكلي» على كرسي الُحكم، لكنَّه أكد مرة أخرى أنَّه لن يُعدم لأنَّ رئيس الأركان الذي أطاح برئيس الجمهورية لينفرد بالحكم سيبقيه ليتفاوض به مع القاهرة بغية تحسين العلاقات. اقتنع «حسين» بحديث الرجل، وقام بطمأنة زميله في الزنزانة، والذي كان يعاني من هُزال شديد واكتئاب حاد.

تلقى «حسين» رسالة من زوجته أبلغته فيها بصدور مرسوم ملكي بالعفو عن جميع المحبوسين في قضية مقتل «أمين عُثمان» واستثنائه بسبب هروبه. أخبرته أنَّها التقت زُملاءه «محمد إبراهيم كامل»، و«مدحت»، و«سيد»، و«عُمر»، و«محجوب»، وأنَّهم رأوا «خالد» وقالوا إنَّه نسخة من «حسين»، وتوقع «سعيد» ساخرًا أنَّ يصبح «خالد» ضابطًا للشرطة. حكت له أنَّ خالته أصرَّت على تعليق خرزة زرقاء في سلسلة من الفضة في رقبة الولد الصغير، لتقيه شر الحسد. وألمحت الزوجة بأنَّ حماتها مازالت تنظر إليها نظرات لوم مُرددة دائمًا أمامها أن الزوجات حظوظ، وأنَّ هُناك زوجات تجلب الخير وأخريات تأتي معها المصائب. قالت إنَّ حماها يبدو أكثر ودًا

رغم غيابه المتكرر عن البيت، وإنَّه ينظر دائمًا بمحبة وعطف إلى «خالد»، قبل أن تغلبه دموعه سريعًا.

«محمد إبراهيم كامل» بعث برسالة أخرى إلى «حسين» أكد له فيها أنَّ جميع الأصدقاء فخورون به، وبنضاله ضد الصهيونية، وأنَّه قرأ تحقيقًا صحفيًا في مجلة روزاليوسف سألوا فيه بعض الشباب عن قدوتهم، فنطق أحدهم باسم «حسين توفيق»، ولما سُئل عن سبب اختياره، أجاب بأنَّه أطلق الرصاص على خادم الاحتلال، وطارد جنود الإنجليز واعتدى عليهم، ثُم سافر للحرب ضد إسرائيل، وتتبع الخونة في كُل مكان. «لقد صرت أبًا روحيًا للمناضلين الجُدد» قرأها «حسين» في رسالة صديقه وابن خالته، والذي زفَّ نبأ تخرجه وعمله بالمحاماة. كان من اللافت أنَّ أحدًا لم يُخبر «حسين» شيئًا عن «محمود مراد»، لكنَّه توقَّع ما سبق أن قدم له «إبراهيم كامل» في رسالة سابقة بأنَّه طلَّق السياسة تمامًا، وتفرَّغ للهندسة ولا شيء آخر.

مرَّت الأيام رتيبة، باهتة، ومتشابهة على السجينين المحكوم عليهما بالإعدام مع وقف التنفيذ. خفَّت شحومهما، وتآلفا سريعًا مع العساكر والحُراس، قبل أن يتعرفا على بعض السُجناء الآخرين خلال ساعات التريُض. كان من المُثير أنَّ أحدًا من السُجناء لا يعرف جناياتهم أو حتى العقوبات التي ينبغي عليهم تنفيذها، خاصة أنَّ بعضهم أدين بأحكام صادرة من «حُسني الزعيم»، ثُم تم إلغاؤها من خليفته، ثُم أعيدت مرة أخرى بعد انقلاب «أديب الشيشكلي» الأول. تعرَّف «حسين» و«عبدالقادر» على عدد من شباب جماعة الإخوان الفارين من مصر، والذين أكدوا لهما أنَّ السجن في سوريا أهون كثيرًا من سجون «إبراهيم عبدالهادي» الذي قمع الإخوان بعُنف وسادية عقب اغتيال «النقراشي باشا».

ذات صباح صيفي قصَّ عسكري سوري على السجناء المصريين

قصـة تحـرك الجيـش في القاهـرة للاستيلاء عـلى السـلطة وإعـلان خلـع الملـك. كان مـن المُفاجـئ لحسـين أن يعـرف أنَّ قائـد الانقـلاب هـو «أنـور السـادات»، والـذي أذاع بيـان الحركـة. سرحـت ذاكرتـه في صاحـب الوجـه الأسـمر وتذكـر كيـف كان مُرشـده الأول، واسـتبشر أن يـرى النـور قريبًا، مـا دام «الحـاج محمـد» عـلى رأس الحركـة الجديـدة. قـال لزميلـه في الزنزانـة وهـو يُدخِّـن بنهـم:

ـ استعد. سنخرُج قريبًا.

وظل يُكررها خمس سنوات.

***

لـم تجـد «سُـعاد» في بيـت «توفيـق بـك» في مـصر الجديـدة السـعادة المُنتظـرة خاصَّـة في ظـل تحكـم حماتهـا في كُل شيء. كانـت «سُـعاد» لا تسـتطيع الخـروج مـن البيـت إلا بـإذن خـاص، وبصُحبـة السيدة الكبـيرة أو شـقيق زوجهـا «سـعيد»، وكانـت تجـد شُـحًا بالغًـا مـن سيـدة البيـت في مصروفهـا الشـخصي الـذي اقتـصر عـلى بضعـة جنيهـات كُل شـهر.

لـم تـر الفتـاة الحالمـة قاهـرة الصخـب، حاضنـة الفـن والجمـال الـتي طالمـا قـرأت عنهـا في الصُحـف والمجـلات. لـم تـسر في شـوارع وسـط البلـد، ولـم تسـهر عـلى أي مـن مقاهيهـا، ولـم تلتـق بمبـدع أو فنـان شـهير في أي احتفـال. كان كُل شيء حولهـا يتغـير بسرعـة جعلتهـا لا تـكاد تُصـدق سُرعـة التحـولات المُترتبـة عـلى ثـورة يوليو.غابـت الطرابيـش رويـدًا، مـع إلغـاء الألقـاب، وصـدرت قـرارات كثـيرة بالعفـو عـن سـجناء سـابقين في قضايـا سياسـية.

كانـت العائلـة الثريـة تفتـح بيتهـا لزيـارات بعـض العائـلات الأخـرى أو الأقـارب، وكانـت النظـرة الـتي تتلقاهـا «سُـعاد» دائمًـا مـن الزائـرات

تحمـل مزيجًـا مـن الازدراء والاسـتغراب، ازدراء مـن فتـاة تزوّجـت شـابًا وسيمًا ثريًـا، فُحكـم عليـه بالإعـدام، واسـتغراب مـن ملابسـها البسيطة، ولهجتهـا الشـامية. كذلـك حمّلـت سـيدات العائلـة الفتـاة السـورية مسئولية إصابـة وليدهـا «خالـد» بمـرض عصـبي خطـير نتيجـة ارتفـاع درجـة حرارتـه عندمـا كان صغـيرًا. كان مـن الواضـح أنَّ الولـد قريـب الشـبه بـ«حسـين» يُعـاني مـن صعوبـة شـديدة في الـكلام، وكثـيرًا مـا كانـت تنتابـه حالـة ارتعـاش مُتكـرر، وبـكاء دون سـبب رغـم بلوغـه الثالثـة مـن عُمـره. فكَّـرت «سُـعاد» أكـثر مـن مـرة في عـرض الولـد عـلى كبـار الأطبـاء، لكـن تحكـم حماتهـا في جميـع أمـور الولـد أصابهـا باليـأس، ودفعهـا للتفكـير أكـثر مـن مـرة في العـودة إلى دمشـق، إلا أنَّ اعتـلال صحـة حميهـا حـال دون ذلـك، فضـلا عـن عـدم السـماح لهـا بزيـارة «حسـين» في سـجن المُـزة الـذي نُقـل إليـه بعـد وقـف إعدامـه بقـرار مـن رئيـس الجمهوريـة الـذي سـعى لمـد علاقـات ود مـع القاهـرة.

في يـوم مـا زارهـا «محمـد إبراهيـم كامـل»، وقـال إنَّـه زار السـيد أنـور السـادات عضـو مجلـس قيـادة الثـورة ووعـد بالتدخـل للإفـراج عـن «حسـين»، خاصـة أنَّ الثـورة في حاجـة لجهـود الشـباب الوطـني لخدمـة بلـده. وأخبرهـا ابـن خالـة زوجهـا بـأنَّ «جمـال عبدالنـاصر» عـرض عليـه العمـل في الحكومـة فاختـار العمـل الدبلومـاسي، حيـث تـم تعيينـه في وزارة الخارجيـة، وسيسـافر قريبًـا للعمـل في إحـدى السـفارات. ورجاهـا أن تُكـرر الاتصـال بـ«أنـور السـادات» لتذكـيره بموضـوع «حسـين»، لكـنَّ حماتهـا منعتهـا واختطفـت رقـم الهاتـف مـن أصابـع ابـن أختهـا مؤكـدة أنَّ النسـاء ليـس لهـن الحـق في الاتصـال بأحـد في غيـاب أزواجهـن، وأنَّ «سـعيد» سـيقوم بالمهمـة عـلى خـير وجـه. ورغـم مـرور أسـابيع طويلـة عـلى اللقـاء، فـإنَّ «سـعيد» لـم يتمكـن مـن لقـاء «السـادات» بسـبب كـثرة مشـاغله.

فيمـا بعـد قـررت «سُـعاد» الاعتمـاد عـلى نفسـها وزارت الصحفـي

«إحسان»، الذي أخبرها بأنّ «السادات» أكد صعوبة التدخل لدى دمشق بسبب ثورة الجبل الجارية ضد حُكم أديب الشيشكلي وأن أفضل شيء هو الانتظار، وهو ما دفع «سُعاد» لاتخاذ قرار العودة إلى سوريا. وأدى إصرار حماتها على بقاء «خالد» في القاهرة إلى سفرها وحيدة لتجد شقيقتها في انتظارها بالمطار تُخبرها بأنّها رأت منامًا يؤكد أنّ الإفراج عن زوجيهما بات قريبًا. كانت «فاطمة » تؤمن إيمانًا شديدًا بأن الأحلام تحمل كثيرًا من البشارات والعلامات، وكانت مولعة بتفسيرها، وهكذا قصّت على شقيقتها أنها رأت رجُلا مهيبًا يفتح قفصًا لتطير منه عدة عصافير وهي تزقزق فرحة.

كانت دمشق قد اتشحت بالسواد، بعد سقوط عشرات القتلى من الدروز في ثورة الجبل، وبدا واضحًا على وجوه التجار والباعة هموم الكساد والفاقة، في ظل نظام القمع القائم، الذي سبق نظام ثورة يوليو في حلّ جميع الأحزاب والبرلمان واعتقال الساسة وحظر المُظاهرات. ومع تعاظم الثورة ضد الحاكم الحديدي اضطر «أديب الشيشكلي» إلى مغادرة سوريا وطلب اللجوء إلى بيروت ليُعلن في خطاب رسمي تخليه عن السُلطة نهائيا، مما أعاد الفرح مرة أخرى إلى وجوه الناس في أرجاء الشام.

ولم تمض أيام على الواقعة حتى سُمح لـ«سعاد» و«فاطمة» بزيارة زوجيهما، مما جعل «فاطمة» تفخر أمام شقيقتها بصدق أحلامها، وزاد من فرحتهما خطاب أرسله «سعيد توفيق» قال فيه إنّه نجح أخيرًا في لقاء «السادات»، وأنّه وعد بالتدخل لدى السُلطات السورية للعفو عن «حسين» وزميله «عبدالقادر».

الفصل الثالث

القاهرة مرة أخرى

جلس عضو مجلس قيادة الثورة بمكتبه الجديد بدار التحرير مُفكرًا في كيفية تجنب الدخول كطرف في الصراع الدائر على السُلطة والنفوذ داخل النظام الجديد. كان «أنور السادات» يعي جيدًا أنَّ موضع الثِقل داخل مجلس قيادة الثورة يميل ناحية الضابط الأسمر الذكي القادم من أسيوط الذي اشتهر اسمه بعد حرب فلسطين كأحد الضباط الوطنيين. فكَّر أنَّ «جمال عبدالناصر» بسمته البسيط وعقليته المُتشككة قادر على حسم الأمر لصالحه. تيقن «السادات» بعد الأزمة العاصفة التي كادت أن تودي بالبلاد في مارس الماضي أنَّ الأسد العجوز الموضوع كرئيس للجمهورية ليس سوى واجهة يتحكم فيها «جمال عبدالناصر» المُحرِّك الحقيقي لكل شيء حوله. إنَّ «محمد نجيب» في تصوره رجل نبيل لديه أخلاق، لكنه يُفكِّر بذات الطريقة التي يُفكر بها السياسيون القدامى، ويتصور أن الجماهير قادرة على حمايته وإنصافه في صراعه ضد باقي أعضاء مجلس القيادة. قال إنَّ إهمال تنفيذ قرارات الرجُل أكد للجميع أنَّ «عبدالناصر» هو الأقوى والأجدر على القيادة، فهو الذي استطاع إنهاء تمرد سلاح الفرسان، وهو الذي نجح في التلاعب بجماعة الإخوان، وبفلول الأحزاب البائدة ليُسيطر على الأوضاع ويُديرها لصالحه.

بعد استقالة «نجيب»، ثُم عودته تحت ضغط غريب من «عبدالناصر» و«عبدالحكيم عامر» صار من الواضح لكل قريب من الأحداث أنَّ الأيام القادمة ستشهد تحولات خطيرة، تؤكد أنَّ ما جرى في دمشق يُمكن أن يتكرر في القاهرة. لذا فقد قرر الضابط الذي تمرّغ في سجون مصر قبل سنوات، وشارك في أكثر من مؤامرة ومغامرة أن يُبدي زُهدًا وترفعًا عن أي منصب أو مكانة تجعله طرفًا في الصراع.

قال لنفسه محاولًا إقناعها بصدق نواياه أنَّه أكبر من التورط

في صراعـات رفـاق السـلاح بعـد حيـاة حافلـة بالمغامـرات والأخطـار دفـع فيهـا الثمـن سـجنًا وتـشردًا خـارج عملـه، ومُطـاردًا مـن البوليـس السياسي. كان يعتقـد أنَّ القـدر يُخفـي لـه جوائـز مُسـتحقة، خاصـة أنَّ الصدفـة دفعـت بـه ليُلقـي بيـان الحركـة المُباركـة رغـم قيامـه بالذهـاب إلى السـينما ليلـة التحـرُّك بصُحبـة زوجتـه والتشـاجر مـع أحد المُشـاهدين وتحريـر محـضر لإثبـات براءتـه حـال فشـل الحركـة. كمـا أوكلـت لـه بعـد أيـام مـن نجـاح الحركـة مُهمـة القبـض عـلى «إبراهيـم إمـام» غريمـه اللـدود ليبـدو وقتهـا أحـد قـادة النظـام الجديـد الـذي سيمحو تمامًـا كُل مـا سـبقه. تذكـر كيـف قـرأ في عيـني غريمـه رباطـة الجـأش والاستسـلام البـارد لمصير مجهـول، ثُـم مـرَّت برأسـه سـنوات المُلاحقـة وأيـام التتبـع المُثـير مـن رجـل يلـتزم بالقانـون ويُبـدي تعاطفًـا صامتًـا مـع شـباب العمـل السـري. قـال لنفسـه إنـه كان يحـترم إبراهيـم إمـام رغـم أنَّـه فكَّـر مـرارًا في قتلـه، لأنَّـه كان خصمًـا شريفًـا، وضابطًـا نبيـلًا.

واصـل رأسـه تقليـب مشـاهد حياتـه ليتذكـر كيـف نجـح في قتـل «أمـين عُثمـان» دون أن يضغـط عـلى الزنـاد. لقـد حقـق مُـراده في الانتقـام مـن «مُصطفـى النحـاس» الـذي طـرده مـن الجيـش، ونفَّـذ رغبـة الملـك في قطـع رأس عـدوه اللـدود دون أن تتلـوث يـداه بالدمـاء. كانـت كلماتـه وشـخصيته وقدرتـه عـلى الإقنـاع كفيلـة برسـم نهايـة وسـيط الوفـد والإنجليز مـن خـلال صبيـة أشـقياء يتصـورون أنَّهـم يـد العدالـة. تذكـر «السـادات» إلحـاح «محمـد إبراهيـم كامـل» و«عُمـر أبـو يعـلى» للتدخل لـدى الحكومـة السـورية للإفـراج عـن «حسـين توفيـق»، وخلُـص إلى أنَّ رميـه الكُـرة في ملعـب زميلـه «عبدالحكيـم عامـر» سـيضرب عصفوريـن بحجـرٍ واحـد، حيـث سـيتجنب شـكوك «جمـال» في تكويـن شـلَّة مـن الأشـقياء والمغامريـن، وسيُرضي كبريـاء وشـهامة «عبدالحكيـم عامـر» الباحـث عـن أي ظـلال ضـوء في ظـلّ تضخـم اسـم صديقـه الحميـم.

فكَّـر «السـادات» وهـو يُدخِّـن بتلـذُّذ في ضرورة تجنُّـب الدخـول في أي

مُغامرات جديدة قد تؤثر على مُستقبله، وهو ما دفعه مرارًا إلى أن يقف إلى جوار «جمال عبدالناصر» في جميع طروحاته، مُعضدًا ومؤيدًا، حتى ذلك اليوم الذي اقترح فيه «جمال» حلّ مجلس قيادة الثورة وإعادة الأحزاب والدعوة للانتخابات، رفض بحدّة لأنّه يعرف أنّ اقتراح زميله مُجرد اختبار لكشف مَن يقفون معه ومَن يقفون ضده. قال لنفسه إنّ وظيفة مُدير لجريدة الثورة، تُلائم ميوله، وتُناسب قناعاته في الوقوف خلف الستار لمُشاهدة عصف الرفاق بعضهم ببعض، وتذكر أنّ قدوته في السياسة ومحبوبه الأثير «مصطفى كمال أتاتورك» لم يتحرك نحو موقع القيادة إلا بعد أن صفا له الأمر بخروج المُنافسين واحدًا تلو الآخر.

سيسقط «محمد نجيب» قريبًا، وسيخلو المجال أمام «جمال» ليستحوذ على السُلطة مُنفردًا، وسيشتبك مع البعض وسيقصيهم لاستعادة لقب الفرعون مرة أخرى. هكذا تصوّر، وهو يرنو بعينين ماكرتين إلى ماكيت الجريدة التي اختار لها اسم «الجمهورية» والتي صار مسئولًا عنها.

***

داست عجلات الأيام مشاعره، وحفرت كآبة الجُدران الأربعة شُقوق روحه، وهو يُتابع انقلابات الصحاب وتحولات الناس في بلاده. أيقن «حسين» أنّه دفع ثمن جرأته وإقدامه عُمرًا من الوجع، وسنوات من الوحشة، والاغتراب. علم بوفاة والده وهو قابع ينتظر عفوًا لا يجيء ليزداد حنقًا على حنق، ويستعر غلًا تجاه بطولات توزع، وزعامات تُمنح زورًا وبهتانًا. قال لزوجته في إحدى الزيارات إنّ «جمال عبدالناصر» الذي صار ملء السمع والبصر، كان مُنهمكًا في القراءة عندما كان هو يقتل الإنجليز في شوارع القاهرة. أخبرها بأنّ ذلك

البطل الذي صار عنوانًا للبلاد بعد فشل العدوان الثلاثي على مصر ليس سوى بائع كلمات، وتاجر مواقف. أكد لها أنَّ المُنقذ الذي يرنو له الناس باعتباره مُخلصًا ومُنقذًا لم يُطلق رصاصة ولم يقترب من الموت. آلمه ما نُقل له من وضع أراضي والدته تحت الحراسة، وشعر بالجحود لنسيانه ونسيان جهاده، وعدم ذكر اسمه في الصُحف كواحد من أبطال الوطن. اجتاحه الحُزن على ابنه المريض الذي لم يره وهو يخطو أولى خطواته.

في السجن قرأ عن خيانات التاريخ لأبطال عظام، ورجال شُجعان، تحولوا إلى مُجرمين شواذ تحت وطأة صناعة التاريخ للقادة الجُدد. راجع كيف كانت السُلطة في كُل عصر تمحو أي بطولات لم تُشارك فيها. ذكّر «حسين» صديقه «عبدالقادر» بما جرى للقائد العسكري «روميل» على يد «هتلر» الذي اعتبره خائنًا ودفعه للانتحار خوفًا من افتتان الناس به. قال له إنَّ خليفة المسلمين «سليمان بن عبدالملك» عذّب «موسى بن نُصير» القائد العظيم وباعث الفتح الاسلامي للأندلس ورماه في السجن إلى أن مات.

فكّر «حسين» مرارًا في الهرب، لكنَّه كان يعلم أنَّ خصومه في الخارج يترقبون اللحظة المُناسبة للفتك به. كان يوقن أنَّ جماعات الفداء العربي ورجال هاني الهندي وجهاد ضاحي الذين صاروا نجومًا ورموزًا في بلاد الشام لن يغفروا له محاولته قتل «أديب الشيشكلي». في الوقت نفسه، كان يعلم أنَّ رجل المُخابرات السوري الذي أوغر صدره يومًا على رئيس الأركان السابق لن يحميه، وأنَّ أقصى ما كافأه به هو إيقاف تنفيذ الإعدام به حتى ينساه الجميع.

راجع «حسين» بمرارة خيانات عديدة طعنت ظهره، مُتذكرًا ما فعله «نوار» الفلسطيني به وبصُحبته رغم كُل ما قدّم لفلسطين من حُب وقتل وتفجيرات هُنا وهُناك. استعاد يوم أن رفض زُملاؤه ضم «نوار»إلى الجماعة تحت دعوى عدم الثقة، وتذكر كيف قال

لهم أنه قادر على قراءة عيون البشر، وأنّه على يقين أنّه مُخلص وأمين، وأنّهم في حاجة لدوره باعتباره مصنع ديناميت مُتنقلًا. لقد كان «حسين» مفتونًا بالديناميت ويعتبره وسيلة قهر رائعة وأداة قتل سريعة نظرًا لما يُلقيه من حِمم مُلتهبة على أجساد البشر. أخبره «نوار» وقتها أن صناعة الديناميت مهنته، وأنّه مُتخصص في تجهيز أدوات النسف عن بُعد من خلال مادة النيتروجلسرين التي درس وتعلم تركيبها، لذا فقد تمنّى «حسين» أن يتعلم كيفية صناعة النيتروجلسرين، لكنه كان على موعد مع درس آخر هو درس الخيانة.

قال يومًا لنفسه إنّ ذلك الصمت يقتله، يستنفد ما بقي لديه من إقدام، يمتص دم التحدي في خلاياه. كُل يوم يأكل من عُمره لحظات كان يعتقد أنّ الدنيا خسرتها ببقائه ممنوعًا من الحركة، محدود الخطوات. أحداث لن تقع، وأحوال لن تتغير، وكلاب ستظل تنبح ما دام حبيسًا. هكذا فكّر، وهو يتذكر لقاءه بـ«الحاج محمد» في غُرفة مُنعزلة قُرب مسجد قيسون.

***

لم يكترث «حسين» كثيرًا عندما استدعاه مُدير سجن المُزة ليُبشّره بقرار الإفراج عنه. كان يشعر أنّ الإفراج تأخر طويلًا، وأنّه دفع أكثر مما ينبغي نتيجة وطنيته وحماسه. قدّم له مُدير السجن ضابطًا مصريًا قال إنّه مبعوث من سيادة المشير «عبدالحكيم عامر» شخصيًا، الذي احتضنه كصديق، وقبّله كأخ قبل أن يبارك له على خروجه من السجن وينقل له تحيات القيادة العسكرية في مصر. عاد الدفء إلى شرايين «حسين» عندما حادثه الضابط الشاب باعتباره بطلًا قبل أن يقول له إنّه يعرف عنه الكثير من مقالات «إحسان عبدالقدوس». طبع الرضا بصماته على وجه «حسين»، وهو يستمع

لصوت الضابط وهو يقرأ له مقالة كتبها «إحسان» عنه تقول كلماتها:

«إنَّ العلاقة بيني وبين «حسين توفيق» هي أغرب علاقة قامت بين كاتب وقارئ، فمنذ أن أطلق «حسين توفيق» النار على «أمين عثمان»، وأنا أحسّ كلما أمسكت قلمي لأكتب مقالًا أنِّي أكتب له، وأنَّ صورته تلاحق كلماتي وتسألني معانيها وما أقصده من ورائها. كان «حسين» يبادلني نفس الشعور، ويعتبر مقالاتي خطابات شخصية له، وكان يجد أنَّ من حقه أن ينتقدني فيما أكتب ويناقشني فيه ويغضب مني ويغضب لي، ولكنَّ «حسين توفيق» لم يكن يمثل أمامي شخصه فقط، بل كان يمثل جيلًا كاملًا أنتمي إليه، ويعاني مثل ما أعانيه من حيرة وكبت، جيلا يحقد على التاريخ لأنه لم يعش فيه، ويحقد على الحاضر لأنَّه لا يؤمن به، ويحقد على المستقبل لأنَّه لا يستطيع أن يطمئن إليه، جيلًا ينظر إلى زعماء بلده فلا يجد خيطًا واحدًا يصل بينه وبينهم، أو بينه وبين واحد منهم، ويحاول أن يسمع في أقوالهم أو يرى في أعمالهم صدى لآرائه وترجمة لعاطفته فلا يسمع ولا يرى شيئًا يقربه».

تذكر وجه «إحسان» الهادئ الخجول وهو يُطمئنه بأنه آمن ما دام معه، وقال لنفسه إنَّه رفض المُكافأة المرصودة للإبلاغ عنه، ثُم تذكر الضابط «محمود موسى» الذي رافقه من مخبأ إلى مخبأ، قبل أن يفتح له باب القفص ليطير بعيدًا عن مُطارديه. حاول إيجاد ملامح شبه بينه وبين ذلك الضابط الواقف أمامه، لكن البون كان شاسعًا، فـ«محمود موسى» كان باردا كقاتل مُحترف، صلبًا كصخر، لديه عينان نفاذتان، بينما الضابط الواقف يبدو طيبًا، مُطيعًا. سأله عن ترتيبات الخروج فأخبره أنَّه سيحل ضيفًا على مدير مكتب الاتصال العسكري في فندق فخم بالعاصمة، قبل أن يصحبه مع زوجته إلى القاهرة. سأله عن «عبدالقادر عامر»، فقال الضابط إنَّه

علـم بحكايتـه مـن مديـر السـجن، وأنّـه سـيعد تقريـرًا عنـه لـكي يشـمله الإفـراج ليلحـق بهـم في أقـرب وقـت.

في الصباح ودّع «حسـين» زميلـه بوجـه بشـوش، مُطمئنًـا بأنـه سـيخرجه خـلال أيـام، ورافـق ضابـط الاتصـال العسـكري، الـذي كان يُناديـه باسـمه مصحوبًـا بلقـب أسـتاذ، قبـل أن يجـد نفسـه خـارج بوابـات السـجن أمـام زوجتـه الوفيـة، الـتي انتابهـا بُـكاء هيسـتيري وهـي تحتضنـه غـير مُصدقـة. اسـتمتعت عينـاه بمُتابعـة الطريـق الخـاوي مـن المـارة، قبـل أن تقـترب السـيارة مـن ضواحـي دمشـق. راجـع بذاكرتـه مشـاهد القبـاب والمـآذن والبنايـات القديمـة والشـوارع الضيّقـة، وتذكـر جلسـات المقاهـي، وفناجـين الشـاي، وأوراق التبـغ. مـرّت برأسـه رائحـة البـارود ودُخـان القنابـل، وهـو يعـبر إلى جـوار مبـنى القُنصليـة الأمريكيـة، واسـتعاد لقـاءه بـ«هـاني الهنـدي» و«جهـاد ضاحـي»، قبـل أن تلـوح لـه صـورة «نـوار» في زي ضابـط بوليـس إنجليـزي. لمـح شـارع الحـدث الأخـير ليقـول لنفسـه: هُنـا أطلقنـا الرصـاص عـلى «أديـب الشيشـكلي» لنمنـع صعـوده إلى كـرسي الحُكـم، لكنّـه صعـد، والآن أتنفـس أنـا الحريـة، بينمـا يتخفـى هـو في منفـاه بالبرازيـل كجـرو هـارب.

شـبكت «سُـعاد» أصابعهـا بأصابعـه، ورغـم دفئهـا فإنّـه لـم يحـس نعومـة جلدهـا، لأنّ عقلـه وقلبـه ومشـاعره كانـوا مُتعلقـين بمشـهد دخولـه إلى القاهـرة كبطـل مُنتـصر. تسـاءل إن كان النـاس سـيقيمون الزينـات لاسـتقباله، وهـل سـينتظره «جمـال عبدالنـاصر» و«عبدالحكيم عامـر» و«السـادات» في مطـار القاهـرة؟ هـل سـيطلقون اسـمه عـلى أحـد الشـوارع أو الميادين الرئيسـية؟ هـل سـتحضنه أمـه وتُخـبره بـأنّ أبـاه مـات وهـو فخـور بـه؟ وهـل سـيجد «سـناء» في انتظـاره تبـكي ندمًـا وتطلـب الغفـران؟ ثُـم هـل سـيعرفه ابنـه الوحيـد؟

التفـت إلى زوجتـه وسـألها إن كان عليهمـا شراء لعـب أطفـال وملابـس لخالـد قبـل السـفر، لكنّهـا لـم تـرُد. سـكتت طويـلًا قبـل أن تسـأله عـن

موعد الإفراج عن «عبدالقادر»، ليهز رأسه مُرددا: قريبًا. أشعل سيجارة ونفثَ منها دُخانًا طويلًا وقال لها:

ـــ كل ما أخشاه يا سُعاد أن يتأثر خالد بتربية أمي. آمل ألا تكون قد زرعت فيه حُب الأتراك.

هزّت رأسها دون كلام، فاستطرد قائلًا:

ـــ لكن. هل تعرفين. إنَّ سعيد لن يترُكه. سعيد ليس أخي، إنَّه ابني، وسيعرف كيف يزرع في خالد الشجاعة والجرأة والقوة.

ـ سعيد يحبك بشدة.

ـــ أشتاق له، ولمدحت وابراهيم كامل، ولبيتنا. أشتاق لمصر وشوارعها وحواريها وناسها. لكن هل تعرفين يا سعاد كلي شوق لخالد. لقد كنت أنتوي تسميته عبدالقادر، وكنت سأعلمه السباحة في سن الرابعة، وسأجعله يركب خلفي على الحُصان و...

لم يكمل بعد أن قاطعته «سُعاد» بحدّة وهي تقول:

ـ كفى يا حسين. كفى.

أنكر صوتها، ومنحها نظرة استفسار قبل أن يصيح سائلًا:

ـ ماذا جرى يا سُعاد؟

قرأ في عينيها نظرة تحسر قبل أن تستجمع شجاعتها وتقول:

ـــ خالد مات. مات يا حسين. مات مُنذ سنوات بعد أن أصابه مرض عصبي غريب.

أسكتته الصدمة، وعاد ظلام الزنزانة يتراءى أمامه، وضغطت أصابعه بحدّة على السيجارة ليطفئها بين راحتيه، مانحًا العالم زفرة احتجاج وغضب.

***

تغيرت البلاد ومَن عليها. صارت الشوارع أكثر ازدحامًا، وبدا الجد والحيوية ناضرًا على وجوه الناس، وتعرَّت الرؤوس من طرابيش كانت يومًا دليل هيبة واحترام. رأى «حسين» مقاهي وسط البلد تتسع لشباب يافع ببذلات أكثر أناقة، ولمعت أحذية الجالسين وهم يُدخنون ويثرثرون في اهتمام، بينما ازدان كثير من المحلات التُجارية بصور الزعيم «جمال عبدالناصر»، وصار من المعتاد أن يجتمع الناس حول الراديو لسماع خطاباته. شاهد الترام غاصًا بالركاب والموظفين الذين تم تعيينهم في عشرات المصالح والهيئات الحكومية، وندرت وجوه الأجانب رويدًا في المطاعم والبارات وعلى المقاهي، في حين أغلقت معظم محلات اليهود أبوابها بعد هجرة أصحابها إلى الخارج. كما اختفت من جُدران الشوارع الرئيسية ملصقات وأسماء الأحزاب، ومُحيت شعارات حركة «مصر الفتاة» والإخوان المسلمين في الوقت الذي تقاطعت فيه اللافتات القماشية تلهج بالتأييد والثناء للزعيم العظيم وقائد حرب بورسعيد المجيدة.

استعاد «حسين» روحه الفُكاهية وهو يجلس بجروبي مع «سعيد» و«مدحت» و«عبدالقادر عامر» يتحدثون ويُدخنون. كان «حسين» قد تعرض لصدمة قاسية عندما وصل إلى القاهرة والتقى مُدير مكتب المشير «عبدالحكيم عامر»، حيث فوجئ بهم يُعينونه موظفًا بشركة شِل للبترول براتب ثمانين جُنيها. اندهش «حسين» أن تكون مكافأته التي قدمها له الرجل الثاني في مصر هي تعيينه موظفًا صغيرًا في شركة بترول، بدعوى عدم حصوله على شهادة جامعية، في الوقت الذي وضعت فيه أراضي والدته تحت الحراسة. أبدى انزعاجًا من القرار، لكنْ مدير مكتب المشير أنبأه أنَّ قرار تعيينه في الشركة لم يكُن مقبولًا لولا تدخل المشير شخصيًا خاصة أنَّه ليس لديه شهادة جامعية. كما شمل قرار التعيين زميله «عبدالقادر عامر»، الذي وصل إلى القاهرة بعد أسبوع واحد من عودته، لكنَّه اختار أن يكون عمله بالإسكندرية إلى جوار أسرته.

قال «حسين» لجلسائه في سُخرية:

ــ إن عبدالناصر ضحك على الجميع. خدع الناس بوظائف وأراضٍ ومناصب وأحكم قبضته على البلاد شرقًا وغربًا، فصار الحاكم الأوحد، وقدّم نفسه كزعيم عظيم.

نظر «مدحت» يمينًا ويسارًا، ثُم قال:

ــ لكن لا تنس أنّه حقق الجلاء، وألغى الأحزاب، والألقاب، وانتصر على ثلاث دول في بورسعيد.

ضحك «حسين» بصوتٍ عالٍ، وقال مُفنّدًا:

ــ أي جلاء ذلك الذي حققه، وكان الثمن ضياع السودان وانفصالها عن مصر. ثُم مَن قال لكم إنّه ألغى الألقاب، لقد ألغى لقبًا، ليستبدل بدلا منه عدة ألقاب. كُل واحد من أعضاء مجلس الثورة صار باشا بل أعظم من الباشا. أما الأحزاب فقد أعدمها تمامًا ليس من أجل مصر، وإنما من أجل نفسه، حتى لا يصبح له بديل. وما تقوله عن العدوان الثلاثي نكتة «بايخة»، لأنني أعرف منذ كنت في دمشق كيف كانت الهزيمة ثقيلة على مصر، وأنّه لولا تدخل أمريكا مباشرة لما انسحبت قوات العدوان. إنّ عبدالناصر هذا عميل أمريكي مُستتر.هو ممثل فاشل، وسيقود البلاد نحو الخراب.

بدا «عبدالقادر» مُتفقًا مع «حسين» فيما يقوله عندما تدخل شارحًا:

ــ لقد نحى نظام عبدالناصر الثوار القدامى لصالح رجاله وخدمه. وها نحن نعمل ولا نعمل. مجرد موظفين بالاسم في شركة كُبرى، لكنّنا نجلس على المقاهي كل يوم، لأنّه مطلوب منا أن نسكت صونًا لأكل العيش. حسين معه كُل الحق.

ــ ألم تتسلم عملك بعد بالاسكندرية؟

سأل «حسين»، فأجاب «عبدالقادر»:

ــ قالـوا لي أنـت مُعـين ولـك راتـب شـهري، لكـن لـم يطلبـوا مـني انتظامـا أو يعهـدوا إليّ بـأي مهـام. ألـم أقـل لـك يـا حسـين إنهـا رشـوة.

ردّ «حسين» بحنق:

ــ ليسـت رشـوة. إنَّهـا أقـل مـن حقنـا عـلى هـذا البلـد وعـلى هـؤلاء الانتهازيـين. لقـد اختطفـوا الحُكـم منـا. تركونـا ندفـع الثمـن، وحـازوا هُـم السـلطة.

ثُم رمى «سعيد» بنظرة ذات مغزى مُضيفًا:

ــ ألـم يُعينـوا إبراهيـم كامـل في وزارة الخارجيـة. وعيَّنـوا سـيد في هيئـة الاسـتعلامات. أمـا أنـا وأنـت وعبدالقـادر فألقـوا بنـا في شركـة بـترول حكوميـة. إنَّهـم يقصـدون ذلـك. هـل تعرفـون أيـن تـم تعيـين عبدالرحمن السندي قائد الجهـاز الـسري للإخـوان المسـلمين؟ لقـد عينـه عبدالنـاصر في هيئـة قنـاة السـويس لأنَّـه كان صديقـه وقاتلـه الـسري.

نظـر «مدحـت» إلى الخـارج، مُتابعًـا سـير السـيارات بشـارع 26 يوليـو، الـذي مـازال النـاس يطلقـون عليـه اسـم شـارع فـؤاد، وتذكـر كيـف سـافر شـقيقه «نجيـب» إلى أوروبـا ليسـتكمل دراسـته، بعـد أن تـزوج «سـناء» شـقيقة «محمـود مـراد» ثُـم غـاب رويـدًا حـتى صـار كغريـب أو خواجـة. تذكـر أيضـا كيـف اعتزلهـم «محمـود مـراد» تمامًـا، ثُـم تـزوَّج وسـافر للعمـل في الصعيـد. قـال «مدحـت» لـ«حسـين»:

ــ أنـت مُحـق يـا حسـين. لقـد أخـصى نظـام عبدالنـاصر جيـل الشـباب كُلـه، إمـا بالوظيفـة أو بالسـجن مثلمـا جـرى مـع الإخـوان والشـيوعيين والوفديـين. وهـا هـي السـودان ضاعـت، وقبلهـا فلسـطين، ورغـم الهزائـم أصبـح عبدالنـاصر هـو الزعيـم المحبـوب، والبطـل العظيـم.

نظر «حسين» إلى جُلسائه باهتمام، قبل أن يقول هامسًا:

ــ هل تعتقدون أننا قادرون على العودة للعمل الفدائي؟

ترقـب المُحيطـين بـه، ورمـى نظـرات مُتشـككة نحـو رواد «جـروبي» ثُـم

تابع ردود أفعال أصدقائه، فلمح قلقًا بالغًا على وجوههم.

قال «مدحت» بعد لحظات من الصمت:

ـ للأسف يا حسين هذا مستحيل. محجوب وعمر وعبدالعزيز والشافعي وجميع أفراد شلة الهندسة انسحبوا تمامًا واعتزلوا السياسة، معتبرين أن الثورة حققت آمالهم، وها هو نجيب وسيد سافرا للخارج، ومحمود مراد هجرنا إلى الأبد. ومحمد إبراهيم كامل أصبح جُزءا من النظام، ولا أحد سوانا نحن الثلاثة.

ـ أربعة.

علّق «عبدالقادر»، فهزّ «مدحت» رأسه قائلًا:

ـ أربعة.

لكن «عبدالقادر» أضاف سائلًا «حسين»:

ـ والحاج محمد؟ السادات يا حسين؟

ابتسم «حسين» ساخرًا قبل أن يقول:

ـ هذا الرجل فاق الجميع. لقد حاولت لقاءه، وفشلت. هل تتخيلون أن يبعث لي السادات مدير مكتبه ليسألني حاجتي. تصوروا. هل يعتقد هذا الانتهازي المغرور أنني أتسول منه؟

وأضاف بنبرة حُزن:

ـ لقد اشتهر على حسابنا. أكل عيش على قفانا.

وضحك في سخرية، ليضحكوا معه.

***

«عزيزي إبراهيم كامل..

أكتب لك بعد شهور طويلة من عودتي إلى القاهرة التي كُنت أعتقد

أنّني لن أراها مرة أخرى. جميع الصحاب تفرّقوا، وأشعر بوحشة شديدة، بعد أن مُحيت أعمالنا ونُسبت كل البطولات لضباط الحركة المُباركة وحدهم. هُم يقولون الآن أنّهم قاوموا الإنجليز، ونظموا حرب الفدائيين في القناة، وأنّ الإخوان والشيوعيين ورجال العمل السري كانوا مُتفرجين. إنّهم لا يُريدون لأي صوت أن يعلو فوق صوت خطيبهم المفوّه الذي ملأ الدُنيا صياحًا، ولا يقبلون لصورة شخص أن تصعد إلى جواره. هو البطل الأوحد، والشجاع الأول، والقائد المُلهم، والزعيم العبقري. هو رسول الفقراء، ونبي العُروبة، وصلاح الدين العصر الحديث.

لقد وُضعت أراضينا جميعًا تحت الحراسة، ووزّع «عبدالناصر» ما لا يملك على مَن لا يستحق، ومنح رجاله قصور الباشاوات وفيلاتهم شرقًا وغربًا ليحوز ولاءهم، بعد أن طرد الثوار الحقيقيين بعيدًا عن مصر، واشترى صمت الآخرين بثمنٍ بخس. إنّني لا أزال أتلمّس فيك الأمل وأحسن بك الظن باعتبارك الأكثر إخلاصا ووفاء بين أصحاب الطفولة والصبا. أنا على يقين أنك لست ممَن تم شراء سكوتهم، لأنّ رجلًا بفكرك، ووطنيتك، وشجاعتك، وجرأتك لا يقبل أن يعمل تحت إمرة انتهازي، ومُخادع، وتاجر كلام مثل «عبدالناصر». سأنتظر لقاءنا فور زيارتك القادمة لمصر، التي أعلم أنها ستكون قريبًا. ولك خالص المحبة.

أخوك: حسين».

طوى «محمد إبراهيم كامل» خطاب ابن خالته، وقام إلى المطبخ ليشعل عود كبريت في الخطاب الذي وصله في الصباح على مقر عمله بالسفارة المصرية في لندن. كان يعتقد أنّ الخطاب المُرسل قد يكون فخًا له للإيقاع به من خصومه وحُساده في وزارة الخارجية، الذين اعتبروه دخيلًا على العمل الدبلوماسي بسبب صلاته وعلاقاته ببعض أصحاب النفوذ في النظام القائم. تذكر «إبراهيم» لقاءه قبل تعيينه

في الـوزارة بـ«جمـال عبدالنـاصر»، الـذي صارحـه خلالـه بـأنَّ البعـض وشى بـه مُدعيًـا قيامـه بوضـع خطـة لقتـل الرئيـس، وهـو مـا دفعـه أن يقسـم للرئيـس عـدة مـرات بأنّـه ابـن بـار للثـورة. قـال إنّـه عـلى اسـتعداد للعمـل في أي موقـع يخـدم بـه الثـورة، ويخـدم بـه «جمـال عبدالنـاصر»، لكنَّـه يُفضـل العمـل الدبلومـاسي خاصـة لاسـتثمار إتقانـه للغـة الإنجليزيـة وأصـول الإيتيكيـت في خدمـة بـلاده، وعـلى الفـور أصـدر الرئيـس قـرارًا بإلحاقـه بسـفارة مـصر في لنـدن. «بريطانيـا؟!» قالهـا وقتهـا مُمتعضًـا مُتذكـرًا أنـه شـارك في إشـعال النـار في معسـكرات الجيـش البريطـاني وفي الاعتـداء عـلى جنـوده في الشـوارع والطرقـات، لكنَّـه في النهايـة امتثـل لإرادة «عبدالنـاصر» في وضعـه في موقـف المواجهـة اليوميـة المُباشرة مـع أعـداء الأمـس. فكَّـر للحظـات أنَّ خطـاب «حسـين» لـه قـد يكـون قـد وقـع في أيـدي المُخابـرات، وأنَّ عليـه إثبـات حُسـن نوايـاه وولائـه التـام أمـام الأجهـزة الـتي يعلـم أنَّهـا تـرى أكـثر ممـا ينبغـي، وتتنصـت عـلى الشـاردة والـواردة، وتعـد تقاريـر يوميـة عـن الـكل بـلا اسـتثناء، لـذا فقـد قـرر أن يـرُد عـلى خطـاب «حسـين» بحـدّة تُناسـب قـراره بحـرق مراكـب المـاضي تمامًـا. جلـس عـلى أريكـة وثـيرة تتوسـط صالـة منزلـه، وأمسـك بورقـة وقلـم وكتـب بخـطٍ مُتأنـق:

«أخي العزيز حسين..

حمـدًا للـه عـلى سـلامتك وعودتـك لأرض الوطـن، وشـكرًا للـه عـلى اهتمـام الدولـة بتوظيفـك براتـب مناسـب في شركـة كـبرى. إنّـك لاشـك تسـتحق كُل خـير، لـذا فقـد سـخر لـك اللـه رجـالًا مُخلصـين ليسـعوا لـدى الحكومـة السـورية للإفـراج عـن واحـد مـن الأبطـال والرمـوز الوطنيـة بعـد أن تسرب اليـأس إلينـا جميعـا بأنَّنـا لـن نـراك مـرة أخـرى.

تُحزنـني أيهـا الأخ العزيـز تلـك النـبرة السـوداوية في خطابـك بشـأن العهـد الجديـد، والحركـة المباركـة، وأتعجـب كيـف لا تجـد لديـك احتفاء بمـا جـرى ومـا يجـري. ألـم تكـن تلـك آمالنـا وأحلامنـا معـا؟ أن نطـرد

الإنجليز خارج البلاد، ونشعل النار في الأحزاب القديمة، ونقضي على الإقطاع، ونعيد للفقراء وأبناء البلد حقوقهم المنهوبة؟ ألم نعمل معًا على صون كرامة المصريين، ورد العزة والكبرياء لهم؟ إنني أتصور أنَّ ذلك هو ما حققه «جمال عبدالناصر» ورجاله، الذين خرجوا يحملون أرواحهم على أكفهم ليلة 23 يوليو لإحداث تغيير جذري في البلاد، وإصلاح الأحوال، فلهم كل الشُكر والامتنان على تضحياتهم وجهدهم الذي كان دائمًا جُهدًا مستترًا.

إنني أعرف أنَّ المحنة القاسية التي تعرَّضت لها أثرت على رؤيتك للأشخاص وتقديرك للأحداث، لذا سأذكرك. هل نسيت يا «حسين» إعجابك الشديد بأفكار وآمال «أنور السادات» عندما التقيته لأول مرة وحدثتنا عنه وعن جرأته وذكائه وطموحاته الواسعة؟ إنَّه واحد من هؤلاء الذين تظنهم انتزعوا البطولات، ولا يريدون لأحد أن يُذكر إلى جوارهم.

لقد جانبك الصواب يا صديقي وابن خالتي عندما تصورت أن «جمال عبدالناصر» يتاجر بالكلام، إنَّه يحترق كُل يوم من أجل الناس، يصحو مُبكرًا وينام مُتأخرًا، ويعيش كموظف متوسط الحال، يأكل مما يأكله البسطاء ويلبس ملابس صُنعت في بلاده. «عبدالناصر» ليس كما تظُنّ أو يُهيأ لك ولولا هيبته وقوته لما تم الإفراج عنك من محبسك بسوريا. لقد رسم لنا الرجل طريقًا جديدًا للصعود وللبناء وآمل ألا يخونك تقديرك، فتصبح حجر عثرة في الطريق.

والله أسأله أن يُلهمك الصواب، وييُسر لك طريق الخير. والسلام ختام.

محمد إبراهيم كامل

لندن. أبريل 1959»

***

استردت «سُعاد» تصالحها مع الأيام بعد شهور قليلة من الاستقرار في القاهرة، ورغم قسوة وبرود حماتها في التعامل معها، فإنَّها صنعت لنفسها عالمها الأسعد، خاصة بعد أن أنجبت فتاة جميلة تُشبهها، أطلقت عليها اسم كوثر. رأت «سعاد» في القاهرة وأحيائها القديمة، وشوارعها، ومطاعمها، ودور السينما فيها انتعاشًا روحيًا غطى على انقطاع أخبار شقيقها تمامًا. كما أنَّ اتصالاتها الدائمة، وزياراتها المتكررة لشقيقتها «فاطمة» في الإسكندرية أزاحت أستار الغُربة عن حياتها. لم تعُد تشعر أنَّ مصر ليست بلدها، خاصة بعد أن صارت القاهرة ودمشق مدينتين في دولة واحدة اسمها الجمهورية العربية المتحدة، ورغم عدم رضا زوجها عن اتحاد الإقليمين الشمالي والجنوبي وإلغاء التأشيرات بينهما، فإنَّها كانت تعتقد أنه سيعتاد ذلك بحلول الوقت، وسيحب الزعيم «جمال عبدالناصر» مثلها، الذي لم تر منه ما يُزعجها.

لقد سألت يومًا زوجها عما يأخذه على «عبدالناصر» بخلاف مصادرة أراضي والدته، فقال لها بحدّة إنَّه أداة للدول الكبرى يلعبون به كلما أرادوا. ثم أسرّ لها بأنَّه لولا أمريكا لما صار «عبدالناصر» حاكمًا على مصر. قالت «سُعاد» ردًا على كلام زوجها الذي بدا غير مقنع:

ـ إنني لا أظن أبدًا أنَّ هذا الرجل عميل لأحد. أنا أعرف العملاء جيدًا. أولًا هو لا يُشبه حُسني الزعيم في شيء، ولم يبدر منه ما يُشير إلى أنه قريب الشبه بأديب الشيشكلي. الناس عندكم يحبونه وأتصور أنهم على حق، فهو بليغ ومُقنع عندما يتحدث، وهو قادر على التأثير في الآخرين، وله عينان تشعان طموحًا.

بدا «حسين» عصبيًا وهو يرد:

ـ أنت لا تعرفين شيئًا. إنَّه أكثر شراسة واستبدادًا من أديب الشيشكلي، وأشدّ حمقًا من حُسني الزعيم. لقد فصل مصر عن السودان ليمد عُرى الوحدة إلى بلادكم، رغم أنَّه لا توجد حدود

مُشتركة. هو يتاجر بكل شيء، حتى بالعروبة، ويبيع للجماهير أوهام البطولة.

قالت «سعاد» بعد أن شعرت بتوتره:

ـ حسين. أرجوك انس السياسة وتفرغ لبيتنا. كفى ما جرى. نريد أن نعتني بكوثر ونُعلمها تعليمًا جيدا، وها أنا حامل وآمل أن أنجب لك ولدًا يشبهك.

هزَّ رأسه في برود وقال لها:

ـ يا سعاد قلت لك مرارًا. السياسة هي أنا. حياتي. رأسي. فكري. عائلتي. كُل ما له علاقة بالوطن مغروس في قلبي وروحي ولا أستطيع أن أتخلص منه. لقد تزوجنا وأنت تعلمين أنَّني هارب من قضية سياسية، وعشنا معًا وأنا منخرط في تنظيم سياسي، وحوكمت وسجنت ومازلت أعمل بالسياسة.

ـ نعم. لكنني تعذَّبت بغيابك في السجن. قُتلت قتلًا عندما انتزعوا حبيبي من أمامي لأنتظر سبع سنوات كي يجمعنا بيت مرة أخرى. أنا بدونك لا شيء، وبنتك بدونك لا شيء، وابننا القادم كذلك. أريد أن أعيش في سلام وأمن مثلما يعيش الناس. أريد أن أنام دون قلق، أمسك كفك في اطمئنان، أريح رأسي فوق كتفك، أسير إلى جوارك في الطريق دون خوف.

بدا الامتعاض على وجهه، وقام مُنزعجًا وهو يهمس في لامبالاة وغضب مصطنع:

ـ إذن ابحثي لك عن رجل آخر.

كان «حسين» مُستنفرًا بعد أن صدمه خطاب «محمد إبراهيم كامل» المُعاتب، وقال لنفسه إنَّ تلميذ الأمس يحسب أنَّه صار مُعلمًا. باعه واتهمه بقصور الفهم ونكران الجميل، بعد أن كان يسير وراءه دون مناقشة. تغيَّر الزمن وانقلب الأتباع إلى أصحاب رأي، وصار الصغار

كُبارًا، وها هو بات شخصًا جانبه الصواب، وحاد عن طريق الثوار. تذكر «محمود يحيى مراد»، وكيف كان دخوله للتنظيم بداية حقيقية للتوسع، ومرَّ بذهنه كيف أطاحوا بـ«عبدالهادي أفندي»، وكيف راوغا مفتش الأمن ومخبري المعادي، كيف خططا معًا، وفكرا معًا، ونفذا معًا أعمال الخطر. شعر بوحشة غريبة لابتعاده، ثُم تذكر فجأة «عبدالقادر عامر»، وقال لنفسه إنَّه لم يره مُنذ فترة طويلة. نظر بعينين ماكرتين نحو زوجته، وقال لها في هدوء:

ــ عُذرا عزيزتي. أنا متوتر، ولكن لا تناقشيني في السياسة مرة أخرى فما أعرفه لا تعرفينه. عموما من الممكن أن نقضي يومين إجازة في الإسكندرية. هل توديـن أن تزوري فاطمة؟

ابتسمت ومسحت نصف دمعة منزلقة على خدها وهزَّت رأسها موافقة.

***

في الصحراء أمام الهرم الأكبر التقيا، «حسين» و«محمود موسى»، بعد غياب طال عشر سنوات. كان «حسين» قد اتصل بالضابط السابق ليسمع صوت زوجته «ميمي» تسأل في اهتمام عمن يريد زوجها لتسمع آخر اسم تتوقعه في الوجود وتصمت على إثره لحظات قبل أن تسأله عن أحواله وزوجته وأبنائه، ثُم تنادي له زوجها.

رأى «حسين» نفس الوجه الذي ودّعه في الميناء بعد أن أقله في الماضي من مخبأ إلى آخر، بنفس البرود، وذات النظرات الفاحصة المُدققة، والابتسامة المطبوعة على شفتين صغيرتين، بينما بدا رأسه أكبر قليلًا وقد ارتد شعره إلى الوراء مُستجيبًا للزمن. ونظر «محمود» إلى وجه «حسين» ليقرأ فيه عجلات الزمن، وآثار المحن، ولمح في عينيه ذات النظرات اللامبالية التي تهتف كُل لحظة أنَّ صاحبها لا

يعرف الخوف، وبدا جسد «حسين» مُمتلئًا عند البطن، بينما منحه شاربه المفتول مظهر الجدية والصرامة. تذكر الضابط السابق ذلك الولد المُضطرب، المُندفع الذي كان واقفًا أمامه لا يعي شيئًا قبل عقد من الزمان، كيف تبدل به الحال ليبدو كزعيم سياسي مُحنّك! وكيف تحولت هيئة الشاب المتدفق حماسًا وتطرفًا إلى هيئة قائد مُخضرم قادر على الحفاظ على ثباته الانفعالي في كُل موقف وحين!

صافحه، وسار إلى جواره فوق رمال صفراء هادئة بعيدًا عن الناس ليتناجيا في سلام، ويتناقشا في اطمئنان. قال «حسين» وهو يضع يُمناه في جيبه:

ـ أوحشتني يا رجل. بانت عليك السن. كبرت يا حضرة البكباشي.

ابتسم «محمود»، ورفع حاجبيه اعتراضًا وقال:

ـ انتهت هذه الألقاب الآن. لقد خرجت من البوليس عميدًا. والآن أقضي معظم الوقت في النادي أو في سهرات الأصحاب نلعب ونشرب.

ثُم أضاف وهو يهزُّ رأسه:

ـ تعرف يا حسين. الزمن لم يعُد لنا. الثورة قامت، والملك خرج، والأحزاب انتهت، وحتى النحاس باشا صار مُنعزلًا عن الجميع، تغير كُل شيء. يا حسين لم يعد لائقًا أن نبقى في أماكننا خاصة أنهم اعتبرونا مع الملك.

ـ تمام.

قالها «حسين»، وهو يُزيح بحذائه زلطة صغيرة بدت بارزة على الطريق الرملي، ثُم قال:

ـ لكن ألا تعمل الآن؟

ضحك «محمود» وقال:

ـ كيف أعمل؟ وماذا أعمل؟ لقد خرجت إلى المعاش. والحمد لله، لم أتهم في شيء مثلما جرى الحال مع محمد وصفي والجزار.

ـ وإبراهيم إمام؟

ـ إبراهيم إمام لا يريد أن يطل. كبُر وزهد في كُل شيء. لقد اعتزل تماما، وابتعد عن الجميع، وقابلته قبل سنوات فقال لي إنَّه يستمتع بتأمل الكون والناس والأحداث.

ـ ولا شيء آخر؟

ـ نعم. لا شيء آخر.

ابتسم «حسين»، وقال:

ـ أتمنى أن أراه.

ـ لا تفعل. هو لن يُرحب.

أخرج «حسين» سجائره، وقدَّم واحدة للعميد «محمود موسى»، لكنَّه اعتذر قائلًا:

ـ أقلعت عن الدُخان تمامًا. أما الشراب فمازلت أشرب قليلًا.

ـ والنساء؟

ضحك «محمود» قائلًا:

ـ تعرف يا حسين. أنا زوج مثالي وأب طيب.

ـ عظيم. عظيم.

مشيا ببطء يتنسمان هواءً مُنعشًا، وأشعل «حسين» سيجارته، رانيًا نحو السماء الواسعة، ليسمع السؤال المُنتظر من رفيقه:

ـ قُل لي يا حسين. ما الذي دفعك لطلب لقائي؟ لعلَّ الأمر خير.

ـ نعم. كُل خير. أنت تعرف أنني أثق بك كثيرًا. لقد ساعدتني من قبل وأمنتني رغم أنَّه كان يمكنك أن تقبض عليّ وتحصل على المكافأة المرصودة وهي بالطبع أعلى كثيرًا من مكافأة نهاية الخدمة، وكانت ستضمن لك حياة رغدة.

ابتسم «محمود»، وقال بنبرة صدق:

ـ لا تظن أنّي فعلت ذلك من أجلك.

وقف حسين فجأة مُستفهمًا، فأردف مُحدثه قائلًا:

ـ كانت أوامر. وأنا مخلص لرؤسائي.

سـكت «حسـين»، وكأنّمـا أنكـر مـا سـمعه. كان يعلـم مـن قبـل أنَّ مسـاعدته عـلى الهـرب لـم تكـن لوجـه الوطـن. كانـت هُنـاك أغـراض وأهـداف لـم يفهمهـا حينهـا، وهـا هـي تنفتـح نوافذهـا أمامـه بعـد ردحٍ مـن الزمـن.

سأله «محمود» مرة أخرى:

ـ ها، ما الذي تُريده مني؟

نفث «حسين» دُخان سيجارته بعصبية بادية، وقال:

ـ عظيم. سأصارحك. أنا أخطط للثورة على عبدالناصر.

سـكت «محمـود مـوسى» للحظـات قبـل أن ينفجـر ضاحـكًا بصـوتٍ عـال، أثـار حنـق «حسـين» الـذي وقـف عـن السـير فجـأة، ونظـر بغضـب سـائلًا:

ـ ما الذي يُضحكك؟

واصل «محمود» ضحكه المُتقطّع، وهو يقول:

ـ ما قلته.

وقال بعد أن توقفت نوبة الضحك:

ـــ هـل جُننـت يـا حسـين؟ هـل أصابتـك لوثـة؟ الآن لا أحـد يسـتطيع الثـورة عـلى عبدالنـاصر. لـو قلـت لي ذلـك في 54 أو حـتى 56 لقلـت أنّـه ممكـن. لكـن الآن سـيطر الرجـل عـلى البلـد تمامًـا. ومـا أريـد أن أقولـه لـك هـو أنّـه لا بديـل لـه سـوى الجيـش، وصاحبـه هـو المُسـيطر عليـه، ولا يُمكـن أن يخذلـه. لقـد حـاول مَـن هُـم أقـوى منـك وأكـثر إمكانيـات وأوسـع انتشـارًا، وهـا هـم الآن موزعـون عـلى سـجون مـصر، البعـض في السـجن الحـربي والبعـض الآخـر في طـرة والواحـات.

ـ تقصد الإخوان؟

ـ نعم. لا توجد قوى مُسلَّحة في مصر سواهم. وأعتقد أنَّ كوادرهم سُحقت تمامًا في 54 بعد حادث المنشية.

هزَّ «حسين» رأسه مُفكرًا، وقال:

ـ دعك من الثورة عليه. لكنني أستطيع أن أقتله.

ـ لا أعرف. لكنَّ قتله لن يؤدي إلى تغيير. لا تظُن أن مصر مثل سوريا. مَن يقتل أحدًا يأتي مكانه، لو قُتل عبدالناصر فإن مَن سيتولى الرئاسة هو الشخص الأقوى، وهو في الغالب سيادة المشير عبدالحكيم عامر.

تذكر «حسين» ما فعله المشير من أجله، وكيف حرره، وتدخل لتوظيفه، فقال:

ـ إنه بلا شك أفضل، وأوضح، ولا يعرف اللف والدوران.

ـ تمام. هل معك رجال؟

هزَّ «حسين» رأسه هامسًا:

ـ طبعًا.

ـ وسلاح؟

ردَّ «حسين» قائلًا:

ـ هذا ما أريده منك.

ـ لم أعد على اتصال بأحد، لكن على أي حال يمكنك شراء أسلحة بسهولة ما دام لديك أموال كافية. في الإسكندرية هُناك عدة تجار معروفين يجلبون بنادق ورشاشات عن طريق ليبيا.

وأضاف سائلًا:

ـ هل لديك أموال كافية؟

امتعض «حسين» قليلًا، وأجاب:

ـ سأجهز مبلغًا مناسبًا خلال ستة شهور، لكني أريد أن أسألك بوضوح إن كان لي أن أثق فيك أم لا.

ابتسم «محمود» وقال:

ـ بكل صراحة لا أعتقد. ابحث عن غيري. من أجل اعتزازك بي وحُسن ظنك، سأعتبر أننا لم نلتق وأنني لم أسمع منك شيئًا، وآمل أن تنجح فيما تُخطط فيه.

توقف «حسين» عن السير مادًا يده بالمصافحة، وقال:

ـ شُكرًا على وقتك.

***

نظرت «سُعاد» في المرآة مُراجعة وجهها خاليًا من المساحيق، وتمتع بالجمال الرباني، مُتناسية معاملة حماتها الباردة لها، ورميها بين الحين والحين كلمات ذات مغزى عن الحظ والنصيب والوجوه المشئومة التي يحل معها الخراب والفقر. كانت والدة «حسين» تُلمّح إلى إنجاب «سعاد» بنتين متتاليتين بعد ولد غير طبيعي لم يُقدر له أن يرى والده، فضلا عن وضع أراضي العائلة تحت الحراسة بعد أن كانت مضرب الأمثال في الثراء.

مدّت «سُعاد» أشواك المشط بين جدائل شعرها الفحمي المُسترسل كأنما تُلقي عن حياتها كُل ما يعكرها من أحقاد ونفور رأته طبيعيًا من حماة تجاه زوجة ابن غريبة، مستعينة بسلاح البرود واللامبالاة. قالت لذاتها إنّها لن تصطدم بحماتها أبدًا ما دام «حسين» موجودًا، خاصة أنّها تعلم تمامًا كيف تتجنب السيدة «سميرة» إغضابه. فكرت أن تجدد شرود زوجها، وانعزاله النسبي، قد يُثير دبيب القلق في عودته لممارسة العمل السري مرة أخرى، لكنّها استبعدت ذلك

متوقعة أنّه لن يقامر بوظيفته الجيدة، وبحياته المستقرة وبلحظات السمر القليلة التي يقضيها مع ابنتيه «كوثر» و«وفاء». طردت وساوس الشيطان، وهي تتذكر أنّه انقطع عنها في الفراش مُذ أصابته حالة الشرود، وفكّرت أنَّ ذلك سيأخذ وقته ويمُر مثلما هو الحال مع الرجل الذي اختارته عن رضا تام شريكًا لحياتها.

فكّرت «سُعاد» أن إصرار «سعيد» و«مدحت» على اصطحابهما مع البنتين لمشاهدة فيلم بالسينما قالا إنّه يحكي قصة «حسين» أسعدها معتبرة أنَّ الفيلم جاء في موعده ليمنح «حسين» شعورًا بالوفاء من جانب الدولة والمجتمع، ويؤكد أنَّ هناك مَن يُقدرون تضحياته. قالت لنفسها إنَّ مشاهدة الفيلم ستكون فرصة جيدة لـ «حسين» كي يخرج قليلًا من حالة العُزلة التي انغمس فيها مُنذ عدة شهور.

في الطريق إلى السينما، قال «سعيد» موجهًا حديثه للبنتين الصغيرتين:

ــ ستشاهدان اليوم فيلمًا يحكي قصة بابا مع حُب الوطن. كيف حارب الأعداء بشجاعة وكيف هرب منهم وكيف أحبّه الناس وكيف صار نموذجًا ومثالًا للشباب.

لم ترد أي من البنتين، لكن «سعاد» قالت:

ــ ألم يكتب الفيلم إحسان عبدالقدوس. لقد أخبرني حسين كيف كان هذا الصحفي شهمًا ووقف إلى جواره وقت هروبه من الإنجليز.

لم أهرب من الإنجليز أيها الأغبياء. لقد هربت من المصريين. قالها «حسين» في سرّه، وظلّ مُتدثرًا بالصمت يُتابع حديث العائلة عن بطولاته.

سأل «مدحت» «سُعاد» باسمًا:

ــ لكن عليك أن تُخبرينا إن كان حسين يُشبه عُمر الشريف بطل

الفيلم أم لا؟

ابتسمت وأجابت:

ـ إنَّه أكثر وسامة منه.

ضحك «مدحت» قائلًا:

ـ إذن أنتِ أجمل من زبيدة ثروت.

ـ طبعًا.

جلسوًا معًا في تراس مخصوص حجزه سعيد بسينما مترو، ليشاهدوا الفيلم صامتين.

بدأ الفيلم بمشهد للطلبة في الجامعة يحتشدون حول طالب يخطُب فيهم قائلًا إنَّ المصريين لن يصمتوا على عملاء الإنجليز، والخونة، مع تعالي الهتاف «يسقط الخونة. الموت للخونة». انطلقت مظاهرة الطلبة خارج الجامعة وهي تنادي بسقوط العرش لتصل إلى كوبري عباس، حيث كان في انتظارها ضابط البوليس السياسي «الدبَّاغ»، الذي أمر بإطلاق النار على المتظاهرين ليقفز الطلبة هربًا في النيل. ظهر «إبراهيم حمدي» بطل الفيلم فجأة ليقفز إلى النيل محاولًا إنقاذ أحد الطلبة غير القادرين على العوم ليجد أحد أصدقائه يموت أمام عينيه قائلًا: تحيا مصر.

بدا «إبراهيم حمدي» بعد ذلك في شقة صغيرة ومعه زُملاؤه وهُم يتناقشون حول العمل للرد على حادث إغراق عشرات الطلبة في كوبري عباس، حيث قال «إبراهيم» لهم إنَّهم قتلوا عشرات الإنجليز دون حل وأنَّه لا بديل سوى قتل الخونة الذين يتعاملون معهم.

ظلَّ «حسين» صامتًا لا ينبس، بينما علَّق «مدحت» ساخرًا بأنه لا يشبه أيا من الطلبة المُجتمعين مع «إبراهيم حمدي» سائلًا «حسين» أين هو، ثُم قال له:

ـ قُل لصديقك إحسان أنَّ مدحت لم يظهر في فيلمك.

لم يـرُد «حسـين»، واسـتغرق في مُتابعـة الفيلـم ليشـاهد «إبراهيـم حمـدي» يعـرض عـلى زملائـه ضرورة قتـل «عبدالرحيـم باشـا» الخائـن الموتـور. أرسـل «إبراهيـم» رسـالة لوالدتـه يطلـب فيهـا أن تدعـو لـه، وحمـل مُسدسـه وذهـب إلى مقـر الـوزارة ومعـه كاميرا وقـدم للحـراس كارنيهًـا ادعـى فيـه أنَّـه صحفـي ثُـم يدخـل ليطلـق الرصـاص عـلى «عبدالرحيم باشا»، وجـرى هاربًا، لكنَّ الحـراس أحاطـوا بـه وأمسـكوه. وظهـر «إبراهيـم» بعـد ذلـك في مكتـب ضابـط البوليـس «الدبـاغ»، وهـو يتعـرَّض هنـاك للـضرب المُبرح ليشي بأسـماء شركائـه في الجريمـة، لكنَّـه يـصرَّ عـلى الرفـض، ويتـم نقلـه لمستشـفى قـصر العيـني للعـلاج. وهـرب «إبراهيـم» بعـد ذلـك مرتديـا ملابـس طبيـب ليذهـب إلى «محـي» أحـد الطلبـة المُبتعديـن عـن السياسـة ليختبئ عنـده، وهُنـاك التقـى «نـوال» شـقيقة «محـي» لتبـدأ قصـة حُـب مُلتهبـة تصـل إلى درجـة كتابـة ورقتـين بعبـارة «لا إلـه إلا اللـه. محمـد رسـول اللـه» حـتى لا يفترقـا. وتصـل الأحـداث ذروتهـا عندمـا ينجـح أصدقـاء «إبراهيـم» ف تهريبـه إلى الميناء ليختبئ في باخـرة بعيـدًا عـن مـصر، لكنَّـه يقفـز منهـا في اللحظـة الأخيرة عائـدًا لممارسـة العمـل الفـدائي حـتى يمـوت خـلال تفجـير ينفـذه ضـد قـوات الاحتـلال.

انتهـى الفيلـم بكلمـة «البدايـة» مُبـشرًا بثـورة يوليـو الـتي خـرج معهـا «مُحـي» و«عبدالحميـد» مـن السـجن دليـلًا عـلى حُريـة مـصر، لكـنَّ «حسين» قـام صامتًـا ليُدخِّـن في عصبيـة ظاهـرة وهـو يقـول لمـن معـه:

ـ التزوير سمة العصر. لقد شوهوني كما أرادوا.

ابتسمت «سُعاد» قائلة:

ـ حسين إنَّه فيلم جيد، لقد ردّ اعتبارك.

ردّ بتجهم:

ـ لا أنا أعرفهـم جيـدًا. عـلى العمـوم هـذا قطيعـة بيـني وبـين إحسـان.

الصحفيـون دائمًـا هُـم الصحفيـون، يعشـقون الأكاذيـب، ويرشـون البُهـارات عـلى كُل حكايـة. لقـد خاصمـت الحُـب مـن أجـل الوطـن، وأغلقـت قلـبي، لكنَّهـم صـوَّروني شـخصًا ضعيفًـا يهيـم حُبًّـا بفتـاة.

في طريق العودة أمَّن «مدحت»على رأي ابن خالته قائلًا:

ــ الفيلـم مُفاجـأة لي شـخصيًا، في أحداثـه وسـهولته وسـذاجته وحـتى نهايتـه.

ثُم بصوت حاول أن يبدو أكثر جدية:

ــ أعتقـد أنَّهـم بمشـهد النهايـة أرادوا أن ينزعـوا عنـك أي بطولـة. أرادوا أن يقولـوا إنَّ البطـل الحقيقـي لا يهـرب، ويعـود ليمـوت فـداء لوطنـه.

ــ كلاااااب.

علَّق «حسين» غاضبًا، وواصل تدخينه بعصبية.

***

عـلى المقهـى كان جميـع الـرواد صامتـين يسـتمعون لصـوت الزعيـم عـبر الراديـو يخطُـب في شـجن. جلـس «حسـين» و«عبدالقـادر عامـر» يسـتمعان لصـوت «عبدالنـاصر» حزينًـا، وهـو يسـتعرض مـا جـرى مـن انقـلاب ضـده في سـوريا قائـلًا:

«الإخوة في جميع أرجاء الوطن العربي..

هـذه أول مـرة أسـمح فيهـا لنفـسي أن أوجـه الخطـاب إليكـم جميعًـا عـلى هـذا النحـو الرسـمي، ولكنَّـني أشـعر أنَّ مـن حقكـم عـليّ، ومـن واجـبي حيالكـم أن أطلعكـم عـلى فكـري، وأن أفتـح أمامكـم قلـبي في هـذه اللحظـات الحاسـمة مـن نضـال الأمـة العربيـة ومـن كفاحهـا في سـبيل مثلهـا الأعـلى في الوحـدة والحريـة.

إنـني لا أوجـه هـذا الحديـث إلى شـعب الجمهوريـة العربيـة المتحـدة،

لأنني أعتبر أنَّ الساعات التي نعيشها الآن ليست ملكنا وحدنا، إنما ملك تاريخ سبق، وملك حاضر يبنيه الدم والعرق، وملك مستقبل نحاول تحريكه في ضمير الغيب، إنَّها ملك نضال قديم مستمر باق إلى الأبد من أجل هذه الأمة العربية ومن أجل عزتها. لهذا أريدكم جميعًا أن تكونوا معنا، وأن تعيرونا كل الفكر الواعي منكم والاهتمام».

همس «حسين» في أذن «عبدالقادر» قائلًا:

ـ ألا ترى هؤلاء البُلهاء الذين أوشكوا على البكاء مما يقوله الطاغية.

أجابه «عبدالقادر» بهزّات موافقة لرأسه، ليستمع لصوت الزعيم هادرًا:

«إنني لا أقبل مهما كانت الظروف أن أرى الشعب هنا والشعب في سوريا أطراف معركة وأصحاب خلاف وشقاق، لا أستطيع أن أتصور القاهرة ودمشق إلا إخوة كفاح، وإلا زملاء معركة، وإلا شركاء قدر ومصير مع كل عاصمة عربية أخرى، مع كل مدينة عربية، مع كل قرية عربية. ولقد شعرت خلال الأيام الأخيرة أنَّ ما حدث كله قد فتح فرصة واسعة أمام أعداء الأمة العربية من قوى الاستعمار ومن أعوانه، ومن قوى الرجعية في المنطقة وأعداء تقدم الشعوب، ولقد رأيت رأي العين فرحتهم جميعًا بهذه الفرصة التي تفتحت أمامهم، ورأيت تأهبهم للاستفادة منها لمصالحهم وعلى حساب المصلحة العربية.

لقد أحسست أنَّهم يريدونها معركة تقتتل فيها عناصر من أبناء الشعب السوري مع بعضها، معركة تقع فيها الفتنة بين الشعب العربي في سوريا وبين الشعب العربي في مصر، معركة تقع فيها شعوب الأمة العربية في حيرة تتوه بعدها في الظلام. ذلك كله كان أمامي، وكان أمامي أيضًا واجبي تجاه الأمة العربية وتجاه المصير العربي، وإنكم لتعرفون أنني اتخذت منذ أيام قرارًا بألا تتحول

الوحدة العربية بين مصر وسوريا إلى عملية عسكرية، وبناءً على ذلك فلقد أوقفت جميع العمليات العسكرية التي كانت قد بدأت لمناصرة الجموع الشعبية الثائرة ضد الحركة الانفصالية في سوريا».

أشعل «حسين» سيجارة، وسأل صديقه بصوتٍ هادئ:

ـ أما زال هذا المُدعي يحسب نفسه زعيمًا للأمة العربية؟ هااوو. إنَّه لا يعلم كيف صاروا يتندرون عليه في كُل محل ومقهى بدمشق.

ـ بالتأكيد يعلم. لا تنس أنَّ مُخابراته تنقل له كُل شيء.

واصل الرئيس حديثه، وبدا الحُزن مرسومًا فوق وجوه معظم الناس، لكنَّ «حسين» أنكره. فكَّر أنَّ المصريين يتقنون كُل شيء حتى النفاق في المشاعر. إنَّها هزيمته هو لا هزيمة المصريين ولا الأمة العربية.

«أيها الإخوة في جميع أرجاء الوطن العربي.

لقد حاولت جهدي أن أؤدي واجبي كجندي في خدمة هذه الأمة العربية، وحاولت ألا أدع مجالًا لفرقة ولا أفتح طريقًا لفتنة. إنَّ عدوي وعدو أمتي هو الاستعمار والرجعية المتعاونة معه، والقاعدة التي يتحفَّز منها لضرب آمالنا؛ وهي إسرائيل. إنَّ أملي هو حرية الوطن العربي وحرية المواطن العربي، وإنِّي لأثق في حتمية الوحدة بين شعوب الأمة العربية، ثقتي بالحياة، وثقتي بطلوع الفجر بعد الليل مهما طال.

أيها الإخوة..

أعان الله سوريا الحبيبة على أمورها، وسدَّد خطاها، وبارك شعبها، وستبقى هذه الجمهورية العربية المتحدة رافعة أعلامها، مرددة نشيدها، مندفعة بكل قواها إلى بناء نفسها؛ لتكون سندًا لكل كفاح عربي، ولكل حق عربي، ولكل أمل عربي، وسلام عليكم جميعًا. وعاشت الأمة العربية، وعاشت الجمهورية العربية».

ـ عاش جمال عبدالناصر. عاشت الجمهورية العربية المتحدة.

تردد الهُتاف من أحد الكروش المُنتفخة داخل المقهى ليُردد خلفه بعض الجالسين على استحياء، فقال «حسين» مُبتسمًا:

ـ عظيم. واحد من المُخبرين كشف لنا نفسه.

ضحك «عبدالقادر» ساترًا شفتيه بكفّه، وقال لصاحبه:

ـ هذه الوحدة كانت أكذوبة، ضحك على الذقون، لذا لم تستمر. قبل شهور حكى لي تاجر سوري صديق يقطُن في الإسكندرية كيف يتعامل الضباط المصريون بتكبر وتعالٍ مع زملائهم السوريين. وقال لي إنّ تطبيق قرارات التأميم داخل سوريا أدّى لتزايد كبير في حنق الناس على عبدالناصر، خاصة أن أكثر من نصف المجتمع السوري تجار وأصحاب مشروعات. كما أنّ عمليات القمع والاعتقال التي مارسها الرجل ورجله السفاح عبدالحميد السراج ضد السياسيين ضاعفت غضب الناس على القاهرة. لقد توقع صديقي السوري انهيار الوحدة خلال شهور، وأثبتت الأيام صحة توقعه.

هرش «حسين» في شاربه الذي بدأ الشيب يعرف طريقه إليه، ثُم قال:

ـ الغريب يا عبده أنّ الناس هُنا لا تعرف أي شيء. ألا ترى حُزنهم العظيم لأنّ زعيمهم حزين.

ـ طبعًا يا حسين للأسف هناك كثيرون يصدقون نشيد «وطني حبيبي. الوطن الأكبر».

نظر «حسين» إلى صديقه، واقترب برأسه أكثر، وهمس:

ـ هل تظُن أن المشير عامر سيقوم بانقلاب على عبدالناصر؟

سكت «عبدالقادر» كثيرا ثُم أجاب سائلًا:

ـ لِمَ تقول ذلك؟

ـ عرفت من بعض المصادر أنّ منشورات جديدة بدأت تظهر

داخل الجيش موقعة باسم الضباط الأحرار.

فكَّر «عبدالقادر» قليلًا وقال:

ـــ بحساب القوة الآن، فإنَّ عبدالحكيم عامر أقوى، لكن بحساب الدهاء أعتقد أنَّ عبدالناصر سينتصر. أتصور أنَّ المشير عامر رجل طيب، ولا ناقة له ولا جمل في الحرب أو التآمر، ولو استرجعت ما جرى له في دمشق لعلمت كيف استسلم تمامًا لقوات الانقلاب، ثُم غادر دون كلمة.

ابتسم «حسين» وقال:

ـ نعم. كانت فضيحة.

وسكت «حسين» لحظات شرب فيها شايه الساخن قبل أن يقول:

ـــ عمومًا. أنا أتصور أنَّ مرحلة الإعداد للحركة يجب أن تتضمن إيجاد أي جسور مع ضباط بالقوات المسلحة.

واصلا النقاش، بينما كان مُعظم أحاديث روَّاد المقهى تدور حول خيانة القومية العربية، ونكران الجميل، وطعنات الأشقاء لناصر العروبة.

***

أدخلت خادمة المنزل كوب الشاي الصباحي للرجل الثمانيني الجالس في الشرفة مُطلًا على أحد شوارع جاردن سيتي مُتنفسًا هواء الصباح، ومُستمتعًا بدفء الشمس، واضعًا مُصحفه بين راحتيه، ليقرأ كعادته بعض القُرآن. كان الرجُل قد ألقى عن كاهله هموم العمل، وألاعيب السياسة، راضيًا بما قدم لبلاده، وقانعًا بأنَّ لكل عصر رجالًا، وأنَّ دوام الأحوال ضد نواميس البشرية. رنا نحو الشارع الخالي إلا من بعض البوابين، وتذكر عندما استأجر البيت كيف شاع

السرور في الحي الأرستقراطي العتيق فرحًا بمقدمه. كان الرجُل الذي اعتاد مُنادته بلقب «دولة الباشا» قد باع بيته في مصر الجديدة، ليستكمل بناء فيلا باسم زوجته كانت قد بدأت بناءها في حي المرج لكنّها لم تُكملها، لأنّ القدر كان يُخبئ أمرًا آخر، فبعد الثورة قرَّر ضباط الحركة المباركة فرض الحراسة على ممتلكات زوجة الباشا ومن بينها فيلا المرج، والأنكى أنّهم بعد أن عزلوا اللواء «محمد نجيب» من رئاسة الجمهورية، جعلوا تلك الفيلا مقرًا لإقامته.

رشف الباشا رشفة صغيرة من شايه الصباحي، ورسمت ذاكرته أحداثًا مضت عاش فيها بين القلق والأمل، وشهد فيها أيام سرور ومجد، وأيام محن واضطهاد، لكنّه في النهاية كان راضيًا، ولا يشعر بخوف أو قلق من حساب أعسر ومُحاكمة أعظم أمام رب العباد. مُنذ عمل بالحقوق وقلبه وضميره مشغول بحق مصر في التحرُّر والاستقلال، ومن منبر لآخر ومن حزب لحزب انخرط «مُصطفى النحاس» في جهاد المصريين لنيل الحرية وشارك في الثورة الأعظم وهو في الثالثة والأربعين ليجد نفسه منفيًا، ومُراقبًا، ومُضيقًا عليه، حتى رحل الزعيم الأكبر ووجد نفسه محل تقدير وإجماع من الناس ليتولّى قيادة أكبر وأكثر الأحزاب شعبية في ذلك الوقت. حارب الرجل في صمت مؤامرات القصر، ومراوغات الإنجليز، لكنّ حنكته، ونزاهته كانت كفيلة بتجاوزه كُل أزمة، ونجاته من كُل مؤامرة كأنّ عين الله تحرُسه. تذكر الزعيم المُتقاعد كيف حاول القصر قتله عدَّة مرات عن طريق أشقياء ومُغامرين، فدفع يومًا بـ«حسين توفيق» وجماعته ليقوموا بإلقاء قُنبلة على سيارته، لكنّ ستر الله أخرها بضع ثوانٍ لتنفجر بعد مروره، وفي مرة أخرى أطلقت السيارة السوداء الخاصة بالحرس الحديدي رصاصها على سيارته فأصابت سائقه وحارسه، وأخطأته، ثُم قام قتلة آخرون بتفجير سيارة مفخخة أمام منزله في مصر الجديدة لتحترق ناموسية نومه، بينما كان هو يقرأ القرآن في الغرفة المجاورة. وقتها قال له الناس إنّ الله يُدافع عن الذين

آمنـوا، لكنَّـه كان عـلى يقـين بـأنَّ موعـد مُغادرتـه للدُّنيـا لـم يحُـن بعـد، وأنَّ لـكل أجـلٍ كتـاب.

فكـر أنَّـه شـعر بالغُربـة وهـو يقـف ومعـه تلميـذه الـدؤوب «فـؤاد سراج الديـن» أمـام «محمـد نجيـب» مُهنئـين بالحركـة المُباركـة، ولـم يُصـدق مـا قالـه «نجيـب» وقتهـا مـن أنَّهـم قامـوا بالحركـة مـن أجلـه ولتحقيـق مـا ينـادي بـه. شـعر بالضيـق بعـد وقـت قصـير عندمـا قـرأ بالصُحـف تلميحـات وإسـاءات مُتعمـدة لـه ولزوجتـه، والـتي اقـترن بهـا بعـد أن تجـاوز الخمسـين مـن عمـره، ثُـم بـان لـه الموقـف الحقيقـي لرجـال الحركـة المباركـة عندمـا تمـت محاكمـة زوجتـه ووضعـه تحـت الإقامـة الجبريـة. قاطـع الصُحـف بعـد ذلـك، وشـغل وقتـه بقـراءة القـرآن ولعـب الطاولـة واسـتقبال الأقـارب والمُحبـين الزائريـن، مُعلنًـا أنَّـه طلـق السياسـة طلاقًـا بائنًـا.

قـال «مُصطفـى النحـاس» لنفسـه إنَّ البلـد يمـضي مـن سـيئ لأسـوأ في ظـل أوهـام ودعايـات كاذبـة عـن التقـدم والعظمـة، لكنَّـه مؤمـن أنَّ النـاس في داخلهـا تعـرف الحـق مـن الزيـف، وأنَّ التاريـخ سـيقول كلمتـه بعـد أن يرحـل الجميـع.

أكمـل الرجـل كـوب الشـاي، ثُـم وضعـه عـلى طاولـة مسـتديرة أمامـه، قبـل أن يقـرأ بصـوتٍ خفيـض: «**وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا. وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا. وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ ۖ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا. وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا. وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلًا. وَتِلْكَ الْقُرَىٰ**

أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا».

***

فاجأه النبأ. عاد «مصطفى راغب» مسئول الإخوان الذي كان هاربًا في سوريا. قال «حسين» لزملائه وهم جالسون في شقة «مدحت فخري»:

ـ إنَّها فُرصة للتنسيق والتشاور. هذا الشخص خطير جدًّا، ويُمكنه إعداد مجموعات للمشاركة في الثورة القادمة.

بدا «مدحت» مُتشككًا، وقال وهو يُتابع بعينيه حركة أصابع «حسين» المُنفعلة:

ـ يا حسين: ألم ترفض من قبل أي تعاون مع الإخوان؟ لقد قلت أنت لنا مرارًا إنَّهم أكثر انتهازية من أي فصيل، ألا تذكر عندما قلت مقولتك المأثورة: إذا كانت الأحزاب السياسية تُتاجر بالوطن والشعارات، فإنَّ هؤلاء يتاجرون بالله.

هزَّ «حسين» رأسه قائلًا:

ـ نعم. هذا صحيح، لكن التنسيق والتشاور معهم الآن ضرورة، وذلك سيكون مرحليًا فقط. سنعمل على اغتيال عبدالناصر وعدد من معاونيه، وسيقومون هُم بإطلاق المظاهرات في الشوارع لإحداث الاختلال المطلوب، والاستيلاء بعد ذلك على الحُكم.

ثُم واصل شارحًا:

ـ هل تعرفون ما سبب نجاح ثورة السوريين ضد عبدالناصر؟ ما جرى أنَّ الإخوان والشيوعيين أطلقوا مظاهراتهم في الشوارع لتأييد الثورة التي قام بها المقدم الكزبري، فتمكنوا من السيطرة على الشارع، فخفتت أي مقاومة لأنصار عبدالناصر في دمشق، وبقية

المـدن. وحـتى اللاذقيـة الـتي كان يعتقـد أنهـا تجمـع أنصـاره، انقلبـت عليـه في ثـلاث ليـال، لتُعلـن تأييدهـا التـام لخلـع سـلطته.

هزُّوا رؤوسهم كتلاميذ أمام أستاذهم، قبل أن يضيف:

ــ وهـذا مـا سـنفعله هُنـا. حـوادث اغتيـال للشـخصيات البـارزة، ثُـم يـنزل الإخـوان مؤيديـن في الشـارع وينتهـي حُكـم الطاغيـة.

قـام «عبدالقـادر» مـن كُرسـيه، ووقـف في منتصـف حجـرة الصالـون، وسـأل بشـكل مبـاشر:

ــ مَـن هُـم هـؤلاء الشـخصيات البـارزة الذيـن يجـب قتلهـم لإطـلاق الثـورة؟ وهـل سـيكون أنـور السـادات واحـدًا منهـم؟

ابتسم «حسين»، وقال:

ــ السـادات ليـس مـن الشـخصيات الحاكمـة. لا يغـرك أنَّـه رئيـس مجلـس الأمـة. أنـت تعلـم جيـدًا أنَّ هـذا المجلـس مُجـرد حائـط الصـدى لمـا يقولـه عبدالنـاصر ولا أي وجـود لـه بـين النـاس. نحـن نُريـد تنحيـة المؤثريـن بالفعـل. أعتقـد أن قائمتنـا يجـب أن تضـم جمـال عبدالنـاصر، وعـلي صـبري رئيـس الـوزراء، والسـفير الأمريـكي بالقاهـرة. في الوقـت نفسـه سـنضع خطـة للاسـتيلاء عـلى الإذاعـة لإعـلان الثـورة.

ــ والمشير عبدالحكيم عامر؟

سـأل «سـعيد» مُبديًـا دهشـته مـن تجاهـل اسـمه ضمـن الشـخصيات المؤثـرة، لكـنَّ «حسـين» أجـاب سريعًـا:

ــ لـه في عُنقـي ديـن لا يُمكـن نكرانـه، لأنَّـه هـو الـذي تدخـل للإفـراج عـني وعـن عبدالقـادر. عمومًـا هـو لـن يقـف في طريقنـا، فـكل مـا يهمـه هـو الجيـش، وسـيبقى حاكمـا عليـه.

قامـوا مـن غرفـة الصالـون، ثُـم جلسـوا عـلى مائـدة السُـفرة ليرسـم لهـم «حسـين» خريطـة التنظيـم مُحـددًا دور كل واحـد منهـم. أخبرهـم أنَّ «عبدالقـادر عامـر» سـيكون مسـئول التنظيـم العسـكري

حيث ستوكل له مُهمة جمع الأسلحة وتخزينها، وسيصبح «سعيد توفيق» المسئول المالي للتنظيم، حيث ستكون مهمته جمع المال والاشتراكات والتبرعات، والإعداد لخطط الاستيلاء على أي أموال عامة لشراء الأسلحة، بينما سيكون «مدحت فخري» السكرتير العام الذي يتلقى التعليمات والأوامر من حسين لتنفيذها.

بعد يومين، وكما خطط حسين، تم اللقاء بينه وبين «مصطفى راغب» الذي احتضنه غير مُصدق، مُستعيدًا أيام الخوف والخطر في الشام. جلسا في فندق مينا هاوس بالهرم يرتشفان قهوتهما، ليسأله «حسين» عن السبب الذي دفعه للعودة، فأجاب «مُصطفى»:

ــ لا شيء سوى الشوق لمصر والناس والشوارع. في الوجع هُنا مثل هُناك، لذا كان لابد أن أعود. بعد الوحدة طاردتنا مُخابرات عبدالناصر، ورجاله في دمشق وضيقوا علينا حتى اختبأنا في حماة بعد أن غيّر كثيرون هوياتهم. وساعدنا كثير من التُجار أن نُنشئ مشاريع صغيرة كانت تُحقق لنا أموالًا جيدة استطعنا العيش، لكن تطبيق قرارات التأميم في سوريا دفعني للعودة إلى هُنا للاستفادة بمعاشي والبيت الذي تركه والدي.

ــ ألا تخشى الاعتقال؟

ــ لقد قطعت خيوط الماضي، ومعظم أصدقائي من الإخوان إما محبوسون في زنزانات عبدالناصر أو هاربون في السعودية وباقي الدول.

أشعل «حسين» سيجارة ماركة «بولمنت»، وقال:

ــ هل تُريد أن تقول لي إنَّك تقاعدت؟

مصمص الرجل الذي بدت سمنته مُميزة شفتيه، وأجاب وهو يهزّ رأسه:

ــ أنا أعرف أنَّك لن تُصدقني. لكن أنا بالفعل أخرجت السياسة والإخوان تمامًا من رأسي.

ثم سأل بعد هُنيهة:

ـ لكن قُل لي: ماذا تريد يا حسين؟

ـ أريد اتصالًا مع أحد فاعل في الإخوان.

هزَّ «مصطفى راغب» رأسه وقال:

ـ بسيطة. سأكتب لك ورقة لرجل زميل لك بإحدى شركات البترول، سيقرأها ويفهم مُرادك، ويمكن أن تتعاونا.

سُر «حسين»، ونفث نفسًا طويلًا من بلمونتته، قبل أن يسأل:

ـ ما اسمه؟

ـ أحمد قبودان.

ومد له ورقة صغيرة مكتوبًا عليها «الأستاذ» وقال:

ـ أعطه هذه، وثق به إلى أقصى درجة، ولا تخبرني بشيء.

ـ تمام. أشكرك.

تصافحا، وقام «حسين» وشعور طاغ بالانتصار يُسيطر عليه. وغادر مُغتبطًا.

***

استيقظت «سُعاد» مفزوعة من رؤية ابنتيها «كوثر» و«وفاء» تصرخان هلعًا بعد أن وجدتا كوبي اللبن الصباحي وقد تحولا إلى كوبي دم. أبصرت «سُعاد» الكوبين الحمراوين فضربت بكفها الصينية لتُلقي بهما على الأرض، بينما واصلت البنتان صرخاتهما. ظلَّ صوت البنتين الصغيرتين يتردد في أذُنها وهي تحاول تأمل ما حولها لتتأكد أن ما رأته مجرد كابوس عابر. نظرت إلى يمينها فلم تجد «حسين» راقدًا، ومدَّت أصابعها مُتحسسة مكانه فوجدته باردًا. تثاقلت،

وقامت مُتكاسلة لتجد البيت ساكنًا بلا حراك، اقتربت من غرفة البنتين فوجدتها ساكنة، ورمتهما بنظرات محبة وخوف، ثُم نظرت إلى غُرفة السيدة «سميرة» لتجدها موصدة وصامتة كقبر. فكَّرت للحظات، وهي ترمي الغرفة الباقية الخاصة بسعيد بنظرة ريب، قبل أن تسمع صوت حديثٍ خافت. اقتربت ببطء لتكتشف عبر بصيص ضوء مُتسرِّب من أسفل الباب أن الغرفة محل اجتماع سري يُشارك فيه زوجها. تحسست خطواتها بهدوء، واقتربت أكثر مُرهفة سمعها لتستبين ما يُقال، فسمعت صوت «حسين» مُميزًا وهو يقول:

ــ لقد قابلت أحمد قُبودان بالأمس ومن الواضح أنَّه أخطر كثيرًا مما نتخيل. تصور يا سعيد أنَّ هذا الرجل لا يبدو عليه أي شيء، فهو ضحوك وظريف جدًّا بين زُملائه، وكثيرًا ما يُكرر النكات، ويجيد تقليد الفنانين، ويُدخِّن، ومع ذلك هو واحد من أخطر عناصر الإخوان السريين، ولديه خريطة بمخازن أسلحة في كُل مكان بالجمهورية.

ــ وهل وثق فيك بكُل سهولة؟

ميزت المُتنصتة صوت «سعيد» سائلًا، ثُم أجاب «حسين»:

ــ نعم. تصور. لقد أمسك الكارت الخاص بمصطفى راغب، ونظر فيه كمَن يتأمل لوحة فنية لفاتنة من فاتنات عصر النهضة، ثُم ابتسم ونظر إليّ وسحبني من يدي بعيدًا عن الناس، وقال لي: الآن يُمكنك الكلام دون خوف. قُلت له على التنظيم الجديد، وأخبرته أن عدد الأعضاء لدينا كبير ويتعدَّى مائة شخص، فقال لي إن مائة شخص عدد ضئيل، وأن المُهم هو قوة الأشخاص، مؤكدا أن لهم تواجدا داخل الجيش، وكثير من الجهات المهمة والحساسة، وأنهم يتحينون الفُرصة للقيام بعمل كبير.

سكت قليلًا كأنه يسحب نفسًا من سيجارته ثُم أضاف:

ــ طبعًا تحدثت معه عن القيام بعمل مُشترك، لكنه تحفظ بشدة،

مُكررًا أن الإخوان لا يعملون إلا وحدهم، ومَن يرد أن يعمل معهم يعمل تحت قيادتهم. ونصحني أن أجلب السلاح من الإسكندرية، لذا فقد كلفت مدحت بالسفر إلى هُناك ليتابع مع عبدالقادر التفاوض مع أحد التجار، في الوقت نفسه فقد أجرت شقة في الظاهر لنضع فيها السلاح.

ضحك «سعيد»، وقال:

ــ أنت كذبت على رجل الإخوان لتُخبره أن عدد التنظيم مائة شخص، ونحن أربعة فقط.

ــ قريبًا سيتسع التنظيم، عبدالقادر قال إنَّه جنَّد اثنين في الإسكندرية، وأنا سأتصل بسيد ليُساعدنا. لا تنس أنه كان أكثر الأعضاء إخلاصًا.

ــ عظيم. أريد أن أقول لك أيضًا إنَّ نجيب سيأتي الخميس القادم. هل نُفاتحه؟

أجاب «حسين» بحزم:

ــ بالطبع لا. يجب أن نتعلم من دروس الماضي. نجيب ليس مدحت ولن يكون. نجيب مُنفلت، ويحب القراءة والسينما، ويريد أن يستمتع بالحياة. لن يفيدنا، وربما يكون ضارًا بالتنظيم. المُهم سأذهب إلى الفراش، ففي الصباح لدينا تفتيش، ويجب أن أذهب إلى الشركة.

سمعته «سُعاد»، فانسحبت تجري على أطراف أصابعها، ودلفت سريعًا إلى الفراش، وتظاهرت بالنوم.

***

تلاقوا بعد غياب سنوات طويلة. قبّل «نجيب» «فخري» ابن خالته بمودة ظاهرة، ثُم صافح «سُعاد»، واحتضن «كوثر» و«وفاء» ماسحًا

بكفّه شعرهما الطويل، قبل أن يجلس على أريكة الصالون الذهبي المُميز لمنزل «توفيق بك». هُنا لعبنا، وكبرنا، وفتحنا نوافذ الدهشة والصبا. قالها لنفسه، وهو يتذكر أيام المدرسة وحكايات التنظيم الساذج، وخطط المُراهقين الوطنيين.

كان «نجيب» قد وصل قبل دقائق، مُرتميًا في حُضن خالته، ثُم مُعانقًا ابن خالته «سعيد»، قبل أن يستقبل أسرة «حسين» الجديدة التي لم يرها من قبل. بدا «نجيب» أكثر سمنة من أيام الشقاوة، واتسعت جبهته قليلًا، وحمل فوق شفتيه شاربًا كثيفًا قريب الشبه من ذلك الذي يحمله «حسين». وفوق رأسه وضع «نجيب» طاقية أوروبية مُستديرة، بدا معها وكأنّه أحد مُمثلي السينما العالمية. رطن «نجيب» بالألمانية بضع كلمات قال لهم إنّها تعني أنكم أوحشتموني كثيرًا، ثُم أخذ يضحك ساردًا حكايات لا حصر لها عن أزماته العديدة مع اللغة الألمانية مُذ وطئت قدماه أرض ألمانيا الشرقية. سألته خالته عن زوجته فقال، إنّها ثقيلة، راسمًا بذراعه علامة البطن المُنتفخ إشارة لحملها، وأوضح قائلًا:

ــ الطفل الثاني. رُزقنا بأحمس قبل أربع سنين، وسأسمي القادم رمسيس لو كان ولدًا، وإيزيس لو جاءت بنتًا.

تذكر «حسين» «سناء» وجمالها الخلاّب، ورقتها الساحرة، وقال في سرّه: لو كانت زوجتي لما سميت هذه الأسماء البلهاء التي تُشير إلى حُكام جبابرة مُستبدين جعلوا شعوبهم عبيدًا.

نظر «نجيب» فجأة إلى « سُعاد»، وقال بحركات تمثيلية:

ــ أريد أن أقول لك إنك أفضل ما فعل حسين في حياته. لقد اختار لأول مرة فتاة جميلة لتُصبح شريكته وأم أولاده. تحيتي لأهل الشام وتقديري لجمالهن لا يوصف.

ابتسمت «سُعاد» قائلة:

ـ شكرا على ذوقك.

وتدخلت حماتها في الحوار لتقول:

ــ ومَن مثل حسين ابني؟ ألا تذكر يا نجيب كيف كانت بنات النادي يتشاجرن عليه؟

قهقه «نجيب» بصدق، وقال:

ــ يا خالتي. القرد في عين أمه...

ــ اخرس يا ولد.

قالتها خالته، لكنّه واصل التهريج مُحتضنًا «حسين» الذي بدا غير قادر على احتمال المزاح، وجلس يُدخّن سيجارًا غليظًا، وهو يقول لـ«حسين»:

ــ هاا!. ما رأيك؟ ألا أبدو لك كإقطاعي قديم؟

وواصل:

ــ ألم تكُن ضد الإقطاعيين والباشاوات ونحن صغار؟ قُل لي الآن: كيف ترى الاشتراكيين وأبناء الفقراء عندما يحكمون؟

بدا الغيظ واضحًا على «حسين»، وعلّقت «سعاد» قائلة:

ــ إن حسين هجر السياسة تمامًا وتفرغ الآن لعمله ومستقبل بناته.

قهقه «نجيب» مرة أخرى، فقال «حسين» مُجابهًا خجله، وراميًا بنظرة تحذير نحو زوجته:

ــ حسين توفيق لا يتخلّى أبدًا عن وطنه ولا يخاف من أحد.

قال «نجيب»، وهو يربت على كتفه:

ــ قلبك أبيض.

ثُم أضاف بشيء من الجدية:

ــ محمود مُراد صار درويشًا، وإبراهيم كامل على وشك أن يُصبح سفيرًا، ومحجوب تفرغ لإدارة شركات تُجارية ناجحة، وعُمر أبو يعلى الآن صاحب عيال، وسيد أصبح رمزًا للثورة الجزائرية بالأفلام التي

ينتجها في هيئة الاستعلامات ضد فرنسا، أما أنور السادات فقد أصبح رئيسًا لمجلس الأمة، وها هي الأيام تدفع كُل واحد في ناحية. أستطيع القول الآن برضا حقيقي أنَّ السياسة الحقيقية هي أكل العيش. هي التمتع بالحياة.

ردَّ «حسين» بحدّة:

ـ لا سعادة في العيش على الهامش، خدمة السلاطين، السكوت على الباطل. هل أنت سعيد باستبداد عبدالناصر وتفرعنه؟

علقت السيدة «سميرة» بصوتٍ هامس:

ـ منّه لله.

لكن «نجيب» ابتسم وقال:

ـ لا يعنيني.

وواصل:

ـ أنا مُهتم بحالي وحال عائلتي، باستمتاعي بالفن، بالأدب، بمتابعتي للسمر، بسفري هُنا وهُناك. بقراءة الكُتب، والاستفادة من تجارب الآخرين. أنا أعمل في مجال الاتصالات في ألمانيا وأحصل على ما يسترني ويجعلني أحصل على طعام جيد وشراب أكثر جودة، وأتصور أنَّ هذا يكفي. أما عبدالناصر والاشتراكية والجمهورية المتحدة والقومية وغيرها فإنها لا تمر أبدًا في ذهني.

قامت «سُعاد» على إثر غمزة من عين حماتها لتسأل «نجيب» عما يشربه، لكنَّه عاد إلى هزله قائلًا:

ـ هذه اليد الناعمة تصنع القهوة؟ يااه. ما ألذها قهوة.

ثُم أضاف موجهًا حديثه إلى «حسين»:

ـ أنت محظوظ دائمًا يا ابن خالتي.

ربت «سعيد» على كتف نجيب قائلًا:

ـ دعك من الهزل. قُل لي: كم يومًا ستبقى في القاهرة؟

ـ أسبوعين.

قالها «نجيب»، مُضيفًا:

ـ لأننا سنسافر أنا وسناء بعد ذلك إلى أسوان للقاء محمود. أنت تعرف أنه يعمل في السد العالي. قولوا لي أنتم هل ستعزمونني على السينما؟

ـ السينما؟

سأل «حسين»، فهز ابن خالته رأسه قائلًا:

ـ نعم السينما. هُناك فيلم جديد اسمه الناصر صلاح الدين بطولة أحمد مظهر وصلاح ذو الفقار ونادية لطفي سيُعرض الاثنين القادم في سينما مترو. إنهم يقولون إنّه فيلم عالمي.

هزّت السيدة «سميرة» رجلًا فوق الأخرى لتبدو أكثر سمنة مما تركها عليه ابن أختها، ثُم نظرت نحوه سائلة:

ـ ألم تُشاهد الفيلم الذي عملوه عن ابن خالتك؟

ـ فيلم؟

ـ نعم. في بيتنا رجل.

ضحك «نجيب» بشكل مُتقطع قبل أن يُجيب:

ـ آه. رأيته العام الماضي على أسطوانة في دور عرض عربية بألمانيا، وضحكنا أنا وسناء كثيرًا، لأنّ بطل الفيلم لا علاقة له بحسين الذي نعرفه، كما أنّ عُمر الشريف بعيد الشبه عن ابن خالتي تمامًا.

شعر «حسين» بضيق شديد، وبحلق بحقدٍ إلى القادم بعد غياب، ثُم قام وهو يقول:

ـ سأستئذنك يا نجيب. عندي موعد مهم. البيت بيتك طبعًا.

ـ انتظر. هل غضبت؟

صاح بـه «نجيـب» وهـو يقـوم خلفـه، لكنـه غـادر مُسرعًـا والتجهُـم يكسـو وجهـه.

***

ثلاثـة مُسدسـات برتـا، وبُندقيـة آليـة، وخمـس قنابـل يدويـة، وأظـرف مـن الرصـاص. كانـت أول توريـدة للسـلاح تلقاهـا «حسـين» وأخفاهـا في شـقة الظاهـر تُثـير مـن القلـق في نفسـه أكـثر ممـا تبعثـه مـن الغبطـة. شـعر «حسـين» للوهلـة الأولى أنَّ تلـك الأسـلحة تُمثـل لا شيء أمـام جهـاز بوليـس يمتلـك كُل أنـواع الأسـلحة، وقـوات مُسـلحة لديهـا دبابـات ومدرعـات ومدافـع وصواريـخ وطائـرات، وأجهـزة اسـتخبارات لهـا صلاحيـات مُطلقـة في التحـري والاسـتجواب، ونظـام حُكـم يوجـه صحافـة وتليفزيـون وإذاعـة لصالحـه واصمـة خصومـه بالخيانة والفسـاد. كمـا أنَّ شُـحنة الأسـلحة البسـيطة كلفتهـم نحـو ثلاثمائـة جنيـه، وهـو مـا يـوازي راتبـه الـذي يصفـه كثيرون بأنَّـه كبير في ثلاثـة أشـهر. أمـا أكـثر مـا أزعـج الأوتـار العصبيـة «لحسـين» فكانـت تلـك المُشـادات الحـادة الـتي كانـت تظهـر بـين الحـين والحـين مـع «سُـعاد» المُتجهمـة دائمًـا. في آخـر خناقـة قالـت لـه إنَّهـا تعلـم أنَّـه يُدبـر أمـرًا مـا وأنَّـه يُعرضهـا ويُعـرض ابنتيـه مـرة ثانيـة للخطـر. كان أكـثر مـا أوجعـه قولهـا:

ـــ يـا حسـين. أنـت حُـر في حياتـك، حُـر في أن تفعـل بهـا مـا تشـاء. تكـره، تحـب، تـضرب أو حـتى تقتـل، لكـن أنـت لسـت حُـرًا في تدميرنـا وإلصـاق الأذى ببنتـين لـم يفعـلا شـيئًا لأحـد.

لقد ضربته «سُعاد» بسيفٍ بتار عندما ذكَّرته بـ«خالد» قائلة:

ـــ لقـد خسرنـا ابننـا الأول بسـبب عـدم وجـود رعايـة، ومـات عـلى حِجر غـيري لأنَّـني كُنـت مكلومـة في زوجـي أجـري يمينًـا ويسـارًا بحثًـا عـن مخرج لورطتـه الـتي صنعها بنفسـه.

ردَّ «حسين» بغضب:

ــ إنني كُنت أجاهد من أجل ابني وأبناء سوريا ليجدوا مناخًا آمنًا وحياة كريمة. لقد كُنت أحارب الطاغية الذي طرده السوريون شرَّ طردة، وها هو انتهى به الحال قتيلًا في بلاد غريبة.

علا صوتها كثيرًا، وهي تقول:

ــ لم يُعينك أحدٌ وكيلًا لله في تخليص العالم من الأشرار. إنَّهم لن ينتهوا. كُلما مات طاغية أو خائن جاء خلفه ألف طاغية وخائن. تلك هي طبيعة البشرية. أفق يا حسين من وهم يد العدالة.

فكَّر «حسين» بجلاء في جدوى ما يفعل هو وأصدقاؤه الثلاثة. شُحنة أسلحة محدودة القدرات ماذا تفعل وسط غابة الشر، حتى لو تضاعفت؟ ماذا لو نجح في قتل «عبدالناصر»؟ هل يضمن أن يأتي خلفه أحد من رجال الله الأنقياء الصالحين الذين يُحققون ما يريد؟ «عبدالحكيم عامر» مثلًا بصرامته وقدراته المحدودة، أم «السادات» بمكره وخداعه؟ وما الذي يعني نجاحه في قتل «علي صبري» أو السفير الأمريكي؟ سيتغيرون بآخرين ربما أسوأ أو أشد بطشًا. ألم يقتل الإخوان «النقراشي باشا» لأنَّه أصدر قرارًا بحلّ الجماعة؟ ماذا جرى بعد ذلك؟ ألم يأت «إبراهيم عبدالهادي» ليفتح معتقلاته وسجونه ويسحق الإخوان ويقتل مرشدهم ويُشرد عائلاتهم؟ ليس بعد الشر خير، ولا يعني رحيل القُبحاء أن يعود الحُسن. شعر أنَّ «سُعاد» مُحقَّة في كثير مما تقول، وأنَّه تحول إلى مفرخة كراهية، ومصنع حقد، وأنَّ التفكير العقلاني هجره إلى حيث لا يدري. قال لنفسه إنَّ حياة ابن خالته «نجيب» على ما فيها من هزل وضحك ولهو وحب هي حياة رائقة، يكفي أنَّه اقترن بسناء الرومانسية الرقيقة التي سبق أن خطفت قلبه. أما هو فقد بدد كثيرا من السنوات في القتل الخطأ، التفجير للغير، والركض خلف البطولات الوهمية. لقد قتل «أمين عُثمان» قبل ثمانية عشر عامًا، وقبض آخرون ثمن

العمليـة، فأُعيـد «السـادات» للجيـش، ونُـزع مـن الوفـد أحـد مخالبـه في صراعـه مـع الـسراي لتصعـد جمعيـة سريـة محـدودة القـدرات وتسـتولي عـلى الحُكـم، حُكـم مـصر، أمـا هـو فظـل مُطـاردًا مُشردًا خـارج القطـر كُلـه. وفي الشـام حـارب وفجّـر وقتـل يهـودا وأجانـب بحثًـا عـن بطولـة حقيقيـة، لكنّ عملياتـه وعمليـات زُملائـه نُسـبت جميعًـا إلى كتائـب الفـداء العـربي وشـلة جـورج حبـش دون ذكـر لتضحياتـه، ثُـم أطلـق الرصـاص عـلى الشيشـكلي ليكسـب رجـل المخابـرات الـسري وتيـارات المُعارضـة والـدروز ويقـضي هـو سـبع سـنوات مُنتظـرا المـوت في أي لحظـة. أي خُطـى مُتعرجـة تخطوهـا قدمـاه؟ وأي دروب ضـلال يمـضي فيهـا دون وعـي أو تأمـل أو تدبـر؟ صدقـت «سُـعاد»، فمـا يريـد أن يفعلـه لـن يُصلـح الكـون، وسـيمضي الأشرار ليـأتي غيرهـم أشـد شرًا، وأكـثر اسـتبدادًا.

فتـح الراديـو ليُتابـع تفاصيـل خـبر اغتيـال «أديـب الشيشـكلي» في برازيليـا، وسـمع مـا نقلتـه نـشرة الأخبـار مـن أنّـه تـم اسـتلام جُثمـان العقيـد الراحـل «أديـب الشيشـكلي»، ولفّـه بعلـم سـوريا تمهيـدًا لنقلـه لسـوريا لدفنـه بمدينـة حمـاة في مدافـن عائلتـه. كان رجُـلا دُرزيًـا يُدعـى «نـواف غزالـة» قـد قُبـض عليـه واعـترف بأنـه أطلـق الرصـاص عـلى «الشيشـكلي» في مزرعتـه انتقامًـا مـن قيامـه بقتـل عائلتـه في جبـل الـدروز، ومـن المُقـرر أن تُقـام جنـازة عسـكرية للرئيـس الراحـل.

ابتسـم «حسـين» وقـال لنفسـه: قتلـوه بعـد أن صـار يسـتحق الشـفقة. لا طعـم لذلـك. لا بطولـة ولا يحزنـون. لا مُتعـة في القتـل السـهل، في عمليـات اللاتخطيـط، في الوصـول للهـدف دون مشـقة، في اللامواجهـة عنـد اصطيـاد الفرائـس الكسـيحة.

سـمع طرقًـا شـديدًا عـلى البـاب، فزعـت زوجتـه، وهرولـت قادمـة مـن غُرفتهـا، وقـام هـو بـبروده المُعتـاد ليفتـح. برقـت عينـاه عندمـا رأى أمامـه ملابـس سـوداء ووجوهًـا كالحـة يعرفهـا جيـدًا. صـاح فيهـم سـائلًا:

ـ من أنتم؟ وماذا تريدون؟

ـ نحن من المباحث الجنائية. أنت مُتهم بالتخطيط لقلب نظام الحُكم. فتشوا الشقة.

***

صفعة، صفعتان، ثلاث. لم يُصدّق أنَّ تلك الأصابع الغليظة لامست خديه. كيف سمحوا لهؤلاء الأجلاف أن يُهينوه؟ فكّر «حسين» وهو مُلقى على أرض أسمنتية صلبة في غُرفة مُظلمة، وهو يستثير حواسه على الاستيقاظ من ذلك الكابوس المُفزع. كيف مرَّ على صفَّين من البشر، لا من الأوغاد ليتلقى ركلاتهم في جنبيه وفخذيه ومؤخرته؟ ثُم كيف تلقى سبابًا لم يسمعه في عُمره؟ وكيف لم يستطع أن يرُد على وصم أمه بالعاهرة عدة مرات مُذ أُنزل من سيارة الشرطة حتى وصل إلى زنزانته؟

صرخات تتعالى حوله، وشرر يتناثر من عيون المُخبرين والعساكر يُنبئه أنَّ القادم أسوأ مما تخيل يومًا. قال لنفسه إنّه لم يرتكب خطأ ولم يُطلق رصاصة، وأنَّ كُل ما فكر فيه لم يتجاوز مرحلة التفكير، وهو ما يعني أنّه لا جريمة. بريء، غير مُذنب. هل يُحاسب القانون في مصر أحدًا على النوايا؟ سأل نفسه مُقررًا أنه اتخذ قرارًا بالعدول عن أفكاره امتثالًا لنصيحة زوجته الحبيبة التي تعتبره هو وابنتيه دُنياها كُلها. لقد اقتنع أخيرًا أنّه لن يُصلح الكون، ولن يُنهي وجود الأشرار، ولن يُحقق العدالة، لأنَّ طبيعة البشر تقتضي وجود ظُلم وضلال وفساد وقهر إلى يوم القيامة. لقد حاول قبل سنوات قتل «أديب الشيشكلي»، وهو في أوج قوته وأخطأته رصاصاته، لكنَّ يد القدر كانت تحتفظ للرجل بميتة أكثر إيلامًا وهو وحيد منفي بلا حولٍ ولا قوة.

لمس بكفه سائلًا ساخنًا فوق شاربه ليكتشف أنَّ ضربات الأيدي

الغليظة جرحت شفتيه. لعق الدم النازف، وجلس مُستندًا إلى الحائط ليسمع تأوهات مكتومة مُتسللة عبر قُضبان الباب الأسود. قاس بنظراته مساحة الزنزانة فوجدها أقل كثيرًا من غُرف الحبس الاحتياطي التي سُجن فيها في سوريا، وقال لنفسه إنَّه كُلما مر الزمن تضيق الزنازين على ساكنيها. فكَّر فيمن وشى به، مُتذكرًا أنَّه لا أحد يعرف بأمر التنظيم سوى «عبدالقادر»، و«سعيد»، و«مدحت»، وأنَّه حتى «أحمد قبودان» لا يعرف شيئًا عن تفاصيل التنظيم. هل هُناك خيانة جديدة من أولئك الذين أودعهم كامل ثقته؟ وهل يتكرر «نوار» الفلسطيني؟ أم هي السذاجة التي تدفعه دفعًا أن يثق بالناس بسرعة؟ فكَّر في «سُعاد»، وشعر بلسع دمعها، وهو ينزلق فوق وجهه. ستتوجع ألمًا وستظُن أنَّه لم يلتفت لنصائحها، ولم يُفكر في مخاوفها. قرر أنها لو زارته، فسيُخبرها أنه بريء تمامًا هذه المرة، لم يقتل ولم يجرح ولم يُطلق رصاصة واحدة.

ساعات مرَّت دون استدعاء. تركوه مُكومًا بين النُعاس، والصحو ككمٍ مُهمل. مثل ذلك الباب الأسود المُصمت الشاهد على مآسٍ وأنات مُعذَّبين ومظاليم كُثر. اقترب من القضبان، لكنه لم ير سوى الجدار الصامت، وأبواب بعض الزنزانات الأُخرى التي قدَّر أنَّها مليئة، عندما حمل إليه الهواء روائح شتى لبشر آخرين يجمعهم الخوف، الذي اعتاد شمه عند كثير من الناس. بدأ العطش يغزو روحه، وانتابه صُداع خفيف، وشعر بالضيق ألا يجد في جيبه سيجارة واحدة، وأحس أن نقص النيكوتين في شرايينه يدفعه دفعًا نحو الجنون. لو سألوه عن نواياه سيُنكر كُل شيء، وسيقول إنَّه مُختلف مع «عبدالناصر» في نظام حُكمه، لكنَّه لا يُمكن أن يقتله، لأنَّ الثوار لا يقتلون الثوار. سيحكي لهم عن بطولاته ضد الإنجليز واليهود والخونة، وسيخبرهم أنَّه كان شريكًا لـ«أنور السادات» في اغتيال «أمين عثمان». سيؤكد لهم أنَّه البطل الحقيقي لفيلم «في بيتنا رجل» وأنَّ المشير «عبدالحكيم عامر» وظَّفه في شركة «شل» للبترول التي

تمصرت وأصبح اسمها الآن «مصر للبترول». تخيل نفسه جالسًا أمام المُحققين، وهم يعتذرون له في أدب جم بعد أن خطب فيهم قائلًا: «أنا أول من ثار على الملك، أول من قتل الإنجليز، أنا عدو الأحزاب، وخصم الإقطاع، ونصير الفقراء. أنا الاشتراكي الحقيقي، والقومي الأصيل، والعروبي المثال».

غفا قليلًا أو كثيرًا لم يُحدد. بانت له «ميمي» بقميص فاتن، قبلته في بشبق، قبل أن تخلع عنه قميصه. بدا مُترفعًا وصامدًا لا يصُد أو يرُد، لكنَّ أصابعها واصلت تجوالها فوق جلده، ليشعر برعشات مُمتعة تسري في كل أنحاء جسده. اشتم عطرها فواحًا، وهبطت جدائل شعرها فوق وجهه، وانتابته رغبة عارمة في تقبيلها، لكنَّ صوت والده صك أذنيه وهو يصرخ فيه قائلًا: «أنت فاشل. فاشل. فاشل يا ولد».

ركلته قدم غليظة، وسمع مَن يُناديه بوصف يخجل أن يسمعه عن أمه، ورأى رجُلا طويلًا، واسع الصدر، يسحبه سحبًا من معصمه، ليقف على نصف رجل، ثُم يتقبَّل ركلة بين فخذيه يسقط على إثرها، ويقوم مرة أخرى مُستجيبًا، مُسيرًا، مذعورًا، مدفوعًا إلى الخارج، ثُم إلى غُرفة المُحقق. تضاعف ذُعره، وهو يرى بقايا وجه «عبدالقادر»، عندما كان يجرّه على الأرض مارد آخر ليُخرجه من غُرفة التحقيق إلى زنزانته.

***

حبست «شعاده» أوجاعها في قلبها وكتمت جراح روحها، وهي تجلس أمام «أحمد الناحي» المُحامي في مكتبه المُطل على مشهد السيدة زينب. كان الشيب قد غزا الرأس العجوز، وبدت تجاعيد السبعينيات تجد طريقها إلى وجهه، وعرفت أصابعه ارتعاشات التقدم في السن.

قال لها المُحامي الكبير وهو يُقلب أوراق ملف أمامه:

ـ يا بنتي هذه المرة الأمر يختلف. حسين الآن مُتهم بالتخطيط لقلب نظام الحُكم، وقد اعترف بشكل تفصيلي وأرشد المباحث على مخزن للسلاح في الظاهر، كذلك فقد اعترف شقيقه سعيد، وابن خالته مدحت، وصديقه عبدالقادر. جميعهم اعترفوا بأنَّه كان يقودهم بالفعل لتنفيذ عمليات اغتيال لعدد من المسئولين أولهم الرئيس عبدالناصر، وآخرهم السفير الأمريكي في القاهرة. والخطير في الأمر أنَّ المباحث الجنائية قبضت على تنظيم آخر للإخوان لقلب نظام الحُكم، وأتصور أنَّ الرد من جانب الدولة سيكون حاسمًا لكلا الطرفين، لذا فقد تم تحويل القضية إلى قاض عسكري اسمه فؤاد الدجوي لا يعرف الرحمة، ولا يقبل الأعذار. إنَّه فقط يقرأ الأحكام التي تأتي إليه من القيادة العامة.

وأضاف هامسًا:

ـ ربما من عبدالناصر نفسه.

انسكبت دمعات ساخنة من عينين بدتا متورمتين من كثرة البُكاء، لتسأل «سُعاد»:

ـ يا أستاذ أحمد. هل قرأت تفاصيل القضية جيدا؟ ألا تجد ثغرات يُمكن تخفيف الحُكم من خلالها؟ أنا أعرف أنك أفضل محامٍ في البلد، وأنك أنقذت حسين مرتين من قبل.

هزَّ الرجل رأسه في تأثر، وقال:

ـ قرأت القضية كلمة كلمة. وأعرف أنَّ حسين لم يرتكب شيئًا بعد، لكنَّهم ضبطوا لديه أسلحة وهو اعترف بأنه كان ينتوي اغتيال الرئيس. أعتقد أن القصة شبه مُغلقة، وكُل ما يُمكنني فعله هو إعادة تقديم الشهادات الطبية التي تفيد اختلال القوى العقلية لحسين.

ـ لا.

صاحت «سُعاد»، مُضيفة:

ــ إنَّ ذلـك الأمـر يقتلـه قتـلًا. حسـين ليـس مجنونًـا. إنـه يقـول لي أنـه لـم يـؤذ أحـدًا هـذه المـرة. وأنَّـه لا يوجـد قانـون يُحاسـب عـلى النوايـا.

ابتسم المُحامي الكبير ابتسامة باهتة، ثُمَّ قال:

ــ مَـن قـال ذلـك؟ القانـون يُحاسـب عـلى النوايـا إذا تـم إعلانهـا. وفي الوقـت الحـالي فإنـه يحاسـب عـلى النوايـا حـتى لـو تـم إخفاؤهـا. اسـمعي يـا بنـتي.

هزَّت رأسها مُستقبلة لكلماته، فواصل:

ــ لقـد اشـترى حسـين أسـلحة مـن الإسـكندرية مـن سـائق مُجنـد اسـمه محمـود الشيشـيني، وهـو الـذي وشى بمدحـت بعـد أن سـلمه السـلاح. ومـا جـرى بعـد ذلـك هـو أنَّ مدحـت وشى ببـاق المتهمـين ومنهـم حسـين تحـت تأثـير الـضرب المُـبرح. ولا شيء الآن يُمكـن عملـه سـوى التمـاس العفـو، واعتبـار حسـين شـاهد ملـك لأنـه أدلى ببيانـات ومعلومـات قـادت إلى تنظيـم الإخـوان المُسـلح واعـترف عـلى أحمـد قبـودان ومصطفـى راغـب، اللذيـن كشـفا أنَّ قائـد التنظيـم الإخـواني هـو سـيد قطـب نفسـه. وأتصـور أنَّ هـذا هـو الطريـق الوحيـد، أن نؤكـد نوايـا حسـين الوطنيـة، وندمـه عـلى مـا جـرى، وكشـفه لأخطـر مجموعـة إخوانيـة تسـتهدف قلـب النظـام.

ـ هل يُمكن أن نستعين بأحد؟

سألت «سُعاد»، فهزَّ «أحمد الناحي» رأسه قائلًا:

ــ لا أفهم.

فكررت:

ـ هل أذهب إلى السيد أنور السادات؟

ــ رئيس مجلس الأمة؟

ــ نعم.

هزَّ المحامي رأسه مُبتسمًا، وقال:

ـ القضية القديمة. أليس كذلك؟

ـ نعم. لقد كان...

قاطعها بحزم:

ـــ أعـرف مـا كان. لكـن اسـمعي جيـدًا. لا تحـاولي ولا تُفكـري في هـذا الرجـل أبـدًا. إنَّـه لـن يُقابلـك، وسـيعتبرك خطـرا عليـه، وربمـا يعتـبر حسـين يحـاول إحراجـه أمـام الرئيـس عبدالنـاصر. وربمـا يـؤدي ذلـك إلى آثـار سـيئة. ربمـا يضغـط للحكـم بالإعـدام، أو أي شيء آخـر. مـن الأفضـل أن تنـسي هـذا الأمـر تمامًـا. مفهـوم؟

هـزَّت رأسـها بالإيجـاب، وقامـت تسـحب قدميهـا مُفكـرة فيمـا يُخبئـه القـدر لهـا. فكَّـرت أنَّ بـراءة زوجهـا هـي الأمـل الوحيـد لهـا في هـذه الدُنيـا. قبـل أيـام تعرضـت لسـيل مـن السـباب مـن خالـة زوجهـا، قبـل أن تواصـل حماتهـا وصمهـا بالبومـة، وتتهمهـا بسرقـة أمـوال «حسـين». قالـت لنفسـها إنَّهـا تحمّلـت مـا لا يتحملـه إنسـان بعـد القبـض عـلى زوجهـا، وأنَّـه في حـال صـدور حُكـم بالإدانـة سـتُغادر إلى دمشـق، ولـن ترجـع للأبـد.

***

«ومنـذ أن تفجـرت قـوى الثـورة وانطلـق الشـعب في طريـق الاسـتقلال والحريـة، واجـه حروبًـا مسـعورة مـن كل صـوب، كما واجـه أعـداء الثـورة في الداخـل الذيـن يتنمـرون أمـلًا في فرصـة تسـنح لهـم في اغتصاب السـلطة والقضـاء عـلى أبطـال الوطـن. وهـؤلاء تآمـروا لتأليـب الرجعيـة وتآمـروا لإثـارة الذعـر والتخريـب في الجبهـة الداخليـة، غـير أنَّ إيمـان الشـعب بالأهـداف الـتي رسـمتها الثـورة جعلهـا تخطـو في ثبـات إلى الأمـام». كان

مُمثـل النيابـة يخطُـب في حمـاس وعينـاه تبثـان حقـدًا صـوب عـدد مـن الرجـال الواقفـين في القفـص، بينمـا كان «حسـين» بينهـم يضحـك في أعماقـه عـلى بلاغـة وكيـل النيابـة، ونفاقـه، وانتهازيتـه.

في قـرارة نفسـه كان «حسـين» موقنًـا أنَّ الحُكـم صـدر مُنـذ شـهور، وأنَّ كُل مـا يـدور مُجـرد تمثيليـة سـخيفة لوضـع إطـار شـكلي لقـرار حبسـه. أزعجـه أن يتحـدث المُحامـي مـرارًا عـن اضطـراب شـخصيته وعـن إصابتـه بمشـكلة عصبيـة نتيجـة مـرض ضرب شـبكية عينـه عندمـا كان صغـيرًا. ودَّ لـو يتكلـم، ويـرُد كلام ذلـك الواهـن الـذي لا يسـتطيع أن يدافـع عـن أحـد سـوى مـن خـلال وصمـه بالجنـون. رمـى نظـرة اسـتفهام نحـو والدتـه، ليقـرأ في عينيهـا صلابـة وقـوة اكتسـبتها عـبر السـنين، ونظـر إلى زوجتـه فوجدهـا مُنكسـرة، دامعـة العينـين، فقـدَّر أنَّ حُزنهـا ينصـب أولًا عـلى الصغيرتـين «كوثـر» و«وفـاء» لأنهمـا حُرمتـا عائلهما ووالدهمـا فجأة. قـال في تسـليم إنَّـه لـم يمنحهمـا مـا تسـتحقانه مـن عنايـة واهتمـام.

واصـل ممثـل النيابـة خطابـه قائـلا: «إنَّ القضيـة المعروضـة عـلى حضراتكـم اليـوم ليسـت قضيـة حسـين توفيـق ورفاقـه فحسـب، بقـدر مـا هـي قضيـة شـعب بـأسره.. صنـع ثورتـه الـتي حققـت لـه رصيـدًا متجـددًا مـن المكاسـب والانتصـارات، وهـو اليـوم يناشـدكم القصـاص مـن هـذه العصبـة الآثمـة الـتي تريـد أن تنقـض عـلى مكاسـبه، وتقـوض دعائـم ثورتـه. لقـد كانـوا يسـعون مـن جحورهـم إلى بلبلـة الأفـكار، وإحـداث فتنـة داميـة في البـلاد، كانـت سـتصيبه في الصميـم لـولا عنايـة اللـه، ويقظـة القائمـين عـلى الأمـر. ولـولا الإيمـان المتأصـل في الشـعب بثورتـه وقائـده».

ابتسـم «حسـين» سـاخرًا وهـو يُـردد في سره «الآن صـارت قضيـة حسـين ورفاقـه هـي قضيـة الشـعب بـأسره. آه أيهـا الشـعب المسـكين. كـم مـن الطُغـاة يتحدثـون باسـمك». فكَّـر في كلام الرجـل وتسـاءل: كيـف يُغـير النـاس المُسـميات بـكل هـذه السـهولة؟ كيـف يعتـدون عـلى الذاكـرة

بهذه البساطة؟ لقد تغير اسم الانقلاب العسكري إلى حركة مُباركة، ثُم أصبح الآن ثورة. استمع للمُحامين عن زُملائه واحدا تلو الآخر. قالوا كلامًا مُكررا، كُله ذُل واستعطاف. نظر إلى القاضي، وقرأ في عينيه الحُكم قبل أن ينطق به. قال لنفسه إن سيادة القاضي الفريق أول عرفه الناس مُنهزمًا في حرب السويس سنة 56 عندما استسلم كحاكم على غزة للإسرائيليين، قرأ في وجهه أنَّ الحُكم أن يُسجن مؤبدًا، لأنَّ «عبدالناصر» سيمنحه أعلى عقوبة ليستريح من خطره في الوقت نفسه فإنه لا يُمكن أن يأمر بإعدامه، خاصة أنَّه لم يُطلق رصاصة واحدة. وقدَّر أنَّ «عبدالقادر» و«مدحت» و«سعيد» سيلحقون به، وربما يُحكم على «محمود موسى» الضابط السابق بالسجن ثلاث أو خمس سنوات، وسيخرج «سيد» براءة لأنَّه دخل القضية خطأ بعد أن وجد رجال المباحث اسمه في أوراق «سعيد» الخاصة.

تذكر كيف عُلِّق يومين مُتتاليين من معصميه ليقر بأسماء كُل مَن يعرف شيئا عن التنظيم، ثُم حرموه من الماء والسجائر عدة أيام حتى باح لهم بنواياه وخططه وأفكاره بطريقة مُرتبة. ووصل به الأمر أن شرح لهم طريقة تصنيع الديناميت التي عرفها في سوريا من خلال تحضير مادة النيتروجلسرين وتجهيزها يدويًا. ابتسم عندما لمح أحد زُملائه بالشركة ضمن الحضور، وقال لنفسه إنَّه لابد جاء للفُرجة.

نطق القاضي العسكري بالحُكم، وخُيِّل له أنَّه لم يسمعه، لكنه لمح دموعًا مُنحدرة على خدي «سُعاد»، وسمع نحيبها، بينما لاحت ابتسامة تشف على شفتي زميله، الذي لم يعُد يذكر اسمه. ابتسم ساخرًا، ثُم سار صامتًا بين بقية المتهمين، بينما شلَّ الوجوم ملامح «سعيد» و«مدحت» و«عبدالقادر». ومضى هو في لامبالاة نحو عقوبة لجُرم لم يرتكبه.

***

قالت «سُعاد» لـ«فاطمة» إنَّها لا تستطيع البقاء بابنتيها في هذه الظروف، وأنَّها قررت السفر إلى دمشق للعيش هُناك. كانت صريحة وواضحة، وهي تُخبر شقيقتها أنَّها لم تعُد تُبادل «حسين» أي مشاعر محبة، بعد أن شعرت أنه مسئول عما وصل إليه. أكدت لـ«فاطمة» أيضا أنَّ نظرات الكراهية والحقد المُنبعثة من عيني حماتها قد تُصيب البنتين بالجنون والتطرف والحدة الشبيهة لتلك الساكنة برأس «حسين». قبّلت أختها المودعة بعد أن حزمت حقائبها، وسافرت مُقسمة أنَّها لن ترجع إلى هذا البلد أبدًا. لن تطلب الطلاق، لكنَّها لن تعود لزوجها الذي منحته حُبًّا فأجابها جفاءً، وأعطته قلبها، فمنعها حُبه، وقدمت له الطاعة، فأبى أن يُهيئ لها الراحة والطمأنينة. ستعيش في شقة أبيها الصغيرة بحي الصالحية إلى جوار ضريح مُحيي الدين بن عربي، وستعمل أي عمل بسيط يضمن لها لُقمة شريفة وحياة هادئة، وتربية سليمة لزهرتين جميلتين. اقتنعت سعاد نهائيا بأنه لا مجد في القمم، ولا مُتعة في التفاعل مع الأحداث كما كان يُردد «حسين» على الدوام، وأنه ليس أجمل من ابتسامة بنت صغيرة وهي تحاول نُطق الكلمات الصعبة، ليس أجمل من شفتين رقيقتين تنطقان كلمة «ماما».

في دمشق طاردها الخوف في ظل الاضطراب الدائم المُصاحب للانقلابات العسكرية التي صارت عنوانًا لافتا للبلاد. سعت «سُعاد» بعد التحاقها بوظيفة ملاحظة عاملات بأحد مصانع الملابس أن تُجنّب بناتها أحاديث السياسة وحكايات الزميلات عن الصراعات الشرسة بين الإخوان والبعثيين. وبعد شهور قليلة من وصولها وقطعها لكل الصلات بالقاهرة قامت حركة مُباغتة من بعض العسكريين لتستولي على الحُكم وتتهم البعثيين بالتآمر وتسجن عددا منهم. وشعرت «سُعاد» لأول مرة بصحة ما كان يراه شقيقها «عاصي» في بلاد العرب وفي حُكوماتهم وحتى في «حسين» نفسه. قالت لنفسها يومًا إنَّ انقطاع شقيقها عنها طال كثيرًا، لكنَّها تعرف كيف تصل إليه، كيف تُراسله،

وتُحادثـه، ثُـم تلتقيـه، وتحتضنـه. تذكـرت أنَّ لـه صديقًـا مُقربًـا يعمـل في سـوق الحميديـة وقـدرت أنّـه لابـد مـا زال عـلى اتصـال بـه، لـذا فقـد مـرّت عليـه يومـا لتسـأله، فبـدا سـعيدًا برؤيتهـا، واسـتفسر عـن أحوالهـا وأحـوال أسرتهـا، فطمأنتـه، وفاجأهـا قولـه إنَّ «عـاصي» اختفـى تمامًـا عندمـا سـافر بصُحبـة فتـاة فرنسـية مـن لبنـان إلى فرنسـا قبـل ثـلاث سـنوات، وأنـه لـم يعـد يتصـل بـه أو يبعـث إليـه بـأي رسـائل. وبعـد أن غـادرت قليـلًا جـرى خلفهـا ليلحـق بهـا وهـو يقـول «إنَّ عـاصي لابـد سـيتصل بـه يومًـا ولابـد سـيعود إلى دمشـق».

ولسـنوات طالـت نجحـت «سُـعاد» في التكيّـف مـع الوحـدة، والاعتمـاد عـلى الـذات، وأغلقـت نوافـذ المـاضي ناسـية أحـزان القاهـرة، وراسـمة لابنتيهـا طريقًـا للتميـز والتعلّـم والتربيـة الرشـيدة، بعيـدًا عـن كُل مـا يُعكـر صفـو الحيـاة، لكـن «عـاصي» لـم يعُـد، ولـم تُخبرهـا «فاطمـة » بخـروج والـد طفلتيهـا في عفـو رئـاسي في أي مـن أعيـاد الثـورة.

***

تأقلـم «حسـين» سريعًـا عـلى حيـاة السـجن، اعتـاد الاسـتيقاظ مُبكـرًا، والوقـوف في طابـور الصبـاح ثـم الخـروج إلى الجبـل، وتكسـير الحجـارة. كان الأمـر يتـم في البدايـة تحـت ضربـات الشـوم وسـباب النُّزلاء بـالأب والأم، ثُـم تحسـن الأمـر رويـدًا مـع قـدوم مأمـور جديـد أكـثر إنسـانية، إذ أوقـف الـضرب واكتفـى بالشـتائم. وصـار أكـثر مـا يوجـع «حسـين» حينئـذ هُتافـه اليومـي بحيـاة البـلاد وبحيـاة قائدهـا وزعيمهـا «جمـال عبدالنـاصر»، فضـلًا عـن ترديـده لأناشـيد «اللـه أكـبر فـوق كيـد المُعتـدي» و«وطـني حبيـبي» مـرارًا أمـام الحـرس والضبـاط. كان الطعـام يسـمونه «اليمـك» عبـارة عـن خليـط عجيـب مـن الحسـاء والخـضروات الكاملـة الـتي يتجرّعهـا المُذنبـون كرهًـا لسـد الجـوع، بينمـا تميَّز الفـول

المُقـدم في وجبـة الإفطـار بكـثرة السـوس، وهـو مـا اعتادتـه معـدات سُـجناء السياسـة سريعًـا.

في العنـبر تكـوّم «حسـين» مـع ثلاثـين سـجينًا، إخـوان، وشـيوعيين، ورجعيـين، وضبـاط عُصـاة، فضـلا عـن بعـض المسـاجين الجنائيـين المدانـين في قضايـا سرقـة أو احتيـال. وامتـدَّ العنـبر عـلى هيئـة مسـتطيل بطـول عـشرة أمتـار وعـرض خمسـة أمتـار، وتتخللـت جُدرانـه ثمـاني نوافـذ صغـيرة، يتـسرب مـن قضبانهـا بعـض الهـواء، بينمـا توزّعـت أبـراش الـنُزلاء في صفـين بطـول العنـبر.

طـرد «حسـين» مـن رأسـه أي أفـكار كانـت تـراوده حـول الهـرب، خاصـة أنَّ العُمـر امتـد، والنظـام الأمـني اختلـف، ووسـائل الحراسـة صـارت أكثر تقدمًـا. اسـتمع الرجـل لحكايـات شـتى مـن سُـجناء مُجرمـين، ومظاليـم، بعضهـا أوجـع قلبـه، والبعـض الآخـر هـوّن عليـه مـا يحيـاه. قـصَّ عليـه البعـض كيـف كانـوا يُضربـون كُل يـوم قبـل الإفطـار، ويُدفعـون دفعـا للاعـتراف بنسـويتهم ليقـول كلا منهـم «أنـا امـرأة» أمـام الشـاويش كي لا يُشـبعه ضربًـا.

ـ تحسنت الأحوال كثيرا.

قالهـا أحـد السُـجناء لـ«حسـين» عندمـا كان يشـكو مـن غبـاء الحُـراس وسـاديتهم.

كان «حسـين» يقـول لمَـن حولـه إنَّـه يدفـع هـذه المـرة ثمـن أفعـال سـابقة، وأنَّـه ضحيـة غـدر الذيـن اختطفـوا ثورتـه. في يـوم قابـل مُدرسـا وفديـا مُسـنا قُبـض عليـه بتهمـة السـير في جنـازة «مُصطفـى النحـاس»، وسـأله الرجـل إن كان حـاول بالفعـل قتـل النحـاس باشـا قبـل «أمـين عُثمـان»، فـردَّ «حسـين» بالإيجـاب، لكنـه حمـد اللـه عـلى فشـل المحاولـة، مؤكـدًا أنَّ «النحـاس باشـا» رغـم مـا لديـه مـن مكـر وبلاغـة أشرف كثـيرًا مـن هـؤلاء الذيـن يُعلقـون زُملاءهـم في السـلاح، ويضربـون أصدقاءهـم ويسـومونهم سـوء العـذاب.

واستمع «حسين» من بعض السُجناء لحكاية موت «شُهدي عطية» ضربًا وهو يهتف بحياة «جمال عبدالناصر»، وكان الحاكي مفتونًا بالزعيم وما أحدثه من تغيير اجتماعي كبير، مؤكدا أنَّه مثل «شهدي» لا يلتفت لتعرضه للظلم من القائد، مادام ذلك القائد أنصف الفقراء وبدّل أحوالهم. وردَّ «حسين» عليه بأنَّه من المُخدرين الذين يسيرون خلف تاجر الشعارات مُنسحقين بلا تفكر أو تدبر.

وحكى له سجين من الإخوان كيف تعرَّضوا للقتل في زنزاناتهم بعد خلافهم مع الثورة، حتى أنَّ عساكر ليمان طُرة كانوا يطلقون النار عليهم داخل الزنزانات، فقال له «حسين» بغل:

ــ أنتم تستحقون. تستحقون كُل ذلك وأكثر لأنَّكم قبلتم بالتحالف مع عبدالناصر ضد جميع القوى السياسية وتجاهلتم مصالح البلاد فالتفت إليكم بعد أن خلصتموه من الشيوعيين والوفديين.

كان «حسين» يشعر أنَّ خبرات السنين صبّت في رأسه قُدرة على استيعاب حوادث التاريخ وتحولاته، وفكَّر كثيرًا لو عاد به الزمن مرة أخرى لاختار دروبًا مختلفة. كان سيحب بصدق، وسيقرأ بُعمق، وسيشاهد السينما مثل «نجيب»، ويهتم بالموسيقى مثل «سناء»، وسيكمل تعليمه مثل «محمود مراد» و«إبراهيم كامل»، وسيتزوج وينشئ أسرة طيبة يمنحها عنايته ورعايته.

في السجن اقترب «حسين» أكثر من شقيقه، «سعيد»، وشعر أنَّه ضحيته لأنَّه كان دائمًا منساقًا خلفه، بلا اختيار أو قرار، ربما لأنَّه كان ينظر له دائمًا باعتباره أبًا لا أخًا أكبر. كان يراه مُرشدًا، ومُعلمًا، وجديرًا بالقيادة. لقد وجد «سعيد» في شقيقه الصاحب الأمين، والراعي المُحب القادر على استيعاب اندفاعاته، وتفهُم آلامه، خاصة أنَّ والده كان بعيدًا، مُنشغلًا، بينما كانت والدته مختلفة لأنها تركية. نفس الأمر كان ابن خالته «مدحت» الذي كان مولعًا مُنذ صغره بالمغامرات، مغرمًا بالتنقل بين المخاطر. أما «عبدالقادر»

فبدا لـ«حسين» أكثر طيبة مما كان يتخيل، واندهش كيف كان هذا التابع البسيط يقتل الإنجليز في الإسكندرية.

انقطعت الزيارات عن «حسين» وشقيقه، واستبدلت بها خطابات من الأم التي كان واضحًا اعتلال صحتها. كانت السيدة «سميرة» تحمل على «سُعاد» لأنَّها هربت بطفلتيها إلى دمشق، ومنعت البنتين من زيارة أبيهما. لقد اتهمتها سعاد» بسرقة آخر راتب له بالشركة، ثُم قامت بإرسال خطاب استعطاف إلى رئيس الجمهورية ليصرف لها معاشًا بعد قرار الفصل من الشركة. ورغم التحريض الذي توالى في خطابات الأم تجاه «سعاد»، والذي وصل إلى حد الطلب من «حسين» أن يطلقها، فإنه كان يشعر في قرارة نفسه بأنَّه أوجعها كثيرًا وأنها تحملت معه ما لا يمكن احتماله. وكان مُقتنعا تمامًا بأن قرارها بالسفر بالبنتين إلى دمشق كان أمرًا صائبًا. لم يكن يعلم أي أخبار عن «سُعاد»، لكنه كان يعرف فقط من «عبدالقادر» الذي تزوره «فاطمة» على فترات متباعدة أنَّ «سعاد» والبنتين بخير.

مرَّت السنون سريعة كعربات قطار مجري يحمل ركابه من محطة إلى أخرى. في كل وقفة يهبط البعض، ويصعد آخرون، ويواصل القطار رحلته دون عُطل أو خروج عن القضبان. أُعدم «سيد قطب» واثنان من زُملائه في القضية التي كشفت أول خيوطها اعترافات «حسين توفيق». وشعر «حسين» بمرارة أن يتسبب في شنق أحد، لكنَّه عاد واقتنع أنَّ الثورة كانت تنتوي تقديم أحد رجال الإخوان للموت، لكنَّها كانت تبحث عن مُبرر منطقي. حوكم الصحفي «مُصطفى أمين» في العام نفسه وصدر حُكم بالسجن المؤبد عليه في قضية تخابر مع أمريكا، رحل المطرب والموسيقار «محمد فوزي» موجوعًا بتأميم شركاته الفنية، ومات المؤرخ «عبدالرحمن الرافعي»، وارتكبت القوات الأمريكية مذبحة دامية في فيتنام، في الوقت الذي احتفلت فيه دور العرض المصرية بفيلم «أخطر رجل في العالم» لـ«فؤاد

المهندس» و«شويكار».

كان «حسين» يتعرف على الأنباء من خلال الدردشة مع الحرس والعساكر، الذين اعتادوا مع الوقت، وبقشيش الأهل أن يعاملوه كزعيم سياسي سابق. كانوا يأتون إليه ليستطلعوا رأيه فيما يحدث، ويسألونه كخبير عما يتوقع. ولما اضطربت الأحوال في خليج العقبة، وأصدر الرئيس «جمال عبدالناصر» قراره بسحب القوات الدولية من سيناء، قال «حسين» للعساكر إنَّ الحرب صارت وشيكة. وحتى عندما قامت الحرب، لم يشعر «حسين» بالصدمة لأنباء الهزيمة، ولم يستغرب أن تدك الطائرات الإسرائيلية مطارات مصر ومواقعها الحربية في ساعات معدودات، لكنَّه شعر بالصدمة لخروج الناس رافضين تنحي «عبدالناصر «عن الحكم، ومُهدرين عليه الفرصة للخروج من سجن النسيان. ولم تمُر أيام قليلة على الهزيمة حتى رأى السجناء كبار الضباط والمسئولين وبعض المُحققين معهم إلى جوارهم في السجن ذاته، وقتها ضحك «حسين» لأول مرة من قلبه.

***

ماتت السيدة «سميرة». «أركان حياتك تنقض واحدة خلف الأخرى». سمع «حسين» همسًا روحيًا يتردد في أذنيه، وقال إنَّه يفقد كثيرًا ممن حوله بسرعة ويسر. في الغُربة رحل الرجل المُهيب ذو الطلة الصارمة، الذي كان سندًا له رغم قسوته، وفي الحبس مات الابن قبل أن يراه زاحفًا، ودون أن يسمع منه كلمة «بابا»، ثُم فرت «سُعاد» سيدة القلب ومعها أمله الوحيد، وحسناته القليلة كوثر ووفاء، وها هي السيدة الكبيرة تُغادر، دون أن يقول لها: وداعًا.

في المرآة رأى وجهه فأنكره، غيّر الشعر المُسترسل موطنه بعد أن تبدل لونه، وبرزت العينان جحوظًا، وغامت الرؤية كثيرًا، وأحاطت

الهـالات السـوداء حدقتيـه، وتـرك الزمـن بصماتـه تجعيـدا عـلى جلـده. ظـنّ «حسـين» أنـه يُطالـع شـخصًا آخـر، لا يعرفـه، وتيقـن أنَّ قطـار العُمـر قطـع أكـثر مـن نصـف الطريـق أسرع ممـا كان يتوقـع. في السـجن علـم «حسـين» أنَّ الأيـام والسـنين مُجـرد مشـاهد للحظـات محبّـة أو كراهيـة يخفـت بريقهـا يومًـا بعـد يـوم في خلايـا الذاكـرة.

رأى في إحـدى الزيـارات «ميمـي»، فاتنـة المعـادي في زيـارة لزوجهـا. كان «محمـود مـوسى» قـد قاطعـه تمامـا مثلمـا فعـل «مصطفـى راغـب» الـذي سـيق للحبـس بـلا جريـرة. لـم يُصـدق «حسـين» عينيـه وهـو يُشـاهد كُتلـة لحـم مُنتفـخ، فقـدت كل معـاني الرقـة والجمـال. كانـت السـيدة السـمينة تُغطـي رأسـها بطاقيـة مـن الصـوف، بينمـا أُخفـت عينيهـا بنظارتـين سـوداوين، وبـدت ملابسـها ضيقـة عـلى جسـد فقـد امتشـاقه. هـل هـذه ميمـي؟ سـأل نفسـه قبـل أن تمنحـه نظـرة احتقـار، تعاطفًـا مـع شـعور طـاغ لـدى زوجهـا بالكراهيـة تجاهـه جـزاء وشـيه بـه، وسـحبه معـه إلى السـجن. تذكـر أيامًـا خلـت كان فيهـا فارسـها، وفتاهـا، ومـلاذ رضاهـا. وقتهـا، كانـت تحتضنـه بحـب، وتُقبلـه بشـوق، وتبثـه لوعتهـا ولهفتهـا، كانـت تسـتمع لـكل مـا يبـوح بـه، وتُثـني عـلى مـا يقولـه، وتُوافقـه في الـرأي، وتشـاركه في الآمـال والأمنيـات. أمـا الآن، فهـي تلومـه دون أن تنطـق، وتعاتبـه بعـدم الاكـتراث، وتنتقـم منـه بالتجاهـل. كأنـه لا شيء. لا شيء البتـة. لـم تعـد «ميمـي» «ميمـي»، لـم تعـد البنـت الفاتنـة، المبهـرة، الجذّابـة. لقـد تحولـت مـع الزمـن إلى بقايـا أنـثى.

مثلهـا في ظنِّـه مثـل «سـناء» الـتي قالـت لخالتـه في زيـارة أخـيرة بصحبـة ابـن خالتـه وزوجهـا «نجيـب» أنَّهـا تُشـفق عـلى «حسـين» لأنَّـه اعتـاد أن يـؤذي نفسـه، قبـل أن يـؤذي مَـن هـم حولـه. اغتـاظ أن يسـمع ذلـك، فهـو لا يقبـل شـفقة شـافق أو عطـف عاطـف. إنَّ أقـصى مـا يُمكـن أن يُعـذّب بـه رجـل هـو أن تُشـعره بالضعـف، والصَّغـار، أن تُفتتـه إلى جُزيئـات صغـيرة، أن تُحولـه إلى كائـن يحتـاج المُسـاعدة، أن يخـاف، أن

يقلـق، أن يبـكي. «لـن أفعلها حـتى المـوت. لـن أبـكي يـا سـناء. ولا أريـد شـفقتك» قالهـا مـرارًا، وهـو يتلقـى ضربـات القـدر واحـدة تلـو أخـرى.

كان مَـن حولـه مثلـه، ينقلبـون مـن الغبطـة إلى الانقبـاض، ويمضـون أيامهـم بـين النـدم والـسرور. «سـعيد» كان يشـعر بأنّـه خـسر كُل شيء، بينمـا كان «مدحـت» يعتـبر مـا جـرى لـه أشـبه بكبـوة جـواد لابـد سـيقوم منهـا. أمـا «عبدالقـادر» فـكان صامتًـا كحجـر، يؤسًـا كصحـراء، لا يُبـدي أسـفًا، ولا يشـارك بـرأي، ولا يكـترث لخـبر.

مـات «جمـال عبدالنـاصر» فجـأة. اختنـق القلـب المُتخـم بهمومـه، ذُبح بـردًا بسـيف الظـروف والحـوادث والنكسـات. بـكاه النـاس عطفًـا، وبـكاه آخـرون حُبًـا، وشـمت شـامتون ومـا أكثرهـم، كان مـن بينهـم السـجين رقـم 1135 الـذي أسـمته الصُحـف بالإرهـابي «حسـين توفيـق»، ونـشرت عنـه الأكاذيـب حـول مؤامراتـه وتحالفـه مـع أعـداء الوطـن. أي وطـن يتحـدث عنـه هـؤلاء الكذبـة الذيـن اختطفـوا الثـورة وخـدروا النـاس وسـلبوا الممتلـكات وحـازوا النفـوذ! أي بلـد صـار فيـه الكذبـة حُكامًـا، والقتلـة رجـال أمـن، واللصـوص بُنـاة مجـده! أي إرهـاب أصعـب مـن إلقـاء زُمـلاء النضـال في السـجن وتخوينهـم وتشـويههم وإلصـاق كل خطيئـة بهـم! هكـذا تسـاءل وهـو يُفكـر في وميـض الأمـل عندمـا علـم بتـولي «أنـور السـادات» رئاسـة الجمهوريـة.

***

«سيادة الرئيس..

أكتـب إليـك رسـالتي الثالثـة. مـن جـوف بـئر يوسـف الـذي ألقيـت فيـه ظُلمـا وافـتراء، في ظـل سـيادة مراكـز القـوى وتحكـم الأشرار في الثـورة وتسـلطهم عليهـا. لقـد كتبـت إليـك يـوم توليـك، وأيقنـت أنّ أمامـك معركـة حاسـمة مـع ذيـول «عبدالنـاصر» وخدمـه، الذيـن تحولـوا في

عهـده إلى مراكـز قـوى قاهـرة، لـذا فقـد عـذرت سـكوتك وقتهـا. ثـم كتبـت إليـك مـرة ثانيـة بعـد أن هدمـت المُعتقـلات، وأحرقـت شرائـط التنصـت، وبـشّرت بعهـد حُريـة وعهـد بنـاء لكنـك لـم تـرُد أيضًـا، مما أوقعـني في غـمٍ وزاد مـن حـيرتي، ودفعـني أن أقـرر أن أكتـب لـك الآن للمـرة الأخـيرة.

سيادة الرئيس..

لـن أسـتجديك، ولـن أسـتغيث بـك، ولـن أسـألك الإنصـاف، فأنـت تعـرف يقينًـا أنّـني هُنـا في مـكاني، وأنـت في مكانـك لأنّ القـدر اختـار لنـا ذلـك، وكان يُمكـن أن تكـون مـكاني وأكـون أنـا مكانـك، ووقتهـا لـم أكـن لأتـرك زميـلًا في النضـال، ورفيقًـا في السـلاح مُقيـد الـسراح إلى جـوار اللصـوص والقتلـة والمُجرمـين.

أنـت تعـرف يقينًـا أنّ القضيـة الـتي حوكمـت فيهـا كانـت مُلفقة، ويشـهد اللـه أنّـني لـم أطلـق رصاصـة واحـدة ولـم أؤذ أحـدًا، ولكـنّ سـدنة الطغيـان صـوروني كشـيطان، ووصمـوني بـكُل نقيصـة، ليرمـوا بي خلـف القضبـان، فهجرتـني أسرتي، وتباعـد عـني الأصحـاب، وهابـني الأقـارب، وأُهنـت وضُربـت وقاربـت المـوت، لكـن إرادة اللـه شـاءت لي المقاومـة والثبـات. لقـد كتبـت عـني الصُحـف أنـني إرهـابي ومجنـون وباحـث عـن شـهرة، وشـوّهت تاريخـي، وطمسـت نضـالي الـذي كنـت أنـت شريـكًا لي فيـه. وكأنّهـم أرادوا أن يلوثـوا تاريخـك، ويوغـروا صـدر قـادة الثـورة عليـك.

أخي العزيز..

اسـمح لي أن أحـذف الحواجـز بيننـا مثلمـا كانـت قبـل ثلاثـين عامًـا. إنّـك تعـرف تمامًـا أنّـني لا أبغـي سـوى المجـد لموطـني والحريـة لأبنائهـا، ولـم أكـن يومـا عـدوا للنـاس أو مُخربًـا للمجتمـع كمـا زعمـوا. نعـم كُنـت مُندفعًـا، كُنـت ثائـرًا، ومُتحمسًـا للتضحيـة والفـداء، ورُبمـا أخطـأت مـرة، وأصبـت أخـرى، لكنـني لـم أخـدع، ولـم أغـش، ولـم أخُـن. كُنـت

واضحًا كالشمس، لا أتلون مع مَن تلون، ولا أبدل مبدأ أو رأيًا، ولا أقول سوى ما أؤمن به.

عندما قُلت لي أنَّ قتل الإنجليز لا يُجدي وأنَّ قتل الخونة أولى وألح، آمنت وأمنت، وعندما أخبرتني أنَّ «مصطفى النحاس» مُخادع ومناور ويلعب بعواطف الناس صدقت ووافقت، ولما حكمت بأنَّه يستحق الموت أيدت الحُكم، وكُنت يدك الباطشة، ثُم جرى الأمر نفسه مع «أمين عثمان» وشعرت بالبهجة والرضا وهو يلفظ روحه أمامي لأنَّني كُنت أنفذ إرادة الوطن. كُنا معًا ضد الخونة، وضد العُملاء، وضد الفاسدين، ولا يصح أبدا أن تفترق بنا الدروب، فتلقي واحدًا في الجنة وواحدًا في الجحيم».

طوى الرئيس «أنور السادات» الخطاب المُرسل إليه عبر أحد الأصدقاء القُدامى الذي صار يعمل رجل أعمال، ثُم نظر لمُدير مكتبه، وسأله وهو يضغط على كل كلمة:

ــ قُل لي بالله عليك. ماذا تفعل إن كُنت مشغولًا بأمرٍ مصيري، ورأسك مُنغمس فيه ليل نهار، تُفكر فيه، وتُحلل، وتُناقش الناس، وترسم سيناريوهات، وتضع خططًا، وجاء إليك ولد كان يلعب معك في الماضي وأنت صغير، وقال لك كُنا كذا، وكُنا كذا، وكُنا...؟ ها ماذا تفعل؟

سكت مُدير مكتب الرئيس برهة، مفكرًا قبل أن يقول:

ــ سأعتبر أنني لم أسمع شيئًا.

هزَّ الرئيس رأسه مُبتسمًا، وقال:

ــ تمامًا.. تمامًا، وهذا ما سأفعله. أعد هذا الخطاب مرة أخرى إلى مرسله، وقُل له إنَّ الرئيس مُنشغل جدًا، وتعذَّر عرضه عليه، وأنَّ الأفضل أن تعرضه بنفسك عليه عندما تلتقي به.

ــ مفهوم. سيادة الرئيس.

هـزَّ مديـر المكتـب رأسـه، وانـصرف، لتنفتـح في ذاكـرة الرجـل الـذي صـار حاكمـا لوطـن ذاب حُبـا فيـه نافـذة رحبـة عـلى المـاضي المُنـصرم، مُسـتعيدًا تنظيمـات لا عـدد لهـا انضـم إليهـا وانفصـل، وخلايـا سريـة وضـع لهـا مُخططـات وأمدهـا بالسـلاح، وإخـوان حالفهـم ثُـم خالفهـم، وشـيوعيين اقـترب منهـم وانقلـب عليهـم، وضبـاط أحـرار سـار معهـم، ومـع غيرهـم، وأصدقـاء خسرهـم، وأعـداء وقـف إلى جوارهـم. تلـك هـي السياسـة، أجمـل مـا في الوجـود. قالهـا لنفسـه، قبـل أن يُشـعل غليونـه العاجـي، ويسـعل سـعلة خفيفـة أعقبتهـا ابتسـامة رضـا.

***

زحفـت النهايـات رويـدًا. انفتـح بـاب الزنزانـة بعـد تجاهـل وتسـويف ومماطـلات. لـم يُصـدق «حسـين» مأمـور السـجن عندمـا اسـتدعاه مُقدمًـا لـه منـدوب رئاسـة الجمهوريـة الـذي كان يحمـل قـرارا جمهوريـا بالعفـو الصحـي، وابتسـامة دبلوماسـية بـاردة.

آه يـا «سـادات» تذكـرت أخـيرًا صديقـك القديـم، رُبمـا مـرَّت برأسـك ذكـرى لقـاء قيسـون، واجتماعـات الغُـرف الضيقـة، ونقاشـات مواجهـة الخونـة. ربمـا تذكـرت زمالـة الحبـس، واتفاقـات إفسـاد التُهـم، وإتـلاف أدلـة واسـتنتاجات البوليـس السـياسي. ربمـا انتابـك الحنـين لصُحبـة جـروبي الساخطة عـلى الساسـة والأحـوال والمُجتمـع. تأخـرت كثـيرًا. قالهـا «حسـين» في سره وهـو يسـتمع لمنـدوب الرئاسـة يخـبره أنَّ الإفـراج عنـه تأجـل عـدة مـرات بسـبب مؤامـرة مراكـز القـوى، ثُـم الإعـداد للحـرب، ثُـم مفاوضـات إطـلاق النـار.

عـشر سـنوات في الجحيـم، وهـا هـو البـاب ينفتـح، لكـن مـتى؟ بعـد أن صـار بقايـا إنسـان، ونصـف مواطـن، وشـظايا بطـل؟ بعـد أن هجرتـه أسرتـه وتجنبـه أقاربـه وهـرب منـه الأصدقـاء واحـدًا تلـو الآخـر؟ بعـد أن

استوطنت داخله الآلام وأصابه الكبر، ونثرت الشيخوخة بذورها في جسده؟ تأخرت كثيرًا يا «حاج محمد». لكن عظيم أنَّك لم تبع، ولم تتنكر، ولم تمح ماضيك تمامًا. مازال لديك بعض الشهامة وبعض الوفاء. قالها دون أن ينبس بكلمة، وهو يلحظ على غير المُعتاد أدب مأمور الليمان وهو يتحدث إليه. سأل نفسه مُتعجبًا: ما أسرع تلون الناس وما أبسط انقلاباتهم! الأشرار يُصبحون أخيارًا في لمح البصر، ما دامت اللياقة تستلزم ذلك.

اشتم «حسين» هواء الصباح لأول مرة دون أن يمُر عبر أسلاك شائكة تُحيط سجنًا مُنعزلًا مُمتلئًا بالمآسي والأحزان. امتدت خطواته تدوس باستمتاع على أسفلت الطريق مُنتظرًا سيارة أجرة تقله حيث البيت الكبير، والذكريات المرصوصة في تصاوير الماضي. تذكر المُصافحة الأخيرة بينه وبين «عبدالقادر»، الذي أخبره أنَّه سيغادر إلى الإسكندرية دون رجعة أبدًا، وشعر بغُصة أن يرفض «مدحت» و«سعيد» وداعه رغم وعوده لهما بسرعة إنهاء قرار العفو عنهما. كانا صامتين كباب العنبر في هدأة الليل البهيم.

حاول «حسين» أن يستذكر وجوه زوجته، ابنتيه، زُملائه في العمل دون أن ينجح في تحديد ملامح الغائبين بدقة. شعر بثقل خطواته، وتراءت له مشاهد السيارات المارة مموهة، مُقدرًا أنَّه فقد كثيرا من اتزانه بفعل أمراض لا يعرفها وترسبات فشل في مقاومتها طوال سنوات الحبس. ركب في إحدى السيارات المُتجهة إلى رمسيس مُتلذذًا بالاستماع لأحاديث الناس الصاخبة، عن غلاء الأسعار، والفساد، والثراء السريع للمقربين والواصلين إلى السُلطة.

ــ الآن الرشوة أصبحت جهارًا نهارًا ولا يُمكن إنهاء عمل دون دفع.

قال أحد الجالسين مُخاطبًا آخر يركب إلى جواره:

ــ الأسعار نار وكيلو اللحم بـ 60 قرشًا ومرتبات الموظفين لا تتغير.

ردَّد راكب آخر ليسمع تعليقًا حازمًا:

ـ أي شاب الآن يرفض أن يعمل موظفًا بعشرين أو ثلاثين جنيهًا، ويذهب إلى بورسعيد ليعمل في التجارة ويكسب أكثر من مائة جنيه بأقل مجهود.

ـ السادات قال إنَّ مَن يطلب الثراء في عهدي سيُصبح ثريًا.

أي «سادات» هذا؟ سأل «حسين» نفسه مُستنكرًا. ما بال الناس تغيروا بهذه الحدّة؟ ما بال أحاديثهم تناست ما يجري في سوريا، والجزائر وفلسطين! ما بالهم لا يفكرون إلا في الصفقات والأموال وأكل العيش!

هزَّ رأسه مُتحسرًا وقال لنفسه: لا عليك. لا تهتم. أنت الآن: لا شيء. لا تاريخ، ولا بطولات، ولا أحلام بالزعامة. لا نصر ولا ثورة ولا استقلال. الناس تعبد المال، وكل المبادئ والشعارات الفضفاضة صارت جنونًا وإرهابًا. «إبراهيم كامل» أصبح سفيرًا في السويد ومُرشحًا لتولي وزارة الخارجية، و«سيد خميس» يُعد من رواد الإعلام، و«محمود مراد» صار أحد أكبر المقاولين. أما أنت فمازلت تبحث عن نفسك. آه آه يا زمن.

شعر بنغزات مُتكررة في صدره، ولاحظ أنَّ أصابعه تُصدر ارتعاشات واضحة، عندما استعاد ذكرى ضربه بسوط مُبلل بالزيت في الأيام الأولى للقبض عليه. قال لنفسه إنَّه لن يسترد «حسين توفيق» إلا عندما يسترد أسرته، وتعود زوجته وابنتاه من دمشق. فكَّر أنَّ «سُعاد» ستغفر له، وستفتح ذراعيها لتحتضنه، وستبدأ من جديد حياتهما المُنتقصة. إنَّه يعرفها جيدًا ويعلم أن قلبها رقيق، وطيب، ويحمل من الحُب ما يفيض على المُحيطين. تذكر وجهها الرقيق وعينيها الساحرتين، ليسأل نفسه إن كانت لا تزال تحتفظ بأنوثتها بعد تلك السنوات الطويلة، ثُم أجاب بأنها حتى لو كانت، فإنه لم يعد قادرًا على النهل من تلك الأنوثة. ليس أجمل من ابتسامة حقيقية ترتسم على وجهها. قالها في سرّه وهو يهبط من السيارة ليسير مُترجلًا

في شوارع وسط البلد. نظر إلى البنايات العالية، ولاحظ أنها لم تتغير رغم السنين، لكن وجوه الناس هي التي بدت مُتغيرة، حيث غابت تمامًا مسحة الطيبة، وابتسامة الرضا من فوق الوجوه. تابع بعينين غريبتين مشاهد البيع والشراء والزحام من الناس أمام المحلات التي صارت ملأى بالسلع الأجنبية. مرّ بميدان الأوبرا، وتذكر كيف ألقى قُنبلة خلفه ليخيف مطارديه يوم قتل «أمين عثمان». استعاد مشهد إطلاقه الرصاص على جندي بريطاني كان يعبر في شارع فؤاد في إحدى الليالي. رمى جروبي بنظرة ذكرى لتمر بخاطره ذكرى حسناوات نجيب اللاتي كان يقابلهن فيه. آلامريكان، سينما مترو، والتابعي، والبار اليوناني، كُلها شاهدة على عُمر من المشاغبة، وحيوات من المخاطرة، وحكايات من ألف ليلة وليلة.

ركب المترو إلى مصر الجديدة، واستعاد حديث مندوب الرئاسة، متوقعًا لقاء حارًا وودودًا مع رئيس الجمهورية. قال لنفسه إنّه الصديق «أنور السادات» وليس الرئيس. نظر إلى الناس حوله مُستغربًا كيف لم يعرفه أحدهم حتى الآن؟ تساءل إن كانت ملامحه قد تغيرت إلى حد أن ينكره الناس؟ ألم يكُن مطلوبًا ومطاردًا ومقدرًا بخمسة آلاف جنيه قبل ثلاثين عامًا؟ ما بال الناس سريعة النسيان؟ طعنته الآلام مرات ومرات، وشعر بدوار شديد، فأغمض عينيه لدقائق، ثُم هبط مارًا بشوارع لم يعيها، ومبانٍ لم يتذكرها، ووجوه لم يعرفها، قبل أن يسقط أمام باب البيت مغشيًا عليه.

***

ـ سرطان في الرئة.

سمع «حسين» صوت رجل عجوز إلى جواره يتحدث إلى آخر. تذكر أنّه خاله الذي عاش طوال عمره في أوروبا ولم يعُد إلا بعد دخوله

السجن متهمًا بالتخطيط لقتل «عبدالناصر». كانت الجلبة حوله تشي بتجمع كثيرين، لكنَّه لم يستبن العديد من الوجوه حوله. فكَّر سريعًا حاسمًا أمرهم ليُقرر أنَّهم لابد من الأقارب. حاول أن يتعرف على أيهم، ونجح بعد جُهد في أن يميّز وجه «نجيب» الذي كان يتحدث مع إحدى السيدات التي بدت كثيرة الشبه بـ«سناء». تركزت عيناه عليهما، ثُم بدأ كما تعلّم في السجن قراءة تحركات الشفاه ليصل إليه الكلام المرير:

ــ وصل إلى البيت قبل يومين، وعرفه بواب البيت المقابل، وسقط أمامه فاقدًا للوعي، فاتصل الرجل بنا لننقله إلى أقرب مستشفى.

ــ يااااه.

ــ الآن أخبرني الدكتور أنَّه في حالة متأخرة جدًّا، وأن الباقي له على هذه الأرض لن يتجاوز شهورا قليلة. لذلك اتصلنا بمندوب الرئاسة وأجابنا أنه على استعداد لنقله لمستشفى القوات المُسلحة في المعادي، هُناك سيتكفلون بعلاجه حتى النهاية. وعلى أي حال سنُخبر «سعيد» و«مدحت» فور خروجهما هذا الأسبوع، وسأتصل بزوجته لأخبرها إن كانت ترغب أن تُلقي هي والبنات النظرات الأخيرة عليه أم لا.

ــ لا أمل نهائيًا؟

ــ للأسف وصل المرض إلى العظام. لا أمل في العلاج. سيتكفل المورفين بتخفيف آلامه. وسيقضي معظم أيامه الباقية نائمًا، مُخدرا، غائبًا عن الوعي.

ــ هل يعرف؟

أنكر «حسين» سؤالها، واصطدم رأسه في الحائط. شعر بزغللة النظر تتصاعد، لتدور الساقية بسرعة شديدة ساحبة رأسه تجُره دون توقف. فجأة تراءى له وجه الضابط «إبراهيم إمام» يبتسم في ثبات، قبل أن يقترب منه ويقول: حسين أنت مُجرم. ردَّ صائحًا: لا أنا بطل، لكنَّ

الوجه الباسم كرر في حدة: أنت مُجرم. مُجرم. مجرم.

عبر أمامه «مُصطفى النحاس» مُنحنيًا على عكازه، والناس حوله مُحتشدة، نظر في وجهه، ثُم رنا للسماء بعينين شاكيتين. خلفه كانت هناك طفلة صغيرة تبكي. سمع الناس يُنادونها «عائشة»، اقترب منها فتوقفت عن النحيب وصفعته بقسوة وهي تردد: لم يكن أبي خائنًا. لم يكن أبي خائنًا. جرى خائفًا، فأبصر سيدة وطفلًا، تذكر أنَّه أطلق عليهما الرصاص في المعبد اليهودي في دمشق. قال وقلبه يرتجف: لقد قتلتكما، لكنَّ الطفل الصغير أجاب: لم نمت.

صعد إلى جبل عال فأبصر «حسني الزعيم»، وهو يضحك ضحكًا صاخبًا، وهم يُطلقون الرصاص عليه، ثُم نظر فوجد «أديب الشيشكلي» يشارك في فرقة الإعدام، وإلى جواره وقف «عبدالرحمن ناصر» رجل المخابرات السوري يبتسم في هدوء، ثُم غمز له بنصف عين، فصرخ «حسين» فيهم قائلًا:

ــ أيها الأوغاد مَن منكم مع مَن؟ ومَن ضد مَن؟ مَن البطل؟ ومَن الخائن؟ مَن المُنتصر؟ ومَن المهزوم؟

سمع ضحكات «نوار» الفلسطيني، وهو يشرح له:

ــ يُصنع الديناميت من مادة النيتروجلسرين بعد أن يضاف إليه التراب المُترسب على الصخور الجبلية ويخلط المزيج بعد ذلك بـ...

صرخ «حسين» مُجددًا فيه كي يصمت، لكن صوت «جمال عبدالناصر» صك أذنيه، وهو يخطب قائلًا:

ــ إنَّ قوى الاستعمار تظُن أنَّ جمال عبدالناصر هو عدوها، وأريد أن يكون واضحًا أمامهم أنَّها الأمة العربية كلها وليس جمال عبدالناصر.

شعر بخناجر تطعنه في حلقه، وحاول أن يستبين ملامح الطاعن لكنَّه لم يتمكن من تمييزها، اشتم رائحة تبغ يعرفه، ثُم سمع صوتًا أجش، فجرى خائفًا، وارتمى خلف إحدى السيارات المُغطاة،

ليجد يدًا حانية تمسح على رأسه، وسمع صوتًا رقيقًا يهمس في أذنه:

ـ حسين. لا تخف. أنت ضحية.

كانت الشخص الوحيد الذي لم يخف منه، وشعر بدفء أنفاسها، وهتف شاكرًا:

ـ شعاااااااااد.

وسأل نفسه إن كان وجودها حقيقة أم حُلمًا. وابتسم غائبًا في اللامكان.

تمت

تذييل

استمدت الرواية من وقائع حقيقية، لذا فإنَّ معظم أبطالها حقيقيون، واستندت الرواية إلى عدة مصادر كان أهمها كتاب «اغتيال أمين باشا عثمان» الصادر من مركز وثائق مصر بإشراف الدكتور نبيل عبدالحميد سيد أحمد، والدكتور يواقيم رزق مرقص، وكتاب «المحاكمة الكبرى في قضية الاغتيالات الكبرى» للطفي عثمان، وكتاب «الكفاح المسلح ضد الإنجليز» لوسيم خالد، فضلًا عن ملف حسين توفيق بمؤسسة الأهرام للصحافة.

الكاتب في سطور

ـ من مواليد القاهرة 1976 ويعمل بالصحافة.

ـ صدر له 15 كتابا متنوعًا من بينها ثلاث روايات هي «ذاكرة الرصاص»،»انقلاب» و«البصاص».

ـ كتب أول سيرة لزينب الوكيل حرم الزعيم مصطفى النحاس تحت عنوان «سيدة مصر»، وحقق كتابه «العسكري الأبيض»عن سيرة الفريق سعد الدين الشاذلي ثلاث طبعات.

ـ فاز بجوائز نقابة الصحفيين المصريين ثلاث مرات عن أفضل مقال سياسي سنة 2013، وأفضل مقال سياسي عام 2015، وأفضل عامود صحفي عام 2015.

ـ صفحة الكاتب على الـfacebook:

Mostafaebeldwriter

نيتروجلسرين

"تذكر أنَّ بينك وبين الغياب ساعات قد تطول وقد تقصر، وأنّ عليك أن تُصفّى ذهنك وتُنقى بالك لتستنطق لحظاتك لحظة لحظة، تكُر فيها ما كان دون دفاع أو تبرير، وتستعرض خلالها ما فعلت دون حجب أو تورية. لا تنتظر إنصافاً ولا تُقدم ندماً وإنما تترك ما تعرفه لكاتب الصُدفة ليصيغ ما يراه جديراً بالحكى لأجيال قادمة تتخبط وتتشابك أمامها الرؤى والدروب. ستترك حكايتك أمانة لكاتب لا يحبك ولا يكرهك، يدونها كعظات لتائهين يؤمنون أنَّ الخلاص فى القتل."

فى رواية مليئة بالإثارة وحبس الأنفاس تتبع " نيتروجلسرين" قصة حقيقية لوحش فِطرته القتل، رجل حولته الأضواء إلى بطل تفتتن به النساء ويهابه الساسة وذوى الألقاب. حسين توفيق قاتل من نوع غريب عاش فعلاً بيننا.

تتشابك حقائق التاريخ مع الخيال لتعيد رسم أحداثاً درامية انقلب فيها القتلة إلى مُناضلين، وتحول بها الشُرفاء إلي خونة. صفحة من التاريخ السري لمصر التي نخجل أن نراه.

9 789778 200508

KAYAN PUBLISHING
كيان
Kayan